عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

صور التّواصل غير اللّفظي في شعر الغزل العذري – الإباحي
(دراسة في شعر غزل الحجاز في العصر الأموي)

إعداد الطالبة
شريفة محمد عبد الله الزير

رسالة ماجستير

القدس – فلسطين

1432هـ – 2011م

عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

صور التّواصل غير اللّفظي في شعر الغزل العذري – الإباحي
(دراسة في شعر غزل الحجاز في العصر الأموي)

إعداد الطالبة
شريفة محمد عبد الله الزير

رسالة ماجستير

القدس – فلسطين

1432هـ – 2011م

صور التّواصل غير اللّفظي في شعر الغزل العذري – الإباحي
(دراسة في شعر غزل الحجاز في العصر الأموي)

إعداد الطالبة

شريفة محمد عبد الله الزير

بكالوريوس اللغة العربية

جامعة بيت لحم – فلسطين

إشراف

الدكتور سعيد شواهنة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها

عمادة الدراسات العليا– جامعة القدس

1432هـ – 2011م

جامعة القدس
عمادة الدراسات العليا
برنامج اللغة العربية

إجازة الرسالة

صور التّواصل غير اللّفظي في شعر الغزل العذري – الإباحي
(دراسة شعر غزل الحجاز في العصر الأموي)

اسم الطالبة: شريفة محمد عبد الله الزير
الرقم الجامعي: 20510196

المشرف: الدكتور سعيد شواهنة

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 2011/07/23م من لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتواقيعهم:

1. رئيس لجنة المناقشة: الدكتور سعيد شواهنة التوقيع:.....
2. ممتحنا داخليا: الدكتور أحمد دعمس التوقيع:.....
3. ممتحنا خارجيا: الدكتور يحيى جبر التوقيع:.....

القدس – فلسطين
1432هـ - 2011م

الإهداء

إلى الصدر الحنون والقلب الدافئ، صاحبة البصر النافذ
والعقل الراجح التي نخفض لها جناح الذلّ والرحمة
إلى أميّ الغالية

إلى كلّ روافد العطاء وصلة الحبّ من والد، وإخوة، وأخوات، وأصدقاء

إلى رفيق الدرب، وسكن الفؤاد، وشريك الحياة... زوجي

إلى أبهى نور رأته عيناي، مهجة القلب، وزينة الحياة، وهمسة سمعي، ولمسة نفسي
ابنتي الحبيبة رِتاج

إقـــــــــرار

أقر أنا مقدمة هذه الرسالة أنها قدمت لجامعة القدس لنيل درجة الماجستير، وأنها نتيجـــة أبحـــاثي الخاصة باستثناء ما تم الإشارة إليه حيثما ورد، إن هذه الرسالة أو أي جزء منها لم يقدم لنيـــل أي درجة عليا لأي جامعة أو معهد.

الاسم: شريفة محمد عبد الله الزير

التوقيع: .....

التاريخ: .....

الشكر والتقدير

أشكر الله وأحمده حمداً كثيراً على نعمه وتوفيقه، وأصلّي وأسلّم على الحبيب المصطفى صاحب الهدي والقرآن محمد عليه السلام، وأئمة البيان من علماء العربيّة على مرّ الأزمان.

يطيب لي أن أتوجّه بالشكر والامتنان إلى الدكتور سعيد شواهنه الذي أشرف على هذه الرسالة، لمساهمته في إنجازها من دعم واقتراحات وملاحظات قيّمة، أسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء ويجعل عمله في ميزان حسناته.

كما أتقدّم بالشكر إلى كل من مدّ لي يد العون من نصح وإرشاد وعمل في إنجاح هذا العمل، وأخصّ بالذكر زميلاتي المعلمات.

وثمّ أتقدّم بالشكر إلى الأساتذة الأفاضل في دائرة اللغة العربيّة الذين هم شعلة النور، وإلى كلّ العاملين في جامعة القدس.

كما أزجي بجزيل الشّكر وعظيم العرفان إلى الأستاذين الممتحنين:
الدكتور أحمد دعمس والدكتور يحيى جبر
على تكرّمهما بقراءة هذا البحث ومناقشته، وإثرائه بالنصح والإرشاد.

الملخص:

إنّ التّواصلَ غير اللّفظيّ أصبحَ أساسيّاً في مختلف مجالات الحياة تماماً مثل تواصُلنا عبر اللّسان في العمل، وفي الجانب الاجتماعيّ والعاطفيّ، والاقتصاديّ، والسياسيّ. لذلك نجدُ أنّ النّظريات الباحثة في أصل نشأة اللّغة الإنسانية، وأوليّة الاتّصال والتّواصل الإنسانيّ القديمة والحديثة لم تتجاهل دور حواس الإنسان في مساندة التّواصل اللّفظي.

فمنح العلماءُ المهتمون بالتّواصل والاتّصال الإنسانيّ من لغويّين، وفقهيّين، واجتماعيّين أهميّة كبيرة لأعضاء الجسد لدورها الفعّال في زيادة فهمنا لدلالات الأشياء، وما يصدر عن الإنسان من تعابير لفظيّة، فاعتُبرتْ لغةُ الجسد الدّليل المادي الملموس في إثبات صحة أوزيف ما قلناه أو نقوله كاحمرار الوجه عندما نشعر بالخوف، أو الخجل بل تعدّت ذلك، فأصبحت حركة المتكلّم وعاداته، وأفعاله وتغيّر لون وجهه، وتقطّب جبينه، وحركة رأسه، وتقليب عينيه، وغير ذلك من قرائن دالّة على أحوال الإنسان في مختلف المواقف علماً مستقلاً عن الألفاظ، عُرف (بعلم الكينات) أي علم الحركة الجسميّة، علم له أسسه البنيوية على غرار علم اللّغة.

فالإيماءات والتأشيرات الجسمية من اختراع الإنسان لجأ إليها لأهميتها في التفاعل الاجتماعي والتواصل العاطفي، حيث إن الكثير من التعبيرات العاطفية في مواقف الحب والعشق يعجز الإنسان التعبير عنه باللغة اللسانيّة.

ولهذا قمت بدراسة صور التّواصل غير اللّفظي في دواوين شعراء الغزل، شعراء الحبّ الذين هم نتاج البيئة الحجازيّة في العصر الأمويّ، العصر الذي طالما بقيت فيه التربية مبنية على أساس المحافظة والحشمة في ظلّ العادات والتقاليد العربيّة – الإسلاميّة، والتي تمنع ذلك الحبّ العاطفيّ بين المرأة والرّجل دون وجود علاقة شرعيّة، أو ذلك الحبّ الذي يخرج عمّا هو مألوف ومتعارف عليه في كيفية ارتباط المرأة بالرجل في المجتمع البدويّ، وأمام هذه العقبات التي تحرّم مثل هذا النوع من الحبّ تفجّرت طاقة شعريّة كشفت لنا عن الوسائل غير اللّفظية، التي استعان بها هؤلاء العشّاق للتواصل مع المحبوب، منفّسين عن تلك المشاعر المكبوتة في مختلف المواقف عبر لغة الجسد. وكان من العلامات غير اللّفظية مبعث إثارة لتلك المشاعر المكبوتة لدى المحبّ، متذكراً من خلالها ماضيه المؤلم التي تسمّى "النُّصْبَة" المتمثلة في الجوامد الخرس كالأطلال.

ففي هذا الموروث الشعريّ العربيّ ولاسيّما الغزل العذريّ والإباحيّ ما يعتمد كشواهد شعريّة تثبت أهمية لغة الجسد في مجال الحبّ العاطفيّ، لغة كادت تتغلّب على لغة اللّسان في مواقف الإبانة عن مشاعر المحبّين، فكانت وما زالت دليلاً ماديّاً يكشف عن صدق مشاعر طرفيّ الحبّ، وكما لا يغيب عن أذهاننا دورها الفعّال في استمرار التّواصل بينهم في المواقف التي يحظر التّواصل بلغة اللسان مع الحبيب في ظلّ وجود الرقيب من واشٍ وكاشح (العدوّ المبغض).

Abstract

Non-verbal communication has become a basic type of the various aspects of our life. Also, it has become exactly as our verbal communication by using our tongue in the social, emotional, economical and political life. So, we can find many theories which study the origins of the beginnings of human language and verbal communication. These theories don't ignore the basic role of the human senses and the body language in supplement the verbal communication.

We can find many linguistics and experts, who are interested in the human communication, have given a big deal to the vital role of the body organs in transmitting the meaning in the correct way. So, the body language and facial expressions can prove the truthiness or unreality of what we say, as when our faces turn to the red colour or feel shy when we say something. Hence, we can find an independent science with ifs experts and specialists in the field of the non-verbal human communication. This field was called "Kinesics" which deals with the language of the body organs and it has its own principles and rules.

Human being has used the body hints and postures intensively, because they are very important in the social life and emotional communication so we can find many sympathy and a motional expressions sent by the non-verbal communications and were expressed more clearly than verbal communication.

I studied the forms of non-verbal communication in the platonic poetry in Al-Omaween era. That era was characterized with morality and keeping the Arabic-Islamic traditions and customs. So, the love was considered as something illegal and the poets couldn't express their feelings and sympathy to their lovers. That deprived them and formed as an obisticle to them, so they used the non-verbal communication and the language of the body to transmit their sympathy and feelings to their lovers.

In this heritage of the Arabic poetry, especially the platonic and the licentious poetry, we can see the vital role of the body language and non-verbal communication which seems to be greater than the verbal one. Moreover, this kind of communication helped the deprived poets to express their feelings and succeeded in expressing the meanings and sympathy of the poet. Another fact is that the body language and non-verbal communication enabled the poets expressing their feelings to their lovers when the Jealous and talebearers were existent.

المقدمة

الحمد لله الذي خلقنا في أحسن تقويم على هذه البسيطة، حمداً يُجلُّ ولا يملّ على هدايته لنا برسالة نبيه المبعث إلى العالمين نوراً ورشاداً، محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى آله وصحبه أجمعين، الذي كلّف بحمل معجزة البيان وحلاوة الكلام، وسحر الأرنان، قرآن الرحمن الذي دعانا إلى إعمال الفؤاد والسمع والبصر في آياته الكونيّة لنستبصر بها كدلائل على ربّ الأرباب الذي لا يشركه أحد في بديع صنعه وإعجاز بيانه، فأمّا بعد:

فهذه الجوارح التي جَعَلت الإنسان في أرقى صورة ارتسم عليها، اعتُبِرتْ من وسائل البيان الإنسانيّ، التي تواصل بواسطتها الإنسان مع أبناء جلدته منذ قديم الأزل، إلى جانب تطوّر لغة اللّسان، فلا تكاد أيّ نظريّة من النّظريات الباحثة في أصل نشأة اللّغة الإنسانيّة أن تفصل بين الجوارح واللسان في معرفة الإنسان البدائيّ أصول الكلام – قادتني إلى دراسة أشكال التّواصل غير اللّفظي التي استعان بها العشّاق من شعراء الغزل الذين تزامن ظهورهم في العصر الأمويّ في بيئة الحجاز، فصنّفوا إلى قسمين شعراء الغزل العذريّ والمتمثلة في الشاعر جميل بثينة، وقيس بن الملوح، وقيس بن ذريح، وكثيّر عزّة. وشعراء الغزل الإباحيّ الذين يمثلهم كلّ من عمر بن أبي ربيعة، والعرجي، والأحوص، وآخرون جمعوا بين العذريّة والإباحيّة، أمثال يزيد بن الطثريّة وعبد الله بن الدّمينة.

فجاءت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة رسالة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، حيث إنّه لم تكن هناك دراسة كاملة تَعرض لنا مختلف أشكال التّواصل غير اللّفظي في شعر الغزل العذريّ والإباحيّ. فاستعنت بجملة من الدراسات الحديثة التي اهتمت بالتّواصل غير اللّفظي في باب الأدب، بمساعدة مشرف الرسالة الدكتور سعيد شواهنة، وأخصّ بالذكر كتاب (البيان بلا لسان) للدكتور مهدي أسعد عرار، وكتاب (اللّغة والحواس) للدكتور محمد كشّاش، وكتاب (اللغة والحواس) للدكتور يحيى جبر، حيث أثْرَتْ ثقافتي في فهم صور، وطرق التّواصل غير اللّفظي التي استعان بها العشّاق قديماً وحديثاً، وكما أرشدتني إلى المصادر والمراجع التي اهتمت بدراسة لغة الجسد ومختلف أصناف البيان غير اللّفظي والتي لها علاقة بفصول دراستي.

فاعتمدت في هذا البحث المنهج التّكامليّ، وذلك باستخدام عدد من المناهج وفق حاجة الدّراسة وخاصة المنهجين: التّحليلي والوصفي، والتي من خلالها تتبعت مختلف أشكال التّواصل غير اللّفظي في دواوين شعراء الغزل الذين يدور حولهم هذا البحث، وما أفادته هذه الصور غير اللّفظية من دلالات مختلفة بين المحبين، وذلك تبعاً للمواقف التي فرضتْ عليهم اللّجوء إلى التّواصل عبرها مع الحبيب، وقد جاء بحثي في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

ففي التمهيد تمّ الحديث عن أولية التّواصل الإنسانيّ، فتناولت فيه بعض النّظريات التي اجتهدتْ في تفسير أصل نشأة اللغات، ثم تعرّضتُ لمفهوم التّواصل الإنسانيّ لغة واصطلاحاً.

أمّا الفصل الأول، فاستعرضت فيه أشكال البيان غير اللّفظي عند القدماء وأخص بالذكر العلامة الجاحظ الذي فصّل القول في صورالإبانة عن الأشياء جاعلاً إيّاها في خمس صور، حيث يمكنها نقل رسائل مختلفة ذات دلالات موحية. كما استعرضت صور التّواصل غير اللّفظي التي اهتمّ بها المحدثون بشكل كبير، ولاسيّما الغربيّين الذين لم يجهلوا أهميتها في عملية التّواصل الإنسانيّ في عصرنا الحديث بل أصبحت جزءاً هامّاً في نقل رسائل مختلفة، تؤول إلى دلالات متعدّدة حيث تلعب الخلفيّة الثقافيّة والعادات والتقاليد في المجتمع دوراً فعالاً في وجود هذا الاختلاف الدلالي من مجتمع إلى آخر. الأمر الذي فتح المجال أمام ظهور نظريّات لغويّة ذات طابع دلاليّ في مجال علم اللغة الغربيّ الحديث، تتمثل في النّظريّة السّيميائيّة (علم العلامات) الذي مهّد الطريق إليه العالم السويسريّ (دي سوسير) فالعلامة عنده سواء أكانت لغويّة أو ماديّة تقوم على وجود علاقة بين الدال (الرمز) والمدلول (المفهوم) فأهمل الشيء الماديّ في الواقع (المشار إليه)، الأمر الذي قاد إلى ظهور النّظريّة الإشاريّة والتي اشتهرت بمثلث (أوجدين – ريتشاردز) المفصلّة في كتابهما (معنى المعنى). تباينت وجهات نظر الباحثين الغربيّين في علم السيمياء حول مفهوم العلامة ومجالات علم العلامات، فاهتمّ العالم اللغويّ (بيار غيرو) بعلم السيمياء فألّف كتاباً بهذا الاسم مطبقاً فيه ما يمكن تطبيقه من صور النّظريّة السّيميائيّة في مختلف مجالات الحياة العلميّة والأدبيّة والاجتماعيّة من غير أن يتحيّز إلى اعتبار العلامة هي الأصل في علم اللغة كما ذهب إلى ذلك العالم دي سوسير، فظهور المصطلح (العلامة) في علم اللغة الحديث لا يعني هذا إهمال لنظريّة السياقية – الحاليّة، بل يلعب السّياق اللّغويّ وسياق الحال (المقام) دوراً كبيراً في فهم المقصد من وراء المفردات وبالتالي تعدّد دلالاتها. وهذه النظريّات كانت مدار البحث في الفصل الثانيّ.

أمّا في الفصل الثالث، والذي هو محور دراستي فقد ألقيت نظرة على طبيعة الحياة الاجتماعيّة في البيئة الحجازيّة التي تقسم إلى حياة مدنيّة حيث الرّفاه والغنى والإقامة والطمأنينة، والانفتاح، وحياة بدويّة ترتكز على الرّعي والتّرحال، وعدم الاستقرار، والتشبّث بروح الجماعة، وهذا التّباين في أساليب العيش في البيئة الحجازيّة انعكس على الجانب النّفسيّ لحياة شعراء الغزل، ممّا أنتج شعراء منعّمين عشقوا الجمال وتتبّعوه في المرأة المرفّهة وعلى رأسهم الشّاعر عمر بن أبي ربيعة، فأطلق عليهم الدّارسون والنقاد المحدثون مصطلح الإباحيين، وآخرون أحبّوا فأخلصوا في حبّهم، فجعلوه في واحدة، فعانوا ومُنعوا من الحبيب، فهاموا على وجوههم. فهم من صُنع تلك البادية التي لا ترى في هذا النوع من الحبّ الذود عن كرامتها لذلك وقفت في وجهه وعلى رأسهم الشاعر

جميل بثينة، قد أطلق عليهم النقاد مصطلح العذريّين. حيث أُفدت في هذا القسم من كتاب (الغـــزل العذري – دراسة في الحبّ المقموع) للدكتور يوسف اليوســـف، وكتـــاب (سوســـيولوجيّة الغـــزل العربيّ)، للدكتور طاهر لبيب.

ثمّ قمت بتتبع صور التّواصل غير اللّفظي التي لجأ إلى الاستعانة بها شعراء الغزل من كلتا البيئتين على حدّ سواء دونما وجود اختلاف واضح في صورها ودلالاتها في أشـــعار الفئتـــين، العذريّـــة والإباحيّة. والتي تتحدّد في لغة الجسد، والنُّصْبَة المتمثلة في الجوامد الخرس كالأطلال، والدلالات الموحية من عناصر الطّبيعة كالطّيور والظّباء.

ولقد واجهتني صعوبة فهم الدراسات الحديثة المترجمة المتعلّقة بالنظريّة الســـيميائية والإشـــاريّة وتحليلاتها لمفهوم الدال والمدلول، واختلاف وجهات نظر المحدثين الغربيّين اتّجاه الدال والمدلول.

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في هذا البحث، وأن يغفر زلاتي وأخطائي في هذا البحث المتواضع.

التمهيد:

أولاً:- أولية التّواصل

لم تكن اللغة الإشاريّة والإيمائيّة في منأى عن الدّراسات التي دارت حول نشأة اللغة الإنسانيّة، خصوصاً أنّ الإنسان البدائيّ اعتمد بشكل كبير على الإشارات والإيماءات خلال تواصله مع أفراد جنسه للتعبير عن حاجاته، إذا ما كان يعجز عن الإبانة عنها بواسطة النطق فيما لو كان يجهل تلك الأصوات المنطوقة حول مسميات الأشياء في بدايات التّواصل الإنساني اللسانيّ. بهذا يكون الإنسان الأوّل قد أعمل جوارحه نحو الشيء المومأ إليه وقت نطقه بأصوات اتجاه ذلك الشّيء، فيأتي التأشير مصاحباً للاسم المنطوق، وهذا ما نبّه إليه ابن جنّي خلال تطرقه لأصل اللغة وفق نظريّتي الاصطلاح والإلهام، فهما تحتاجان إلى استخدام الجوارح لتحديد الشيء المصطلح على تسميته، فبحسب رأي أهل النّظر في أنّ أصل اللغة هو التواضع والاصطلاح، وقد أشار ابن جنيّ إلى هذا الرأي: "فكأنّهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم، فأشاروا إليه، وقالوا: إنسان، إنسان، إنسان، فأي وقت سُمِع هذا اللّفظ عُلِم أنّ المُراد به هو الضّربُ من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه، أو يده أشاروا إلى ذلك، فقالوا: يد، عين، رأس، قدم أو نحو ذلك، فمتى سُمِعت اللّفظة من هذا عُرِف مُعنيّها".[1]

وكذلك الأمر بالنسبة للرأي الذاهب إلى أنّ أصل اللغة وحي (توقيف) من عند الله تعالى، فالعظيم الله جلّ شأنه ليس له جارحة، على أساس هذا لابدّ لأوّل اللّغة من المواضعة بالمشاهدة والإيماء، فكيف تكون المواضعة على اللّغة من الله تعالى، فكان الرأي: "...، بأن يُحْدِث في جسم من الأجسام خشبة أو غيرها إقبالا على شخص من الأشخاص، وتحريكاً لها نحوه، ويُسمع في نفس تحريك الخشبة نحو ذلك الشخص صوتاً يضعه اسماً له،...، فتقوم الخشبة في هذا الإيماء والإشارة، مقام جارحة ابن آدم في الإشارة بها في المواضعة،..".[2]

فمن المعقول أن تساند الجوارح الأصوات المنطوقة في تحديد الأشياء لربطها بلفظ معين لكي يسهل الوصول إليه دون الحاجة إلى إحضاره أو الحضور إليه، من غير أن يكون هناك علاقة منطقيّة بين الاسم ومسمّاه.

فظهرت في العصر الحديث نظرية الإيماء والنطق (The oral- qesture source) تشير هذه النظريّة إلى وجود علاقة قويّة بين الإيماء الماديّ (لغة الجسد) والإيماء الشفويّ (التعبير الصوتي) فمثلاً: التعبير الشفويّ في قولنا: "وداعاً" هو وصف للتلويح باليد (إيماء ماديّ)، فالتلويح باليد جاء

---

(1) ابن جني، الخصائص، مج 1، ص 44.
(2) ابن جني، م. ن، مج1، ص 46.

مقترناً بلفظة وداعاً على وجه الخصوص لنقل الدّلالة نفسها ، فكأنّ الأصوات الملفوظة في كلمة (وداعاً) تناسبها حركة التلويح باليد دون غيرها من الحركات الجسميّة.
ينتقد جورج يول هذه الافتراضيّة: "بمقدورنا حقّاً استعمال التمثيل الجسديّ، أو إيماءات معينة من أغراض التّواصل، ولكن من الصعوبة بمكان تصوّر الجانب اللّفظي الحقيقيّ الذي يتطابق مع تلك الإيماءات، وفضلاً عن ذلك فهناك عددٌ هائلٌ من الرّسائل اللّغويّة التي يتعذر توصيلها بواسطة هذا النّوع من الإيماء".[1]

ورأي ثالث يعرضه ابن جنّي يرى أصحابه أنّ أصل اللّغات إنّما هو تقليد الأصوات المسموعة: "كدويّ الرّيح، وحنين الرّعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبّل".[2]

وهذا الرأي عند ابن جني مذهب مقبول، هو أقرب إلى الصّحة من الآراء السابقة، فبمساعدة الحواس التي يمتلكها الإنسان من سمع وبصر وجوارح كالتأشير باليد –على تقليد الأصوات الطبيعيّة، وناهيك عن الحركات الغريزيّة التي تأتي كردّة فعل للانفعالات الطبيعيّة كالخوف، والغضب، والفرح، والألم، والحزن. ففي العصر الحديث ظهرت نظريّة ترى أنّ أصل اللّغات ناتج عن غريزة "التعبير الطبيعيّ عن الانفعالات"[3] المزوّد بها الإنسان، وهذه الغريزة تفرض على الإنسان القيام بحركات وأصوات خاصة تطوّرت إلى كلمات تعبر عن حاجات الإنسان الماديّة أو المعنويّة.
فإذا تأمّلنا نظرية الاصطلاح أو الإلهام من المصدر الإلهيّ، نجد أنّ أولية اللغة اللسانيّة اعتمدت على وسائل غير لفظيّة للربط بين اللّفظة المسموعة والشّيء المشار إليه الذي خصّ بهذه اللّفظة ليتميّز بها عن غيرها من مسميات الأشياء.

وكذلك الحال مع النّظريات الأخرى كنظريّة محاكاة الأصوات المسموعة ،ونظريّة الغريزة والانفعالات الطبيعيّة. فالإنسان يحاكي الأصوات الطبيعيّة بصوته مقلّداً نفس الصوت الذي سمعه من مصدره عبر حاسة السّمع، كما أنّ البصر يتتبع مصدر الصّوت لتكتمل الصورة في الذّهن حول ذلك الشيء، وقد يستعين بجوارحه ليقلّده في حركاته، فمثلاً: يسمع صوت العصفور، فيقلّد صوته،

---

[1] جورج يول، معرفة اللغة، ص 19.
[2] ابن جني، الخصائص، مج1، ص 46-47.
[3] علي عبد الواحد وافي، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، ص 34.

وحركة أجنحته فيحرك يديه متشبهاً برفرفة جناحيه، فتعلق هذه الأحداث في الذّهن، فيكررها إذا ما احتاج إلى ذلك أمام أبناء جلدته في حال غياب ذلك العصفور.

وكما أنّ الإنسان يتعرّض لمواقف متباينة، فيتولّد عنده انفعالات مختلفة تبعاً لهذا المواقف، فتنعكس على سلوكه الجسمانيّ. فيكون اتساع العينين في مواقف الخوف والخطر، واحمرار الوجه في مواقف الدّهشة والإحراج، وانقباضه في حالة الغضب والعبوس، وانفراج أساريره في الفرح والسرور،... الخ. فهذه العلامات غير اللّفظية تسهم إسهاماً كبيراً في الكشف عن الوضع الذي يكون عليه الإنسان، فتوحي من الدّلالات على نحو ما يمكن الاستغناء بالتعبيرات غير اللّفظية عن التعبير اللّفظي.

إنّ الإيماءات والتّأشيرات الجسميّة من اختراع الإنسان لجأ إليها لأهميتها في التّفاعل الاجتماعيّ، والتّواصل العاطفيّ، حيث إنّ الكثير من التعبيرات العاطفيّة في مواقف الحبّ والعشق يعجز الإنسان التعبير عنها باللّغة اللّسانيّة إلا إذا كان يمتلك موهبة شعريّة، يصنع من خلالها كلماته العاطفيّة،و يعتبر الدكتور (هجمان) اللغة وسيلة ضعيفة من أجل التّعبير العاطفيّ إلى حدّ ما، فمعظم التّعبير العاطفيّ ما زال يتم إنجازه على مستوى غير لفظيّ.[1]

ثانياً:- ماهية التّواصل غير اللّفظي

ظهرت في عصرنا الحديث مؤلفات تحمل عناوين الاتصال والتّواصل الإنسانيّ لأهميتها في التفاعل الاجتماعي، وكلّ هذا لم يأت من فراغ بل نتيجة حاجة الإنسان للتعامل مع الآخرين، وفهم عاداتهم وتصوّراتهم وأساليب حياتهم التي تختلف من مجتمع إلى آخر، وناهيك عن تعقّد الحياة وتشابكها، واتساع المعلومات وتعدّد طرق ووسائل نقلها ونرى أنفسنا أمام مصطلحين من مصطلحات التفاعل الاجتماعيّ: الاتصال والتّواصل، حظيا باهتمام الباحثين، وحاولوا التّفريق بينهما، كما أنّ للمعاجم مساهمتها في الكشف عن دلالة كلّ من الاتصال والتّواصل.

[1] ينظر : روي. سي. هجمان، م. ن، ص 114.

الاتصال والتّواصل لغةً:

الاتصال والتّواصل من الجذر وصل.

فالوصل ضدّ الهجران، خلاف الفصل. ووصل بمعنى اتّصل. فجاء في التنزيل العزيز: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾[1] يتّصلون أي ينتسبون. اتّصل الشيء بالشيء: لم ينقطع.[2]

والاتّصال: الانتساب والاعتزاء. الاتصال: أن يقول يا لفلان، والاعتزاء أن يقول: أنا ابن فلان. وصل إليه، واتّصل إذا انتمى. وتوصّل إليه: أي تلطّف في الوصول إليه.

والتّواصل: ضدّ التّصارم: أي ضدّ التقاطع. وجاء في الحديث الشريف "من أراد أن يطول عمره فليصل رحمه"[3]، وقال ابن الأثير: وهي كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب، والأصهار والعطف عليهم والرّفق بهم والرّعاية لأحوالهم.[4]

نلاحظ من هذا التفسير المعجميّ أنّ الاتصال فيه انتماء وانتساب وافتخار بالقوم الذين يتفرّع منهم الشخص، فيؤكّد أصله باتصاله بهم، فهم هويته الدّالة على حسبه، وتميّزه عن الآخرين من غير قومه أو قبيلته في أي مكان كان به.

والتّواصل هو التخالط، وتبادل العلاقات القائمة على التراحم والتلاطف أثناء التعامل مع الآخرين، وعدم هجرهم أو الامتناع عن تكليمهم الأمر الذي يؤدي إلى المقاطعة والتباغض والكراهية والنفور.

أكثر الدّراسات الحديثة المهتمة بالاتصال الاجتماعيّ الإنسانيّ، تستخدم مصطلح الاتصال لشموليته، وأنّ التّواصل قد ينشأ نتيجة عملية الاتصال. ولهذا سنجد أنّ تعريفات الاتصال تحتوي ضمنياً على معنى التّواصل أيضاً، لأنّه لابدّ أن ينشأ عن الاتصال تبادل للمعلومات والعلاقات بين الأفراد. ومن هنا يصعب الفصل بين المصطلحين فصلاً تامّا، سنعرض لبعض تعريفات الدّارسين للاتصال والمهتمين بالتّواصل الإنسانيّ.

فالاتصال عند "جورج لندبرج" هو: "التّفاعل بواسطة العلامات و الرّموز، وتكون الرّموز عبارة عن حركات أو صور أو لغة أو أي شيء آخر تعمل كمنبه للسلوك، أي أنّ الاتصال هو نوع من التّفاعل الذي يحدث بواسطة الرّموز".[5]

---

[1] سور النساء، آية 90.

[2] الجوهري ، معجم الصحاح، مادة: وصل.

[3] بحثت ولم أجده في مصادر الحديث بنصه هذا.

[4] ابن منظور، معجم لسان العرب، مادة: وصل.

[5] مكاوي، حسن وآخرون، الاتصال ونظرياته المعاصرة، ص 24.

فَحَسَب هذا التّعريف تتعدّد وسائل الاتصال من لفظيّة وغير لفظيّة كرموز تعمل على إثارة سلوك مستخدميها، فينتج عن ذلك حدوث استجابات معينة أثناء التفاعل بهذه الوسائل.

إنّ مجال الاتصال واسع، لا يقتصر على جانب معيّن، "استخدمت كلمة (communication) في مضامين مختلفة وتعدّدت مدلولاتها فهي في أقدم معانيها تعني نقل الأفكار والمشاعر والمعلومات والاتجاهات من فرد إلى الآخرين".[1]

ومن التعريفات الأكثر تداولاً بين الباحثين المحدثين في علم الاتصال، هو أن:

"الاتصال عملية تفاعل بين طرفين إلى أن تصير رسالة معينة (فكرة أو مهارة أو اتجاهاً مثلاً) مشتركة بينهما".[2]

نلاحظ من خلال هذه التعريفات أنّ الاتصال عملية مشاركة فعّالة بين طرفين مشاركين في الاتصال، يتبادلان الأفكار والمهارات والمعلومات بواسطة قنوات اتصال يتفق عليها الطرفان تتلاءم مع طبيعة الرّسالة التي بينهما، فيترتّب على هذا التفاعل الاجتماعيّ بين الطرفين المتصلين خبرة مشتركة حول تلك الرسالة التي يرغبون بنقلها لبعضهم البعض فتكون معانيها مجسدة في أذهانهم، يعبرون عنها بآليات معيّنة معروفة لديهم سواء أكانت ذات طابع لفظيّ أم غير لفظيّ.

و تناول "هانز فيز" الفرق بين اتّصل وتواصل: "اتصل" يعني وصل شيئاً بشيء مولّداً الاحتكاك بين طرفين (to be connected)، بينما يعني "تواصل" العلاقة المتبادلة بين الطرفين (tobe inter connected)، في الاتصال هناك رغبة من أحد الطرفين باتجاه الآخر، وهذا الآخر قد يستجيب ويتفاعل مع تلك الرغبة أو أنّه قد يرفض، وينغلق "فعل اتصالي"، أمّا في التّواصل فإنّ التفاعل أو الرغبة في المشاركة تحدث من كلا الطرفين "عملية اتّصال".[3]

وارتأى الباحث راشد أبو صواوين استخدام مصطلح "التّواصل" لحدوث تفاعل بين الأطراف المتواصلة على أساس تبادل مشترك للأفكار أو الأحاسيس الأمر الذي يترك أثراً على الطرفين، فالتّواصل أظهر لردود الأفعال من الاتصال، لأنّ الاتصال يشير إلى رغبة أحد الطرفين بإقامة علاقة مع الآخر، وأنّ الآخر قد يستجيب أو يرفض هذه الرّغبة، وعليه يكون التّواصل أشمل في معناه من الاتصال.[4]

---

[1] محمد الطنوبي، نظريات الاتصال، ص 13 - 14، 2001.

[2] محمد بهجت كشك، الاتصال ووسائله في الخدمة الاجتماعيّة، ص7.

[3] نضال أبو عياش، الاتصال الإنساني، ص 18.

[4] راشد محمد أبو صواوين، تنمية مهارات التّواصل الشفويّ التحدث والاستماع، ص 29-30.

فالتّواصل غير اللّفظي تواصل فعّال في حال وجود انسجام بين الأطراف المشتركة في نفس النشاط الاجتماعيّ، فالتعبيرات غير اللّفظية أكثر تعبيراً عن المواقف العاطفيّة. "إنّ وظيفة التعبير عن العواطف لها أثرها الغالب أيضاً من خلال اللّمس وكذلك المؤثرات الصوتيّة والبشريّة غير اللغويّة (paralanguage) التي تتضمن التعبيرات غير النطقيّة يأتي بها البشر، فضلاً عن أوجه التغير التي تطرأ على مقام ونبرة الصوت المصاحبين للكلام".[1]

ورغم ذلك لانعدم أثر العاطفة القويّة على انبعاث الكلام، تعبيراً عمّا يجول في داخل الإنسان من مشاعر وأحاسيس مرهفة اتجاه من أحبّهم.

والجانب العاطفيّ ليس وحده الذي يحتاج إلى تعبيرات غير اللّفظية بل هناك وظائف أخرى يمكن أن نعبر عنها بواسطة تعبيرات الوجه والعينين، والإيماءات الصوتيّة خلال التفاعل في مختلف مجالات الحياة .

فهناك أنشطة جماعيّة تعاونيّة غير لفظيّة تكون في أدّق انسجام بين أفراد الجماعة الذين يربطهم نفس النّشاط: يقول م.م. لويس: "إذ يبدو أنّ هناك أشكالا هامّة من السلوك الجماعيّ تؤدي وظائفها بطريقة آلية "غرزيّة" دون رمز من إيماءة أو إشارة أو كلام. ففي الصيد مثلاً: جماعة من الرّجال يتتبعون الأثر معاً، بطريقة تعاونيّة في هدوء و صمت، كما لو كانت إحساسات خفيّة تقودهم".[2]

---

[1] روي. سي. هجمان، م. ن، ص 113- 114.

[2] م. م. لويس، اللغة في المجتمع، ص 129.

الفصل الأول

-المبحث الأول:- صور التّواصل غير اللّفظي الإنساني عند قدماء العرب.
-المبحث الثاني:- صور التّواصل غير اللّفظي عند المحدثين

المبحث الأول:- صور التّواصل غير اللّفظي الإنسانيّ عند قدماء العرب:

وجد الإنسان الأول نفسه منذ نشأته على هذه البسيطة أمام الطبيعة الصامتة يحاكي عناصرها، فالله سبحانه وتعالى هيّأ لها من العلامات ما توحي به من دلالات تخبر الإنسان – رغم صمتها – بما سوف يحيط به من تغيّرات طبيعيّة، فاستطاع التكيّف مع الطبيعة بما هيّأ الخالق له من الحواس محكّماً عقله في استخدامها لاستغلال خيرات الطبيعة، فستر جسمه بأوراق الأشجار حتّى يقيه من شدّة الحرارة المنبعثة من أشعة الشمس. فالشمس أصبحت علامة دالّة على ذلك الدفء الذي أحسّ به الإنسان، وكذلك الأمر عندما يحسّ بالبرودة الناتجة عن تغيّر الطقس وتلبّد السماء بالغيوم في فصل الشتاء، فهو يسارع إلى الاستفادة ممّا يرى فيه حماية لنفسه من برودة الجوّ كحياكة ملابس له من وبر وأصواف الحيوانات، وصنع له كوخاً من أخشاب الأشجار ليستظلّ به من المطر ويحمي نفسه من مختلف المخاطر. إذن أدرك الإنسان أنّ تكون الغيوم في السماء التي يصحبها برودة الجو هي علامة دالة على دخول الشتاء.

إنّ تحدي الإنسان لما يحيط به من أخطار تتعلّق بالظواهر الطبيعيّة، لا يكون بمفرده بل يحتاج إلى تعاون من قبل أفراد جنسه، ولا يأتي هذا التعاون إلا إذا جمعهم إحساس مشترك حول ما يحيط بهم من مخاطر في ذلك المكان الجغرافيّ الذي استقرّوا فيه، وهذا يعني أنّ للمكان تأثيراته التي تنعكس على تصرفاتهم وسلوكياتهم وأسلوب عيشهم، فهذه التأثيرات الجغرافيّة تفرض عليهم نظاماً حياتياً معيناً، يميّزهم عن غيرهم من الشعوب التي تعيش في بقعة جغرافيّة مختلفة في طبيعة مناخها وتضاريسها. فتصبح صفات المكان الجغرافيّ التي اصطبغ بها الأفراد الذين ولدوا فيه بحدّ ذاتها علامات يتميّز بها أفراد ذلك المجتمع عمّن يعيشون في مناطق جغرافية مختلفة في الخصائص المكانيّة. وهذه العلامات تتمثل في طبيعة مأكلهم، وملبسهم ومساكنهم، وبالتالي اختلاف عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعيّة، وكذلك طرق التفاهم فيما بينهم.

أدرك العلاّمة الجاحظ أهمية هذه العلامات في تمييز شعب عن آخر، فهي سمات بيانيّة يستدلّ بها على مظاهر الاختلاف بين الشعوب سواء أكانت لفظيّة وغير لفظيّة، فهو سبق (علم السيمياء) الحديث في الكشف عنها، وإظهار أهميتها للاستدلال بها على مختلف جوانب الحياة التي يتميّز بها شعب عن آخر من نواحٍ عدّة: اقتصاديّة، واجتماعيّة، وثقافيّة، وعلميّة، ولغويّة، وغير ذلك.حيث يعرض في كتابه "رسائل الجاحظ" بعض العلامات التي تتّصف بها أجناس معينة من النّاس، فنراه يتحدّث في رسالة "فخر السودان على البيضان" عن الزّنج واصفاً طبعهم، ومظهرهم الجسميّ، ومواهبهم التي يبدعون فيها، فيقول الجاحظ:

"النّاس يجمعون على أنّه ليس في الأرض أمّة، السخاء فيها أعمّ، وعليها أغلب من الزنج"،[1] "وهي أطبع الخلق على الرّقص الموقّع الموزون، والضّرب بالطبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم".[2]

"وليس في الأرض أحسن حلوقاً منهم. وليس في الأرض لغة أخفّ على اللّسان من لغتهم".[3]

"وليس في الأرض أمّة في شدّة الأبدان وقوّة الأسر أعمّ منهم فيهما، وإنّ الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم".[4]

وتحدّث عن أهل الهند: "فوجدناهم يُقدَّمون في النجوم والحساب، ولهم الخطّ الهنديّ خاصّة، ويقدّمون في الطّب...، و لهم خرط التماثيل ونحت الصّور بالأصباغ تتّخذ في المحاريب. وأشباه ذلك. ولهم الشطرنج، وهي أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة. ولهم السيوف القلعيّة، وهم ألعب النّاس بها وأحذقهم ضرباً بها،...، ولهم ضروب الرّقص والخفّة...، الخ".[5]

فكلّ قوم لهم مهاراتهم وأساليبهم الحياتية، وثقافتهم الخاصة التي تبدو كعلامات معبرة تعرّف بهم وبجنسهم، من دون غيرهم من الأجناس حيث يستطيع الإنسان الغريب تحديد هويتهم وأصلهم بهذه العلامات التي تخصهم.

كما أنّ للعلامات غير لفظيّة التي تبدو في الوجه أهمية كبيرة للمتفرسين فيها قديماً وحديثاً، فهي تخبر عن شخصيّة صاحبها، وقد ترشد إلى ما ينوي عمله أو ما يمكره. فقد أثبت التجارب لقدماء العرب أنّ ما تظهره العيون في مواقف معيّنة كمواقف الغضب والشّرّ، تنبئ عن حدوث أمر ما، ممّا جعل البعض يحمل ما تظهره العيون على محمل الجدّ، فتشهد الأشعار التي خلّفها العرب بذلك، على نحو ما قاله(أبو حيّة) في حمرة عيون النّاس في الحرب، وفي مواقف الغضب :

(الطويل)

غضابٌ يثيرون الذُّحول،[6] عيونهم كجمر الغضى ذكّيتُه فتوقدا[7]

---

(1) الجاحظ، "رسائل الجاحظ"، 1/ 19.
(2) المكان نفسه.
(3) المكان نفسه.
(4) المكان نفسه.
(5) الجاحظ، م.ن، ص 223.
(6) الذحول: جمع ذحل (بالفتح): وهي الثأر.
(7) الجاحظ، الحيوان، 243/4.

فالحمرة التي تظهر في العينين هي علامة على شدّة الغضب كما يتضح من البيت ا، وكان الناصح ينذر من يهمّه أمره، بأخذ ما تظهره العيون بعين الاعتبار. فأبو قرْدُودة حذّر ابن عمار (عمرو بن عمار الطائيّ) من منادمة النعمان، لأنّه كان شديد العربدة وقتّالاً للندماء، فرثاه إثر تعرّضه للقتل من قبل النعمان، حيث كان النعمان أحمر العينين، والجلد والشعر،فقال أبو قرْدُودة :

(البسيط)

إنّي نهيتُ ابنَ عمّارٍ وقلتُ له: لا تأمَنَنْ أحمرَ العينينِ والشّعَرَهْ[1]

قال آخر في أهمية حاسة البصر في نقل الكثير من الدلالات التي تفوق التعبير الكلامي:

(الوافر)

متى تكُ في عدوٍّ أو صديقٍ تُخبِّرْكَ العيونُ عن القلوبِ[2]

وهناك الكثير من المؤلفات حملت اسم الحواس الخمس كمؤلف "سرور النفس بمدارك الحواس الخمس"للإمام أحمد التّيفاشي (580 هـ – 651 هـ)، **هو** ذو طابع موسوعيّ يعالج موضوعات متنوعة بين علميّة وأدبيّة وجغرافية، وفلسفيّة. يقول محمد كشّاش عنه" لم يأت الكتاب على معالجة "الحواس الخمس" كما حملها العنوان، إذ لم تفرد المعالجة للسمع والبصر والطعم...، أبواباً مستقلّة، تدور رحاها حول كلّ حاسة، وكيفية الإدراك بها، وانعكاسها على نفس صاحبها من غبطة،...، فمن الحواس ما تكاد تكون غائبة عن الدّراسة كالطعم والشم مثلاً، والأخرى جاء الحديث عنها عرضاً،...، كالحديث عن النار وأثر المادة المحترقة في بعث الروائح الطيبة أو المتنة. ومثله معالجة الألوان وانعكاسها على النظر".[3] وحظيت الحواس باهتمام الفلاسفة وأهل العلم، والأدب والفقه والفراسة، كونها جوارح لها دور في التأثير على سلوكيات النّاس، وكقرائن حقيقيّة تصاحب الكلام تدلّ على مصداقية المتكلّم أو عدم مصداقيته.

أكّد الإمام فخر الدين الرّازيّ (543 هـ) على أهمية دور حواس الإنسان، فاعتبرها آلة لاكتساب المعارف والعلوم، وفي تحقيق أمور أخرى تتمثل في الأحوال الجسديّة الغريزيّة، وما يخدم اللّذة الحسيّة والتذوقيّة.[4]

وللعلاّمة عبد اللطيف البغداديّ "مقالتان في الحواس"، فأبرز دورها في مقالته الثانية في نواحٍ أخرى غير الأمور الأساسيّة التي يحتاجها الجسم من لمس، وبصر، وشمّ، وتذوق، وسمع.

---

(1) الجاحظ، الحيوان، 4/ 243.

(2) الجاحظ، م. ن.، 1/ 34.

(3) محمد كشاش، اللغة والحواس، ص 76.

(4) محمد العربيّ بوعزيزي، نظرية المعرفة عند الرازي، ص 335.

"ولا ننكر أنّ لنا في الحواس، وسائر الأعضاء أصنافاً من المعونات كما ينوب البصر عن السمع في قراءة المكتوب، واليد عن اللّسان في الكتابة، وأعضاء الوجه واليد والرأس بالإشارة".[1]

كما أنّ سلوك الإنسان يتأثّر بما حوله من انفعالات طبيعيّة يستجيب لها بحسب المواقف التي تعترضه، الأمر الذي يبدو واضحا على مظهر جسمه، فيقول البغداديّ في هذه المسألة:

"ما بال الخائف إذا همّ بالفرار، وترك، وطبعه أخذ ناحية اليسار إلاّ أن يصدفه عن وجهته أمر عارض من خارج أو من داخل؟".[2]

فيكون جوابه على هذه المسألة تفسيراً علميّاً مقنعاً: "لأنّ الخوف ضدّ الغضب والإنسان يتحرك عند الغضب إلى جهة المؤذي طلباً للانتقام، ومبدأ حركة النقلة من جهة اليمين، وإذاً مبدأ حركة الغضبان من جهة اليمين، وأمّا عند الخوف، فإنّه يتحرك عن جهة المؤذي طلب النجاة، فينبغي أن يتجمّع ويميل إلى ضدّ جهة الحركة نحو الغضب، وذلك هو جهة اليسار أيضاً".[3]

وذلك ناتج عن عامل عضويّ وغريزيّ: كون الكبد يقع في الجانب الأيمن فهو أسخن من الجانب الأيسر، وترتفع الحرارة مع الغضب فيكون اتجاهه نحو الجانب الأسخن، أمّا الخوف، فإنهّ يتحرك نحو الجانب الأبرد ناحية الباطن والجانب الأيسر.[4]

واهتمّ قدماء العرب أصحاب المؤلفات الأدبيّة بتخصيص أبواب في مجال الحبّ العاطفيّ وعلاماته، مستشهدين بأشعار العشّاق، كصاحب "زهر الآداب" القيروانيّ، فذكر في باب "كتمان الحبّ"[5] أشعاراً أشار قيها إلى الوضع الذي يبدو عليه جسم العاشق، فذكر لابن المعتزّ:

(الكامل)

لما رأيت الحبّ يفضحني ونمتْ عليّ شواهد الصّب

ألقيتُ غيرك في ظنونهم وسترت وجه الحبّ بالحبّ[6]

وذكر القيرواني أيضاً في باب "العين والقلب" شواهد تظهر أثر الحبّ على المحبّ. قال سهل بن هارون:

(البسيط)

أعان طرفي على قلبي وأعضائي بنظرة وقفتْ جسمي على دائي

---

(1) عبد اللطيف البغدادي، مقالتان في الحواس، ص 95.

(2) عبد اللطيف البغدادي، م. ن، ص 101.

(3) عبد اللطيف البغدادي، م. ن، ص 101 – 102.

(4) عبد اللطيف البغدادي، م.ن، ص 102.

(5) القيرواني ، زهر الآداب وثمرة الألباب، 4/ 1049.

(6) القيرواني، م.ن، 4/ 1049. ووردت في ديوان ابن المعتز على هذا النحو، ص49:

لما رأيت الدمع يفضحني وقضت عليه شواهد الصّب

ألقيتُ غيرك في ظنونهم فسترت وجه الحبّ بالحبّ

وكنــت غِــرّاً بمــا يجنــي علــى بــدني لا علم لي أنّ بعضــي بعــضُ أعــدائي[1]

وقال النِّظام:

(الكامل)

إنّ العيــون علــى القلــوب إذا جَنَــتْ كانــت بَلِيَتهــا علــى الأجســاد[2]

فاهتمّ الجاحظ بدارسة علم العلامات (علم السيمياء) عند الإنسان والحيوان، حيث أظهــرت بعض الدّراسات الحديثة ككتاب علم (السيمياء عند الجاحظ) لحسن محمد الربايعة، بأنّ الجاحظ سبق إلى هذا العلم المحدثين عندما أعتبر أنّ وسائل البيان لا تنحصر فقط في اللّغة الملفوظــة، وبــذلك يكون أقدم من غيره في جعل علم السيمياء أوسع من علم اللغة.

فجعل الجاحظ البيان عن دلالة الأشياء في أكثر من وسيلة، فهو: "اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى،...، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، هو الفهم والإفهــام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع".[3] ويقول فــي موضع آخر:

"لم يرض لهم من البيان بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرِّق، وكثّر ولم يقلِّل، وأظهرَ ولم يُخفِ، وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة،...، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخطّ، والإشارة، والعَقْــد، والخصــلة الخامسة ما أوجد من صحّة الدّلالة، وصدق الشهادة ووضوح البرهــان، فــي الأجــرام الجامــدة والصامتة، والساكنة التي لا تتبيّن، ولا تحسّ، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخل يدخل عليها".[4]

نلاحظ من هذين النصين أنّ الجاحظ عدّد من وسائل البيان ما يمكن نقله عبرها من رسائل تحمل دلالات معينة، أي يستطيع الإنسان التّواصل مع غيره من أبناء جنسه بوسيلة متفاهم عليهــا غير تلك اللغة الملفوظة، وبهذا يقرّ علماؤنا الأقدمون بأنّ المعاني يمكن أن تكتسب عــن طريــق التّواصل غير اللّفظي، كالإشارات والإيماءات الجسميّة التي تنقلها الحــواس، وكمــا أنّ الأشــياء الصّامتة هي في حدّ ذاتها رسائل تعطي من الدلالات ما يمكن أن يؤدي إلى تعدّد في المعاني، إذا ما أراد الإنسان أن يجعل منها أداة طيّعة له، يستغلّها كرموز موحية معبرة.

---

(1) القيرواني، زهر الآداب وثمرة الألباب، 4/ 1019.
(2) المبرد، الكامل، 2/ 164.
(3) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، 76/1.
(4) الجاحظ، الحيوان، 1/ 49.

لقد استطرد الجاحظ الحديث عن أوجه البيان التي يتحقق من خلالها اختلاف المعاني، والقائمة على الفهم والإدراك العقليّ، ومن ثمّ يمكن التعبير عنها للطرف الآخر، فيحدث عنده نفس ذلك الفهم الذي حصل عند مرسلها له. وتتمثل وجوه البيان عند الجاحظ وغيره فيما يلي:

أولاّ: البيئة الصّامتة:

كشفت البيئة لأبنائها من الجنس البشريّ عن ذلك القناع الذي يخفى تحته الكثير من الدّلالات والمعاني، فاستدلّ عليها الإنسان خلال تفاعله مع عناصر البيئة التي استنطقها فأجابته بحرّها وبردها، ونسيمها، وأزهارها، وعواصفها، وهدوئها، فاكتسب منها معنى الدفء، والبرودة، واللطف، والجمال، والغضب. فعبّر الجاحظ بأحسن تعبير عن كيفية حصول البيان عبر هذه الصوامت، فقال:

"وجُعل بيانُ الدّليل الذي لا يستدِلّ، تمكينَه المستدِلّ من نفسه، واقتياده كلّ من فكّر فيه إلى معرفة ما استُخزن من البرهان، وحُشي من الدّلالة، وأُودِع من عجيب الحكمة. فالأجسامُ الخُرسُ الصّامتة، ناطقة من جهة الدّلالة، ومُعربةٌ من جهة صحّة الشهادة، على أنّ الذي فيها من التدبير والحكمة، مخبر لمن استخبره، وناطق لمن استنطقه".[1]

لم يكن الإنسان وحده الذي أدرك أسرار بيئته، واستنطقها، وتواصل معها، بل الحيوانات أيضاً شاركته في التّواصل مع البيئة غريزيّاً بما يتوافق مع ما أخصّها بها الخالق من خصائص تساعدها على التكيف وبالتالي حصول الاستجابة من قبل أفراد جنسها التي تحمل نفس الخصائص. لقد اهتمّ العلّامة الجاحظ بدراسة علم السيمياء عند أكثر من (380) حيواناً، تتمحور حول سيمياء الحواس الخمسة من بصريّة، وسمعيّة، وشميّة، وذوقيّة، ولمسيّة، حيث تتبّع الدكتور حسن الربايعة دراسة سيمياء الحواس عند الحيوان كما جاءت في كتاب (الحيوان) للجاحظ.

فمثلاً دلّ الجاحظ على صدق شمّ الذّئب، وشدّة حسّه واسترواحه بشاهد شعريّ لأبي الرديني العُكْليّ، قائلاً:

(السريع)

يَسسْتخبِرُ الرّيح إذا لم يسْمَعِ بمثل مقراع[2] الصّفا الموقّع*[3]

فالذئب "يميّز بين أكثر من أربعين رائحة في وقت واحد، و يلتقط الرائحة المحمولة على متن الرّيح من مسافة كيلو مترين وأربعمائة متر، معتمداً على الظروف المناخية".[4]

---

(1) الجاحظ، الحيوان، 1/ 34.
(2) مقراع: الفأس التي يكسر بها الرأس. * الموقع: المحدّد.
(3) الجاحظ، الحيوان، 1/ 34. البيان والتبيين، 82/1.
(4) حسن محمد الرباعية، السيمياء عند الجاحظ، ص 59.

وجعل العرب من نعيب الغراب ما يوحي بالغربة والفراق ولم تفت هذه العلامات التي خصت لهذا الطائر الجاحظ بل دونها في كتابه "الحيوان" مستشهداً بما قاله عنترة في الغراب:

(الكامل)

حَــرِقُ الجنــاح[1] كــأنّ لحْيــيْ رأســه جلمــــان[2] بالأخبـــار هـــشٌّ مُولَـــع[3]

فهذه العلامات الناطقة من غير كلام، والمشيرة بصمتها على المعاني، أطلق عليها بلغــاء العرب مصطلح النُّصبْة. جعلها الجاحظ إحدى الأصناف الخمسة الدّالة على المعنى من لفظ وغيــر لفظ: اللفظ، والإشارة والعقد (هو ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له حساب اليــد)[4] والخط، ثمّ النُّصبْة، فلها من الإبانة والإفصاح عن المعاني ما لتلك الأصناف مــن الكشــف عــن المعاني.

لقد أسهب الجاحظ في الحديث عن كلّ صنف من تلك الأصناف، فوضّح مفهوم النُّصبْة: "بأنّها الحال الناطقة بغير اللّفظ، والمشيرة بغير اليد"[5] أي هي البائنة عن نفسها من غير لســان ينطــق بلغــة ملفوظة، ولا يد تشير وتومئ نحو شيء ما عمداً، فيحصل المعنى بواسطة اللّسان، واليد المشــيرة. والنُّصبْة هي الصورة الحقيقيّة لأي شيء ظاهر للعيان، بحيث تلهم المفكّر والممعن فيها جملة مــن الدّلالات الموحية المتأصلة فيها، فهي نابعة من حقيقة وجودها "وذلك ظاهر في خلــق السّــموات والأرض، وفي كلّ صامت وناطق، وجامد وتام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدّلالة التي فــي الموات الجامد، كالدّلالة التي في الحيوان النّاطق. فالصامت ناطق من جهة الدّلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان".[6]

تحدث ابن وهب الكاتب عن وجوه البيان، واعتبرها أربعة أوجه: "فمنه الأشياء بذواتها، وإن لم تَبِن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللّب، ومنه البيان باللســان، ومنــه البيان بالكتاب، وهو الذي يبلغ من بَعُد وغاب".[7]

والنُّصبْة التي ذكرها الجاحظ نجدها عند ابن وهب الكاتب في الوجه الأول (بيان الأشــياء بذواتها) في باب "البيان بالاعتبار"[8]، وما يتولّد عنها من تفكّر واعتبار وجعله فــي بــاب "البيــان بالاعتقاد".[9]

---

(1) حرق الجناح: الأسود.
(2) جلمان: طرفا المقص
(3) الجاحظ، البيان والتبيين، 82/1. شرح ديوان عنترة بن شداد، شرح و تعليق عباس إبراهيم، ص 76.
(4) ينظر: حاشية المؤلف صالح خليل أبو صالح "نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر"، ص 134.
(5) الجاحظ، البيان و التبيين.، 81/1.
(6) المكان نفسه .
(7) ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق جفني محمد شرف، ص 56.
(8) ابن وهب الكاتب، م. ن، ص65- 85.
(9) ابن وهب الكاتب، م. ن، ص 86-91.

إنّ الأشياء الماديّة الصامتة – في نظر ابن وهب – معبرة عن نفسها بصورتها التي جبلت عليها فهو يتفق مع اللغويين والبلاغيين فيما نراه في الطبيعة من جبال وسهول وأنهار وأشجار، وغيرها من عناصر الطبيعة، توحي بدلالات كثيرة، فلذلك قال بعضهم: "قل للأرض من شقّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك فإن أجابتك حواراً، وإلا أجابتك اعتباراً، فهي وإن كانت صامتة في أنفسها، فهي ناطقة بظواهر أحوالها".[1]

وكانت الآثار التي يخلّفها الإنسان العربيّ وراءه في العصر الجاهلي مبعث تذكيره بماضيه، الأمر الذي دفعه إلى استنطاقها والتّحاور معها، حيث كان من عادة الشعراء القدماء استنطاق ما لا ينطق، ومثال ذلك:

(الكامل)

يا ربْع بشرةَ بالجناب تكلّم وأبِنْ لنا خبراً ولا تستعجم
ما لي رأيتك بعد أهلك موحشاً خلِقاً كحوض الباقر المتهدّم[2]

فاستنطاق الشاعر مالا ينطق بلسان هو دليل على ما ذهب إليه (ابن وهب) بأنّ الأشياء الجامدة تفصح عن ذواتها بظاهر أحوالها وذلك "لمن اعتبرهما وطلب البيان منها".[3]

وإذا أعمل الإنسان تفكيره فيها، فإنّه يستطيع توليد وإضافة دلالات أخرى تزيد عن تلك التي اكتسبها من الأشياء الجامدة البائنة عن ذواتها، يقول (ابن وهب): "فإذا حصل البيان للمتفكر صار عالماً بمعاني الأشياء، وكان ما يعتقد من ذلك بياناً ثانياً، وخصّ باسم الاعتقاد".[4]

وكذلك نبّه ابن قتيبه في كتاب "العلم والبيان" إلى وجود وسائل غير لفظيّة مشيراً إليها بعنوان "الاستدلال بالعين والإشارة والنُّصْبَة"[5]، فلم يستطرد في الحديث عنها، بل اكتفى بذكر بعض الأمثلة على نحو ما ذكره للحارثي:

(الكامل)

أتيناه زُوّاراً فأمجدنا قِرى من البَثِّ والدّاءِ الدَّخيل المُخامرِ
وأوسعنا علماً بَرَدِّ جوابنا فأعجبْ به من ناطق لم يُحاوِرِ[6]

---

(1) ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 56. الجاحظ، الحيوان، 1/ 35. الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 81. ينسب هذا القول للرقاشي: ينظر، حاشية ابن قتيبة الدينوري، "عيون الأخبار"، مج 1، 2/ 197.

(2) البيتان للحارث بن خالد المخزومي. ينظر حاشية ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق، جفني محمد شرف، ص 57.

(3) ابن وهب الكاتب، م.ن، ص58.

(4) المكان نفسه.

(5) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، مج1، 196/2 – 198.

(6) ابن قتيبة الدينوري، م.ن، مج1، 197/2.

فكان جسد هذا الميّت المسجّى أمام ناظري الحارثيّ بحدّ ذاته علامة لها دلالتها المفصحة عن أمور جعلت الحارثي يبحث عنها في هذا الميت، متذكراً سجاياه التي عرفها فيه قبل موته.

اعتبر الجاحظ الأجسام الساكنة مخبرة عن نفسها لمن اعتبر بها، فيمثل على ذلك بقول خطيب من الخطباء، حين قام على سرير الاسكندر وهو ميت: "الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس".[1]

فعرْض الجاحظ لهذا الشاهد يدلّ على قوّة إدراكه و فهمه لمفهوم "النُّصْبَة" ولدورها الفعال في إنتاج المعاني من هيئتها التي هي عليها، وإن كانت لا تبن بلسان مبين، فهي علامات غير ناطقة تثير معاني في نفس طالبها ومتأمّلها إذا ما أراد منها الاعتبار والحصول على المزيد من الإيحاءات. فرؤية الخطيب لجسد الإسكندر، وهو ميّت أي جامد من غير حراك أثار في نفسه تلك العظمة التي رآها في الإسكندر وهو حيّ.

وأدرك كذلك عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني أهمية هذه الأشياء الصامتة، فهي علامات مخبرة عن حصول شيء ما بما يتلاءم مع طبيعة وجودها في هذه الحياة، فمثلاً: "يقال هذه علامات النّصر وإماراته، وتباشيره ومخايله وأشراطه وأعلامه وشواهده وشواكله. ويقال: شمت مخايل الشيء إذا تطلعت نحوه ببصرك منتظراً له، وشمت البرق أشيمه إذا تراقبت مطره، وهذه أمارات بيّنة وأعلام لامعة، ودلايل ناطقة، وشواهد صادقة ومخايل نيرة ومعالم ناصعة،...، سأل رجل النّظام: ما الأمور الصّامتة الناطقة؟ فقال الدلايل المخبرة، والعبر الواعظة".[2]

ثانياً: الإشارات والحركات

نالت لغة الإشارات والحركات نصيباً وافراً من الاهتمام قديماً بوصفها وسائل اتصال وتواصل غير لغويّة يمكن من خلالها الكشف والبيان عن المعاني، إذ ما اعتمدت كوسيلة تفاهم من قبل المرسلين والمستقبلين، وبهذا يمكن اعتبارها أحد أشكال البيان التي تحدث عنها الجاحظ وغيره من علمائنا العرب.

اختلفت دلالات الإيماءات والحركات تبعاً لاختلاف صورها وأشكالها والمقام الذي ترد فيه، وهذا ما بيّنه العلّامة الجاحظ حيث إنّه كان أسبق من العلم الحديث "علم الكينات"[3] (علم الحركة الجسميّة kinesics)، في إظهار أهميتها البيانيّة في حصول المعنى ونقله للآخرين.

---

(1) الجاحظ ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، 81/1.
(2) الهمذاني، ألفاظ الأشباه والنظائر، تحقيق وضبط الدكتور البدراوي زهران، ص 83 – 84.
(3) ينظر: فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة، ص 187

"فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة على اختلاف في طبقاتها ودلالتها؟".[1]

والإشارة عند الجاحظ وغيره قد تكون جسميّة أي صادرة عن أحد أعضاء الجسم على نحو "رفع الحواجب، ولي الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه".[2] وغير جسميّة عن طريق الاستعانة بالمتممات المساندة لأعضاء الجسد كالتأشير بالعصا.

1- الإشاراة الجسميّة:

حظيت الإشارة الجسميّة باهتمام كبير من قبل الجاحظ. فجاءت لغة الإشارة في المرتبة الثانية من وسائل البيان بعد اللفظ لقدرتها الكبيرة قي الاستدلال على المعاني "وجميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها: اللفظ، ثمّ الإشارة،...،"[3] فالمرتبة التي تحتلها الإشارة تكمن في كونها:

- **مساندة الكلام:** فالإشارة المصاحبة للفظ دليل على صحته، ودليل واضح عليه، ومشاركة له في تأكيد المعنى المراد من اللفظ. "والإشارة واللّفظ شريكان، ونعم العون هي له".[4]
- **أبلغ تعبيراً من اللّفظ:** وقد تأتي الإشارة – في كثير من الأحيان- أبلغ من اللّسان، أي بإمكانها أن تؤثّر في سلوك المستقبلين، فتعلق بأذهانهم الأمر الذي يصعب معه نسيانها، أكثر من كلمة منطوقة، قد لا تصغي إليها آذانهم. وهذا ما لمّح إليه الجاحظ: "ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت،...، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدّلّ والشكلّ والتفتّل والتثني واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور".[5]
- **إنابتها عن اللفظ:** تقوم الإشارات بالإنابة عن اللفظ في نقل كثير من المعاني في مواقف تتطلب الاستعانة بالإشارات الجسميّة بدلاً من اللفظ، فهي "نعم الترجمان عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ".[6]

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1/ 78.
(2) الجاحظ، الحيوان، 1/ 48.
(3) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1/ 78.
(4) المكان نفسه.
(5) الجاحظ، م. ن، 1/ 79.
(6) الجاحظ، م.ن، 1/ 78.

ولقد أشار القدماء إلى بعض تلك المواقف التي تتطلب استخدام الإشارة الجسميّة، والتالي تفاضلها على اللفظ لدى الكثيرين:

أ- التغلب على بعد المسافات:

يُفضّل استخدام الإشارات الجسميّة إذا كان المُرسِل والمُستَقْبِلْ مبتعدين لمسافة معينة تسمح بأن يرى أحدهم الآخر، فيضطر إلى الاستعانة بالحركات الجسميّة لإيصال رسالة معينة، فتكون "الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان".[1] أفضل من استخدام اللفظ إذ ما كان المكان الذي يجمعهما مزدحماً بالناس مشوشاً فلا يستطيعان نقل الرسالة عبر اللسان، أو إذا كان مجلس علم لا يريدان التسبّب بالإزعاج، والتشويش على المستمعين.

ب- المحافظة على الخصوصيّات الشخصية وحفظ الأسرار:

كان يحرص العشّاق في المواقف العاطفية على كتمان أحاديث الهوى وإخفائها عن أعين النّاس حتّى لا تشيع فيفتضح أمرهم، ويسير على كلّ لسان، لهذا وجدوا في الإيماءات الجسميّة بديلاً عن اللّسان في تبادل مشاعر الحبّ والعواطف.

ففي "الإشارة بالطَّرْفِ والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمور يسرّها النّاس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم النّاس معنى خاص الخاص".[2]

فاحتلّت العين في الموروث الشعريّ مكانة كبيرة لدورها الفعال في نقل الرسائل العاطفيّة التي كانت تدور بين المحبين في مواقف العشق، حتّى أنّها قامت عندهم مقام الفم في التعبير عمّا يجول في القلب من مشاعر المحبين الصادقة اتجاه بعضهم البعض، فالعين أرقّ أعضاء الجسد التي يسهل قراءة ما تبديه من مشاعر مختلفة يصعب إخفاؤها عن المتأملين فيها، فقيل:

(البسيط)

العين تُبْدي الذي في نفس صاحبها ... من المَحَبّة أو بُغْضٍ إذا كانا
والعينُ تَنطق والأفواهُ صامتةٌ ... حتّى تَرى مِنْ ضميرِ القلبِ تِبيانا[3]

ويقول آخر:

(الطويل)

ترى عينها عيني فتعرف وحيها ... وتعرف عيني ما به الوحي يرجع[4]

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 77/1.
[2] الجاحظ، م.ن، 78/1.
[3] الجاحظ، م.ن، 79/1. بحثت ولم أعثر على قائله.
[4] الجاحظ، م.ن، 78/1. بحثت ولم أعثر على قائله.

والعين تفعل أكثر من مجرّد نقل المعنى إلى الطرف الآخر، بل قد تقتل لشدّة فعلها في نفس الناظر فيها، إذا ما استجاب لهواها الذي يظهر فيها، فتسيطر عليه رغائبها، فيصبح كالعبد لها، فأدرك الشاعر (جرير) عمق أثرها في النّفوس، فنظرة من المحبوبة ترمي بها إلى الطرف الآخر تجعله في عداد القتلى، فيتعلّق بها ولا يستطيع التحصن عن النظر إليها، فتبدي عيناه لها مكان ذلك الغرام الذي ابتلي به، فقال:

(البسيط)

إنّ العيون التي في طرفها حور قَتَلْنَنا ثُمّ لَمْ يُحْيينَ قَتْلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِ حتّى لا حَراكَ بهِ وَهُنّ أَضْعَفُ خَلْق اللهِ أركانا[1]

فحاسة العين حظيت بأهمية كبيرة من قبل الباحثين القدماء في لغة الإشارات الجسديّة، فأفردوا لها باباً باعتبارها من أهم أشكال البيان الجسميّة التي تخبر عن دلالات مختلفة، يمكن فهمها من أول نظرة، ويذكر ابن قتيبة في (باب النّظر) بيتين من الشعر يظهران ما دار بين عاشقين حاولا كتمان حبهما عن عيون الناس، فتراسلا حديث الهوى عبر عيونهما:

(الكامل)

ومُراقَبينِ يُكَتِّمان هواهما جعلا الصدور لما تُجِنُّ قبورا
يتلاحظان تلاحظاً فكأنّما يتناسخان من الجفون سطورا[2]

ج -زيادة في إقامة الحجّة، وإضافة لمسه جماليّة على اللّفظ المنطوق:

كان البعض يقلّل من دَوْرِ الإشارات في نقل الدّلالات، أو التأثير في الآخرين، لهذا لم يستند عليها أثناء كلامه من منطلق أنّ المتحدث البليغ من غير أن يستعين بالإشارات الجسميّة يكون أكثر هيبة، وأنّ الاستناد عليها يدّل على افتقار المستعين بها للبلاغة والبيان اللّسانيّ، وهذا الرأي لم يرق للذين رؤوا في الإيماءات الجسميّة معونة للكلام، وحجّة على صحة اللّسان، فهم أشبه بالآلة التي تصدر صوتاً بلا حراك فلا يثيرك فيها شيئاً. فهذا الجاحظ ينتقد (أبا شَمِرٍ)[3] لتركه التمثيل بالإيماءات الجسديّة، لكنّه أمام منازلة إبراهيم بن سيّار النّظّام له في إحدى المسائل، "اضطرّه بالحجّة وبالزيادة في المسألة حتّى حرك يديه، وحلّ حبوته وحبا إليه حتّى أخذ بيديه"[4]، فأجبر أبو شمر على استخدام التمثيل بالإشارات الجسميّة لإقناع خصمه.

---

(1) ديوان جرير، ص 492.
(2) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، مج 2، 4/ 85.
(3) أبو شَمِر: هو أحد أئمة القدرية المرجئة. ينظر: حاشية البيان والتبيين، 91/1.
(4) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1/ 91.

ويجد الجاحظ في الاستعانة بالحركات الجسميّة مساندة للكلام في تكملة الصورة الدلاليّة ممّا تضفي نوعاً من الجمال والحسّ الوجدانيّ على بعض المقامات، فيكتمل المعنى بمشاركة هذه الإيماءات الجسميّة للّسان، فمثلاً "المغني قد يوقع بالقضيب على أوزان الأغانيّ، والمتكلّم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، فَفَوَّقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ، وضروب المعاني، ولو قبضت يده ومنع حركة رأسه لذهب ثلثا كلامه".[1]

لا تقتصر استعمال الإشارات والحركات الجسميّة على ما أشارات إليه النصوص السابقة بل تخدم الإنسان في جوانب أخرى:

- **الاستدلال بالخصائص والحركات الجسميّة على صفات الإنسان**، إذ يمكن أن يتميّز إنسان عن آخر بما يحمله من هيئة خلقيّة وبما يصدر عنه من حركات عفويّة، فتصبح سمة ملازمة له، دالة على شخصيته وطبعه. فهذا ابن الجوزي في كتابه "الأذكياء" يستدلّ على عقل العاقل وذكائه وأفعاله ببعض العلامات الجسميّة كما جاء على ألسنة الحكماء في الصفات والملامح الجمسية التي جبل عليها الإنسان، "الخلق المعتدل والبنية المتناسبة دليل قوة العقل وجودة الفطنة، وإذا غلظت الرقبة دلّت على قوة الدّماغ ووفوره، ومن كانت عينه تتحرك بسرعة وحدة، فهو مكّار محتال لصّ، وأحمد العيون الشهل وإذا لم تكن الشهلاء شديدة البريق ولا يظهر عليها صفرة ولا حمرة دلّت على طبع جيد، وإذا كانت العين صغيرة غائرة فصاحبها مكار حسود، ومن كان نحيف الوجه فهو فهم مهتم بالأمور".[2]

وتتجسّد في سلوك الإنسان الخُلقيّ وما ينعكس عنه من حسن تعامل ومعاش، وجمال مظهر، يقول ابن الجوزيّ: "يستدلّ على عقل العاقل بسكوته وسكونه، وخفض بصره وحركاته في أماكنها اللائقة بها، ومراقبته للعواقب فلا تستفزّه شهوة عاجلة عقباها ضرر، وتراه ينظر في الفضاء فيتخيّر الأعلى والأحمد عاقبه من مطعم ومشرب وملبس وقول ويترك ما يخاف ضرره ويستعدّ لما يجوز وقوعه".[3]

- **عجز الإنسان عن الإبانة**، فعدم القدرة على الإفصاح باللسان يدفعه هذا إلى استخدام الإشارة والتمثيل بالحركات الجسديّة، يدرك السيوطي أهمية لغة الجسد في هذا الموقف الذي يضطرّ فيه الإنسان إلى الاستعانة بجسده، فيقول:

"من عجز لسانه عن الإنابة عن تفسير اللّفظ، فعدل إلى الإشارة والتمثيل".[4]

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 3/ 119.
[2] ابن الجوزي، الأذكياء، ص13.
[3] ابن الجوزي، م. ن، ص 14.
[4] السيوطيّ، المزهر، مج 2، ص 329.

وبهذا النصوص التراثيّة التي استعنا بها في هذا البحث، يكون علماؤنا المسلمون الأوائل وعوا وجود لغة أخرى غير لغة اللّسان، و هي استخدام لغة الإشارات الجسديّة يستعان بها فيما تمّ ذكره.

2- الإشارة بالمتمماّت المساندة:

إنّ لغة الإشارة لا تتمثل فقط بأعضاء الجسم، بل يمكن الاستعانة بوسائل ماديّة أخرى للإشارة، تقوم مقام الأعضاء الجسميّة في تأدية إشارة معينة تفيد دلالة ما يفهمها الطرفان المتواصلان بها كالإشارة بالعصا بدلا من اليد، أو التلويح بالثوب إذا تباعد الطرفان[1]، أو حمل السيف، وهزّ السوط. ونجد أنّ الجاحظ نوّه إلى مثل هذه الوسائل البيانيّة.

قد يستعين الإنسان بالعصا على قضاء بعض من حوائجه، فيستخدمها بدلاً من يده للتأشير، "ومن شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم، فإذا أشاروا بالعصا، فكأنّهم قد وصلوا بأيديهم أيدي أخر".[2] وقد تحمل العصا في يد صاحبها دلالات أخرى غير التأشير، وهذا يتوقف على غاية حاملها التي دفعته إلى استخدامها، فمثلاً كان خطباء العرب يتأهبون للخطبة الطويلة بحملهم واتكائهم على العصا.

"إنّ حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة، والتهيؤ للإطناب، والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم، حتّى إنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر في أيديهم اتقاء وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها".[3]

والمِخْصرة: ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه من عصا أو مقرعة أو عَنَزة أو عُكّازة أو قضيب وما أشبهها، و قد يتكأ عليه. والعنَزَة شبه العكّازة. والمِخصرة: كانت من شعار الملوك.

واعتبر الجاحظ التلويح بالثوب والتهديد بحمل السيف وهزّ السوط إشارة تؤدي رسالة ذات مغزى. "فأمّا الإشارة،...، إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدّد رافع السوط، والسيف، فيكون زاجراً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً".[4]

وأهل الحروب اتخذوا الرايات والأعلام بألوان مختلفة كعلامات لها دلالات معينة واعتبرها الجاحظ من العلامات الدّالة على الهيبة في مثل هذه المواقف، "و قد علموا أنّها وإن كانت خرقاً على عصيّ أنّ ذلك أهيب في القلوب".[5]

---

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، 1/ 48.
(2) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 3/ 116.
(3) الجاحظ، م.ن، 117/1.
(4) الجاحظ، م.ن، 1/ 77.
(5) الجاحظ، م.ن، 3/ 119.

ثالثاً: مظهر الجسم وهيئته

اهتمت الدّراسات منذ القدم بالشكل الخارجيّ للجسم، لأنّ هيئة الجسم ومظهره من طول وقصر، وجمال، وحسن ملبس، وبشاعة وقبح، وغير ذلك كلّها أدلة ماديّة تساعد في تحديد هوية الإنسان الشخصيّة، وتعطي انطباعاً وتصوّراً ما عن الشخص. كما أنّ للشعور الدّاخلي أثراً في إحداث استجابات مختلفة بين الناس من نفور وتجاذب وحبّ وكره، لأنّه ينعكس على ملامح الإنسان الخارجيّة، فتكون دليلاً على تلك الانفعالات الدّاخليّة، فالإنسان الذي يشعر بالسعادة والرّاحة والطمأنينة الدّاخليّة، لا شكّ أنّ هيئته الخارجيّة تختلف عن هيئة الإنسان الذي يشعر بالحزن والتعاسة، وثقل الهموم.

نجد – في أكثر الأحيان – أنّ الناس تطلق أحكامها على الآخرين من خلال مظهرهم وسلوكهم الخارجيّ، فهو يعطي انطباعاً أبلغ من الوصف باللّسان في حال تغيّب صورته عن الأنظار، فهو تماماً كالنُّصْبَة المشيرة من غير يد ولا لفظ، التي اعتبرها القدماء من وجوه البيان. فهو ينقل رسائل تكشف عن دلالات مختلفة كالكشف عن طبقاتهم ومراتبهم الاجتماعيّة، ويمكن تحديد السلك الوظيفي بناء على المظهر الخارجيّ للشخص. فالرجل السياسيّ يختلف في مظهره الوظيفيّ عن الطبيب، والفلاّح يختلف عن الصانع،... الخ.

والمظهر الخارجيّ أحدث نوعاً من التّواصل المشترك حول دلالات خاصة يمكن أن يتميز بها فرد أو أفراد عن غيرهم قد تجمعهم خصائص مشتركة في مجال معيّن أو رتب اجتماعيّة ووظيفيّة. فالجاحظ أولى أهمية بهذا الجانب، فقال: "و لكلّ قوم زيّ، فللقضاة زيّ، ولأصحاب القُضاة زيّ، وللشُّرط زيٌّ، وللكُتّاب زيٌّ، ولكُتّاب الجُند زيّ، ومن زيِّهم أنْ يركبوا الحمير".[1]

وكان للجمال الخارجي وزنه عند قدماء العرب، بل جعلوا للجمال علامات ماديّة يلمسها الإنسان في غيره، فتثير فيه حاسة الانجذاب إلى من يمتلك محاسن خلقيّة. قيل لأعرابيّ: "ما الجمال؟ قال: القامة، وضخم الهامة، ورحب الشدق، وبعد الصوت".[2]

كما إنّ هيئة الجسم تعبّر عن الوضعيّة والحالة التي يكون عليها الجسم من اندهاش واستغراب وغير ذلك من الانفعالات التي تبدو على الجسم ناتجة عن المواقف التي يتعرّض لها الإنسان، فهي عارضة غير ملازمة للإنسان بشكل دائم كملازمة الصفات الثابتة من لون وشكل: "والحال قد تكون لازمة، فتسمّى هيئة كبياض القطن وسواد الفحم، وتكون غير لازمة، فتختص باسم

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 3/ 114.
[2] الجاحظ، م. ن، 1/ 121.

العرض كصفرة الوجل، وحمرة الخجل".[1] فعلى سبيل المثال الحُمْرَة التي تبدو على الوجه نتيجة الخجل أو موقف محرج تعرّض له الإنسان هي بمثابة علامة تدلّ على الحالة التي آل إليها الإنسان التي سببها إليه موقف معيّن تفاجئ به. فهذا الانفعال الطبيعيّ هو بحدّ ذاته تواصل غير لفظيّ يؤدي معنى معيّن للمتبصر في الوجوه.

وكما اعتبر ابن وهب ما ينتج عن الجسم من انفعالات طبيعيّة تعتمد على ما يتعرّض له النّاس من مؤثرات خارجيّة عامّة يشترك فيها الجميع، فيكون لها تأثير كبير على تصرفاتهم، وسلوكهم الخارجيّ، والوجه الذي تؤول إليه حركة أجسامهم، الأمر الذي يثير انتباه الآخرين، ويحملهم على تأويله وفق الاتّجاه المكانيّ الذي أُجبِر عليه الجسم، فتكون هذه السلوكيات آنيّة. فهيئة الجسم مشاركة للنصبة الصامتة، الناطقة من حيث الدّلالة، فقال:

"والنُّصْبَة: تشارك الحال، وهي انتصاب الجسم، وما يشاهد عليه من قيام أو قعود وانحراف إلى بعض الجهات المحيطة به، وهي ستّ جهات، وهي: فوق، وتحت، وأمام، وخلف، ويمين، وشمال".[2]

وكذلك أدرك الشاعر يدرك كلّ الإدراك أهمية الحواس، فأضفى عليها من أحاسيسه الشاعريّة والوجدانيّة ما جعل الحواس الخمسة مشاعر تحسّ مع الشاعر، فكان لها دور فعّال في نقل ما يجول في كيانه من صدق المشاعر للطرف المعني بذلك. فاهتمّ بعض الدّارسين للشعر العربيّ برصد الحواس الخمسة التي كان لها نصيب وافر في الشعر العربيّ، أمثال، الدكتور عليّ شلق، حيث أصدر كتباً تحمل عنوان كلّ حاسّة من الحواس الخمسة التي تردّدت في الأشعار القديمة والحديثة، على نحو:

كتاب "العين في الشعر العربيّ" و"السّماع في الشعر العربيّ" و"الشمّ في الشعر العربيّ" و"اللّمس في الشعر العربي".

فإن الشّاعر الذي فقد نعمة البصر وجدها في حواسه الأخرى، حيث يتركّز مجهوده الحسيّ عليها للتواصل من خلالها مع الآخرين، متنبه لكل ما يدور من حوله، ومن ثمّ يقوم بنقل أحاسيسه بصورة أدق ممّن هم يتنعمون بحاسة البصر، وأمثال ذلك كثر: فالشاعر بشار بن برد نجده يبدع في التعبير عن دور حواسه التي استعان بها أثناء تواصله مع غيره من المبصرين، فكانت لديه تقوم مقام حاسة البصر في تحديد هوية الأشخاص، وكما أنّه لم يلغ الجانب العاطفيّ لديه، بل كان أشدّ غريزة وجدانيّة اتجاه الجنس الآخر، فأخذ يؤكّد ذلك لمن يشكك في قدرة الضّرير على العشق.

---

[1] ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 73.
[2] ابن وهب الكاتب، م. ن، ص 74.

فقال:

(البسيط)

يـــا قـــوم أُذنـــي لـــبعض الحـــيّ عاشـــقةٌ والأُذُنُ تَعشَـــقُ قَبـــل العَـــين أحيانـــا

قالوا بِمَـــنْ لا تـــرى تَهْـــذي؟ فَقُلْـــتُ لَهُـــم الأُذُنُ كـــالعَينِ تُـــوفي القَلـــبَ مـــا كانـــا[1]

وقال بشار:

(المنسرح)

أَنِّـــى؟ ولَـــم تَرهـــا تَهـــذي فَقُلْـــتُ لَهُـــم إنَّ الفـــؤاد يَـــرى مـــا لا يَـــرى البَصَـــرُ[2]

وقال بشار أيضاً:

(الطويل)

فَقُلْتُ دَعوا قَلْبـــي ومـــا اختـــارَ وارتضـــى فبالقلـــبِ لا بـــالعَينِ يُبْصِـــرُ ذو اللّـــبِّ

وما تُبْصِرُ العَينـــان فـــي موضـــعِ الهـــوى ولا تَسْـــمَعُ الأُذُنـــان إلا مِـــنْ القلـــبِ[3]

استشعر بشار أهمية حاسة البصر – رغم فقده له – فجعل من هذه الحاسة التي حُرِمَ منها وسـيلة تواصل مع التي يعشقها قلبه، فتقمّص شخصية الشاعر المبصر. فقال:

(الطويل)

يكلّمهـــا طرفـــي فتُـــومي بِطَرْفِهـــا فَيُخْبِرُ عمّا في الضَّـــميرِ مِـــنْ الوَجْـــدِ[4]

وجد بشار في حاسة السمع وسيلة تنقل له كلّ ما لا يستطيع أن يراه، فاعتبرها بصره الذي يرى كلّ شيء من خلالها، فقال:

(الطويل)

وإنّـــي امـــرؤٌ أحَبْبـــتُكم لمكـــارمٍ ســـمعتُ بهـــا والأُذُنُ كـــالعين تعشـــقُ[5]

---

[1] ديوان شعر بشار بن برد، ص 226.
[2] م. ن.، ص 101.
[3] م. ن.، ص 34.
[4] م. ن.، ص 89.
[5] م. ن.، ص 163.

كما أنّه وجد في حاسة اللّمس وسيلة للتعرّف على الأشياء حسنها وقبيحها، وبالتالي إصدار حكمه عليها، حيث استطاع تكوين معانيه اتجاه الأشياء والأشخاص بملامسته لهم، حتّى أنّه جعل اللمس في المرتبة الأولى في اكتساب المعرفة والتمييز بين الأشياء. فيقول بشار:

(الوافر)

أُمامةُ قد وُصِفتِ لنا بحسن وإنّا لا نراك فألمسينا[1]

فنرى أنّ دور الحواس في عملية التّواصل تظهر في شعر بشار بن برد جليّة، فهو أدرك أهميتها الكبرى في نقل رسائل مختلفة أكثر ممّن يتمتع بكلّ حواسه دون أن يقدّر دورها في الحياة إلا حين يفقدها، فيقال: الصّحة تاج على رأس الأصحاء لا يعرفها إلا من فقدها.

(1) ديوان شعر بشار بن برد، ص 227.

المبحث الثاني:- صور التّواصل غير اللّفظي عند المحدثين:

لا نتخيّل أحداً من الكائن البشريّ يعيش في عصرنا الحديث المتطوّر في مختلف مجالات الحياة حيث التقنيّة، وتكنولوجيا المعلومات التي أصبحت حلبة صراع بين الشعوب والدّول باختلاف أجناسها وصولاً إلى المعلومات بسرعة كبيرة عبر طرق ووسائل لفظيّة وغير اللّفظية متعدّدة، خدمة لأهداف متباينة: سياسيّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة، وعسكريّة، فلا يستهان بالوسائل غير اللّفظية، وربما كان للتواصل غير اللّفظي محكّاً أوسع في هذه المجالات التي يتنافس فيها العالم حفاظاً على السريّة في نقل المعلومات من خلال الشفرات والرّموز الإشاريّة وغيرها من الوسائل غير اللّفظية.

فلغة الجسد لغة عالميّة تعكس ثقافات الشعوب البدائيّة والمتقدّمة على حدّ سواء، فترانا في كثير من الأحيان نستدلّ على هوية شخص أجنبي إذا ما قدم زائراً إلى بلادنا وذلك من خلال ملامح وجهه، وإيماءاته الجسميّة، فإننا نحدّد جنسيته، ولغته، تماماً كما يحصل في الألعاب الأولمبيّة التي تحضرها مختلف الشعوب من كلّ حدب وصوب، فيجمعهم مكان واحد مصطحبين معهم شعاراتهم من ملابس وأعلام، وحركات راقصة. فحضورك لمثل هذا المؤتمر العالميّ بهيئتك وملامحك الشرقيّة قد يكون كافياً لتحديد جنسيتك العربيّة، وكذلك الأمر للفرنسيّ والألمانيّ والايطالي، والأمريكيّ،... الخ.

فاهتمت الشركات العالميّة التي تقيم علاقات خارجيّة مع مختلف دول العالم بلغة الجسد، حرصت على تعريف موظفيها بالإيماءات والحركات الجسميّة الصادرة عن الأفراد والجماعات التي تنتمي لشعوب ودول حيث تتعامل معها هذه الشركات، وذلك خشية الوقوع في مغبة الإحراج إذا ما سيء فهممها، فكلّ مجتمع له ثقافته تجاه لغة الجسد، قد تستخدم نفس الإشارة في بلدين مختلفين، ولكن اختلف فهم أفراد كلا البلدين للمراد منها بسبب اختلاف الدلالة المتعارف عليها بين أفراد هذا البلد دون الآخر.

لهذا اهتمّ علماء اللغة المحدثون بوضع علم له أصوله ومبادئه يتعلّق بلغة الجسد، بحكم الضرورة إليه، لكي يسهل التّواصل مع الأفراد و الجماعات التي تنتمي لشعوب مختلفة ولا يكون ذلك إلا من خلال فهم الدّلالات التي توحي بها الإيماءات والحركات الجسديّة المستخدمة لدى أبناء مجتمع معيّن. فكثيراً من الأحيان يتم التعرّف على هوية الأشخاص الشخصيّة وحتى جنسيتهم التي ينتمون إليها بفضل لغة الحركات الجسديّة التي هي جزء من ثقافتهم وعاداتهم فلا يمكن أن نتجاهلها أو نهزأ منها.

قام (آلن بيز) المدير الإداريّ لشركة استشاريّة في الشؤون الإداريّة في سدنيّ باستراليا، بوضع كتاب بعنوان "لغة الجسد" من أجل أن يكون قارئه على وعي تامّ بأهمية الحركات الجسديّة وضرورتها كلغة غير لفظيّة، مهمة في عملية الاتصال والتّواصل في مختلف مجالات الحياة، والعلاقات الإنسانيّة والاجتماعية والعمليّة.

ولنفس هذه الغاية أصدرت المؤلفة (ناتالي باكو) كتاباً بعنوان "لغة الحركات"، حيث أشارت في مقدّمته إلى فوائد معرفة المرء بلغة الجسد. كمعرفة المرء نفسه بصورة أفضل، الأمر الذي يجعله مفهوماً بصورة أوضح، وفهم الآخرين فهماً أفضل في مختلف الظروف سواء أكانت حميمة، أو وديّة أو مهنيّة.

وأكدت المؤلفة (سوزان كيليام) في كتابها (لغة الجسد) على أهمية الحركات الجسميّة في تقيم الأشخاص وقراءة أفكارهم، فتقول: "فإنّ لغة الجسد لا تعطيك معلومات إضافيّة عن الآخرين، وعن نفسك فحسب، لكنّها تعطيك معلومات مختلفة، فكلمات النّاس لا تخبرك عن وعي إلّا ما يريدونك أن تعرف. في حين أنّ لغة الجسد تعطيك سلسلة كاملة من الأمور الأخرى، والتي يكشفون عن معظمها دون علمهم، وحتى دون أن يعوا ذلك".[1]

فإنّ إعمال بعض الحواس في قراءة ما يدور في خلد المرء من خلال ما تظهره حركاته الجسديّة في مواقف مختلفة تعرّض لها، تجيب عن كثير من الأسئلة التي يريد أن يعرفها عنه الطرف الآخر من غير أن يوجه أسئلة لفظيّة له. تستطيع حاسة البصر بالمشاهدة المباشرة نقل رسائل غير لفظيّة بلمحة سريعة إلى الطرف الآخر، توازي أو تكاد تزيد عن تلك التي تنقل عبر حاسة السمع، فحاسة البصر ترى وتقرأ ذلك الصمت الموسومة به الوجوه، فتحوّله إلى دلالات معبرة عن تلك المواقف التي شملها الصمت، كالفرح والحزن والغضب، حتّى في حالات التعبير باللّسان قد يعلق بالعين من الصور والملاحظات أكثر ممّا يعلق بالإذن قد تكون صاغية لبعض الكلام ولا تعي الآخر، إنّ العين آلة تصوير تظهر أدّق الأشياء التي تلمحها في الأعين، وما يبدو مرتسماً على الوجوه كأدلة صادقة تثبت عكس ما يخفيه اللسان خلال تمويه الآخرين بالكلام المتلوّن لذلك أصبح "النّاس يثقون بالرسائل غير اللّفظية أكثر ممّا يثقون بالكلمات".[2]

وأكدت الباحثة (Merlyn Cundiff) في كتابها علم الكينات (Kinesics) أي "علم الحركة الجسميّة" على دور العين في نقل المعاني مثل ما تنقله الأذن، فقالت:

"he listens with his eyes as carefully as he does with his ears".[3]

---

[1] سوزان كليام، لغة الجسد، ترجمة إدوارد أبو حمرا، ص 7-8.

[2] سوزان كليام، م.ن.، ص 8.

[3] Kinesics, P 21.

واهتمت الدّراسات الحديثة في مجال الاتصال والتّواصل بالحواس الخارجيّة كوسائل غير لفظيّة تنقل رسائل مختلفة وتفصح عن المشاعر الداخليّة التي هي جزء غامض من كيان الإنسان، ومع ذلك لا يمكن تجاهل أثرها على الحواس الخارجيّة حيث اعتاد كثير من النّاس اعتبار الحواس الخارجيّة والباطنيّة قسماً واحداً[1]، ولكن منحت الحواس الخارجيّة اهتماماً أكبر، لأنّها أظهر في التّفاعل مع العالم المحيط بها، فهي لغة الجسد التي يسجّل عليها التعبيرات غير اللّفظية بتأثير خارجيّ وردّة فعل داخليّة، وتتمثل في اللّمس والسمع والنّظر والشمّ والمذاق.

فأطلق عليها الدكتور محمد نظيف "العلامات غير اللّسانيّة"[2]، واعتبر الدكتور محمد كشّاش الحواس لغة يعتمد عليها الإنسان أثناء تواصله مع عناصر مجتمعه، فيستدلّ من خلالها على أمور دقيقة كحاسة اللمس، والتذوق، والشمّ، والسمع يتمثل في دلالات الإشارات الصوتيّة غير اللغويّة كالضحك والبكاء، ولغة البصر.[3]

وأبرز الشّعراء المحدثون أهمية دور هذه الحواس في نقل رسائل مختلفة إليهم وإلى غيرهم كما أبرزها الشعراء القدماء، وهذا يدلّ على مدى أثرها وتأثيرها في إحداث استجابات مختلفة عند الشعراء وفق المواقف التي يتعرّضون لها، ولهذا استشهد المهتمون بلغة الجسد بالأشعار التي تدعم آرائهم في أنّ الحواس من وسائل التعبير غير اللّفظية التي تنقل دلالات معبرة تقوم مقام اللسان.

فالشاعر عليّ محمود طه قال لموسيقية عمياء يطلب منها رؤية ما حولها عبر حاسة اللمس:

(الهزج)

ولا تبكي على يومي ... ك أو تَأْسَيْ على الأمسِ
إليكِ الكون فاشتفِّي ... جمال الكون باللّمسِ
خذي الأزهارَ في كفَّيـ ... ـكِ فالأشواكُ في نفسي[4]

وفرّق الشاعر نزار القباني في قصيدته (العطر) بين عدّة أصناف لرائحة العطر عبر حاسة شمّه، فهي مبعث اختلاف تلك الدلالات التي استشعرها من شمّه للعطور، ومن ثمّ ردّدها لسانه بمفردات تثبت حصول تواصل غير لفظيّ عبر حاسة الشمّ ممّا مكّنه من تصنيف الروائح المنبعثة من العطور بربطها بخصوصية المكان الذي شمّها فيه، والجنس الذكريّ والأنثويّ، واختلاف مراحل العمر، فقال:

---

(1) ينظر: محمد كشاش، اللغة والحواس، ص30.
(2) محمد نطيف، ما هي السيميولوجيا،ص 20 – 33.
(3) ينظر: محمد كشاش، م.س، ص 79- 185. و ينظر: في حاشية، ص 34-3.
(4) علي محمود طه، ديوان علي محمود طه، ص179.

والعُطورُ أصنافٌ وأمزجة
منها ما هو تَمْتَمَةْ
ومنها ما هو صلاة
ومنها ما هو غَزْوَةٌ بَرْبَرِيّةْ
هناك رجالٌ يُفَضِّلونَ العُطور التي تهمس
ومنهم مَنْ يُفَضِّلونَ العطور التي تصرخ
ومنهم من يفضلون العطور التي تغتال

فعِطْرُ العَشيقَةِ شيءٌ
وَعِطْرُ الحَبيبَةِ شيءٌ آخر
وَعِطْرُ الطالبَةِ ذاتِ السّبع عَشرة سنة شيءٌ
وَعِطْرُ السّيدة في الأربعين شيءٌ مُختلفْ[1]

واعتبر المحدثون المذاق نوعاً من أنواع التّواصل الجسديّ، فحين نتناول الأطعمة نقوم بتذوقها أولاً، فإذا استلذذناها، رغبنا في أكلها، وإن وجدنا أنّ طعمها غير مستحبّ امتنعنا عن تناولها.

واليوم نستعمل كلمة "الذوق" استعمالاً معنويّاً، يقوم على اختلاف نظرة الناس اتجاه أمور كثيرة في مختلف جوانب الحياة، ومن ثمّ يتمّ إصدار أحكام على الأشخاص بناء على هذه الأذواق. فعلى سبيل المثال إذا ارتدى شخص ما ملابس جميلة متناسقة، فاختياره لها يدلّ على تحليه بذوق رفيع. وكذلك الأمر بالنسبة لاختيار الكلام الحسن المتناسق، فمن الكلام ما ينزل منزلة الطعام في الحلاوة واللّذة، وينفع قائله، ويؤثر في نفس سامعه، فالتفوّه بكلمات وعبارات جميلة ولطيفة أثناء التعامل مع النّاس، فهذا يدلّ على جماليّة أسلوب صاحبها وذوقه الرفيع في الحديث، وانجذاب الناس إلى المتحدّث، ورغبتهم في متابعة الاستماع إليه، ولقد أفرد الدكتور محمد كشّاش فصلا عن الكلام بعنوان " طعم الكلام بين الحقيقة والوهم " فالكلام وصف بأصناف الأطعمة، فيقول: "إدراك الكلمة وتناول معناها يتم – إلى حدّ ما – كإدراك المآكل وتناول المشارب،..."[2] وليس أدلّ على ذلك من ضرب الله جلّ وعلا مثلاً: الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة (الثابتة). جاء في محكم كتابه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.[3] وزاد بياناً وتأكيداً على ذلك عندما قابلها

---

(1) نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، ط1، 6/ 449- 451.
(2) محمد كشاش، اللغة والحواس، ص 112.
(3) سورة إبراهيم، آية 24.

بالكلمة الخبيثة التي لا قرار لها في الآية الكريمة: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.[1]

فنبّه الباحثون في مؤلفاتهم على أهميّة لغة الجسد، وأخذها بعين الاعتبار، أمثال "بيتر كليتون" الذي خصّص فصلاً تناول فيه قواعد الاتكيت الدولي.[2]

وتبعاً للقاعدة القائلة: "عندما تكون في روما، افعل كما يفعل أهل روما"[3]، في كثير من الأحيان يقع الغرباء في سوء فهم بعض الإشارات غير اللّفظية كما يفهمها أصحابها، ولاسيّما إذا كانت تستخدم نفس هذه الإشارات عند هؤلاء الغرباء ولكن بمقاصد مختلفة، فعلى سبيل المثال إشارة ✌ برفع السّبابة والأصبع الوسطى تستخدمها الشعوب المحتلّة كعلامة نصر ترفع في وجه العدوّ، كما يفعل أبناء الشعب الفلسطيني اليوم، وقد استخدمها ونستون تشرشل خلال الحرب العالميّة الثانية كناية عن النصر.[4]
وقد تحمل تفسيراً آخر سلبياً، فهي شعبية في استراليا ونيوريلندا، وبريطانيا العظمى، وتحمل تفسيراً فاحشاً في حالة جعل راحة اليد إلى الداخل، فإنّ المعنى الفاحش هو المقصود، بينما ونستون تشرشل كان يجعل راحة اليدين في مواجهة الشخص لتعني النّصر، وهذه الإشارة تعني كذلك في بعض أرجاء أوروبا العدد "اثنين".[5]

ولهذا أصبحت لغة الجسد لغة تحمل محمل الجدّ عندَ الأفراد والجماعات لا يمكن تجاهل دورها في نقل الرسائل المختلفة، ومدى تأثيرها في إحداث استجابات ايجابيّة أو سلبية وهذا يعتمد على فهم الفرد لدلالتها وفق استخداماتها عند مختلف الشعوب، لهذا سيجد الفرد نفسه المعني بفهم كل ما يصدر عن الإنسان من معانٍ بمختلف الوسائل، بحاجة كبيرة إلى دراية بالحركات الجسديّة، والإطلاع على ما تؤديه من دلالات مختلفة مع مراعاة اختلاف ثقافة الشعوب حتّى لا يقع في مشاكل يصعب الخروج منها، وعلى إثرها يفقد مصالح مهمّة نتيجة سوء الفهم لبعض دلالات لغة الجسد. وما تمّ إصداره من مؤلفات حول "لغة الجسد" ما هو إلّا خدمة لهذه الغايات للتعرّف على دلالات الحركات والإيماءات الجسميّة في مختلف المواقف مع مراعاة ثقافات الشعوب، وخصوصاً أنّ الدّراسات الحديثة أثبتت بنسب مئويّة فعاليّة التعبيرات غير اللّفظية مقارنة بالتعبيرات اللّفظية: وجد (ألبرت مهرابيان) "أن مجموع أثر الرسالة هو نحو (7%) بالمائة شفهي (كلمات فقط)،

---

(1) سورة إبراهيم، آية 26.
(2) بيتر كليتون، لغة الجسد، ص 120 – 143.
(3) آلن بيز، لغة الجسد، ص 12.
(4) ينظر، آلن بيز، م.ن، ص 12. ينظر: ناتالي باكو، "لغة الحركات"، ص 35.
(5) آلن بيز، م.ن، ص8.

و(38%) بالمائة صوتي "بما في ذلك نبرة الصوت، وتغيّر في نبرة الصوت، وسائر الأصوات، و55 بالمائة غير شفهي".[1]

وارتأى إلى هذه النَّسب مبتكر علم الحركة الجسميّة (علم الكينات) راي بيردوسل (Ray. L. Bird Whistal): فنسبة التعبير وجهاً لوجه تتراوح ما بين (30 – 35%) بالمائة – وأنّ أكثر من (65%) بالمائة من الاتصال يتمّ بكيفية غير شفهيّة".[2]

لغة الجسد هي إحدى المهارات الضروريّة في التّواصل الإنسانيّ، يرى بيتر كليتون أنّ الشخص يكون ناجحاً في بناء علاقات إنسانيّة مع الآخرين إذا كان على دراية بلغة الجسد.[3]

ناقشت الباحثة ميرلين كونديف (Merlyn Cundiff) فعالية الاتصال الصامت {علم الحركة}: "فلغة الجسد هي تعبير عمّا يدور في وعينا، فهي أصدق من الكلام،...، إنّ الذين يعملون في علم الأجرام يقولون إنّ علم الحركة إذا ما فهم جيداً هو الأحسن في معرفة الكذب، ولاسيّما إذا لم يكن هناك تناسق بين الحركات الجسميّة والكلام".[4]
لاحظ زيغموند فرويد – ذات مرة – أنّ إحدى مريضاته كانت تزلق لاشعوريّاً خاتم الزواج من أصبعها خلال تعبيرها شفهيّاً عن سعادتها في الزواج، فأدرك فرويد معنى هذه الإيماءة اللاشعوريّة، ولم يدهش عندما راحت تبرز على السطح المشاكل الزوجيّة.[5]

جعل عالم الانثربولوجيا راي بيردهوستيل[6] من لغة الحركة الجسميّة (Kinesics) علماً على غرار اللغة اللسانيّة، فهو "علم يختص بوصف أوضاع الجسم وحركاته، تلك الأوضاع والحركات التي تحدث وفق نمط معين، كما أنّها تحدث نتيجة للتعلّم ويحلّلها جميعاً إلى خصائصها".[7]

تناول (Pierre Feyereisen) الحديث عن علم الحركة (kinesics) والوحدات الأساسيّة التي وضعها (Birdwhistell،1970) لعلم الحركة مقابل الوحدات الأساسيّة لعلم اللغة، فبهذه التقسيمات سيكون لعلم الحركة نجاحاً وبروزاً في تفسير إيماءات الاتصال بنفس الدقة مثل تلك التي

---

(1) ينظر، آلن بيز، لغة الجسد، ص8.
(2) فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة، ص 161..
(3) ينظر: بيتر كليتون، لغة الجسد، ص 9.
(4) Merlyn Cundiff, Kinesics, p71.
(5) آلن بيز، لغة الجسد، ص15.
(6) هو المؤسس لعلم الحركة الجسميّة سمّاه "علم الكينات" حيث نشر كتاباً يحمل اسم هذا العلم"مدخل إلى علم الكينات" عام 1952،ينظر: فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة، ص 167.
(7) المكان نفسه.

تحققت في دراسة اللغة عن طريق علم اللغة كما يرى بيرد هوستيل[1] فكتاب (راي بيردهوستيل)، 1952 (مقدمة إلى الكينيسيّة) سجل السبق الحقيقي لدراسة منظمة للحركات الجسديّة.[2]

وهذه التقسيمات من منهج وضعته "الكنيسيّة" فكان القصد من هذا المنهج بناء شفرة حركيّة تقوم على عزل الوحدات الصغرى في حركات الجسد واستخراج نظامها داخل وحدات اشمل وأكبر، وذلك من أجل الوصول إلى وضع شفرة حركيّة تماثل الشفرة اللغويّة التي تتكون من الفونيمات والمورفيمات والمونيمات، فجعل بيردهوستيل مقابل الفونيم (الوحدة الصوتية الصغرى في اللغة) كينيم Kineme للإشارة إلى الوحدة الصغرى في شفرة اللغة الحركيّة، وذلك مثل حركة رفع وخفض الحاجب أو اليد أو الرأس، وتناسق الكينيمات فيما بينها يكون وحدة ذات درجة أعلى من الكينيم سماها الكينيمورفيم (Kinemorpheme)، وهي تقابل الوحدة الصرفيّة (المورفيم) في اللغة المنطوقة، وذلك مثل التناسق بين حركة اليد والرأس معاً. ويتناسق الكينيمورفيمان بدورها بشكل مركب ليكونا بناء كينومورفيما يشكّل بنية لشفرة الحركات مثل البنيات اللغويّة المكونة من كلمات وجمل وفقرات.[3]

وابتكر بيردهوستيل أبجدية من الرسوم التي ترمز كلّ واحدة منها إلى حركة واحدة، أو "كين" فهي تقابل الأبجدية الصوتية في علم أصوات اللغة،... الخ.[4]

وهذه الرّسومات تجسّد جميع الحركات الصادرة عن أعضاء من إيماءات تخصّ العين، والوجه، والفم،...، فمن الأمثلة على حركات الوجه: إنّ الشكل البيضاوي المحاط بشرطتين على الجانبين يمثل وجهاً خالياً من التعبير.[5]

إنّ تعمق بيردهوستيل في علم الكينيات "الحركة الجسميّة" بمقابلته بعلم اللغة، علم له أسسه وأبجديته الرمزيّة، علم جعل من بعض الحركات الجسميّة التي تصدر عن الإنسان رموزاً مرسومة تجسد وضعيات جسمية مختلفة حيث تعكس ردود الأفعال الطبيعية المشتركة بين أبناء الجنس البشري في مواقف متشابهة يتعرضون لها، أي تعكس نفس المواصفات الجسمية التي تجمع بين العديد من الأفراد حيث تكون دالة على نفس الصفات والسلوكيات الجسمية، فهي تستحق الدّراسة تماماً كعلم الأصوات اللغوية، لأن كل ما يصدره الجسم من حركات وإيماءات هي تعبير عن فكرة، أو ردّة فعل أو شعور حسيّ يريد الإنسان توصيله لغيره من أفراد جنسه، أو يتواصل من خلالها مع

---

(1) Feyereisen, Pierre, Gestures and speech, P 20 – 22.

(2) منبر دنيا الوطن "مظاهر التّواصل غير اللّفظي" قلم: جميل حمداوي، ص3، الانترنت.

(3) منبر دنيا الوطن، م. ن، ص6.

(4) فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة، ص 170 – 171.

(5) ينظر: فاطمة محجوب، م.ن، ص171.

المحيطين به. فهذا الشيء يعكس قدرة الإنسان المرسل على استخدام الإيماءات والحركات الجسميّة التي تشير إلى مقصده، وفي المقابل قدرة الطرف المستقبل على فهم دلالة تلك الإيماءات والحركات، ولاسيما أن هناك إشارات تصدر عن الجسد فجأة حسب المواقف التي يتعرّض لها من غير حاجة إلى تخطيط مسبق من قبل الشخص الذي صدرت عنه، أو دون وعي تام بها إذا ما كانت ناتجة عن موقف طارئ. فإذا اقتربت شاحنة مسرعة من شخص يقطع الشارع، فتكون ردّة الفعل منه أن يقفز مسرعاً لشعوره بخطورة الموقف، بالتأكيد لم يكن أمامه خيار سوى هذه الشفرة الجسميّة، القفز إلى أعلى. فهذه الإيماءة تدفع الآخرين – الذين شاهدوا هذا الموقف – الاقتراب من الشخص الذي تعرض للخطر، فيحاولون التخفيف من روعه. يقول فرويد: "إنّ لا شعور الكائن البشريّ قد يفعل في لاشعور آخر دون المرور بالوعي".[1]

والحركات الجسميّة تعكس ثقافات مختلفة، فلكلّ مجتمع حركاته الخاصة به، أي علامات تميّزه عن مجتمع آخر، فتصبح جزءاً من معالمه الخاصة به، التي تحظى باهتمام المتخصصين في دراسة ثقافات الشعوب في مختلف مجالات الحياة من عادات وتقاليد وسلوكيات وغير ذلك من سمات غير لفظيّة. فالدكتورة فاطمة محجوب رصدت بعض الحركات الجسميّة العامّة للإنسان المصريّ، الأكثر شيوعاً بين أبناء المجتمع المصريّ، تشير إلى دلالات ثابتة لا يكاد يختلف في تفسيرها اثنان من أبناء هذا المجتمع، لخصتها في ثلاثة أنواع، وهي:

أ –**حركات ذات دلالة محدّدة:** على نحو الحركة التي دلالتها "انتظر قليلاً" و تكون بضم أطراف الأصابع، فتصبح اليد في شكل الكمثرى.

ب **حركات التوكيد:** تحدث مصاحبة للكلام، فهي تقابل "النّبر" في علم الأصوات على نحو رفع السبابة، وضمّ بقية الأصابع، وتتجانس تركيبيّاً مع الحركة التي دلالتها: احذر،...، وإلا...

ت **حركات توضحيّة:** وتكون مصاحبة للكلام، كالاستعانة باليدين لوصف شيء يعبّر عنه كلاميّاً، أي تتخذ في تركيبها شكل الشيء المراد وصفه أو توضيحه بحركة اليدين.[2]

وهناك الكثير من العادات غير اللّفظية غير المألوفة عند جميع الشعوب، فعلى سبيل المثال تقول مارلين كونديف دعيت مرة إلى حفلة عشاء في ولاية جنوبيّة، كان المضيف عريف الحفل، ومعه زوجته وأطفاله الخمسة، بينما نحن جلوس على المائدة مسك كلّ شخص يد الشخص الذي بجواره للمباركة، عندما سألته عن هذه العادة الجميلة، قال المضيف إنّهم توارثوها منذ أجيال تعبيراً عن شكرهم لعائلتهم.[3]

---

(1) ناتالي باكو، لغة الحركات، ص 10.

(2) ينظر: فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة، ص 173- 185.

(3) Kinesics, P: 70.

وهناك من العادات المألوفة عند جميع الشعوب فمثلاً الرجل الكبير في السن يضع يده على كتف شاب، فهي تعبير عن نصيحة أو مشورة، والشاب عندما يقود عجوزاً إلى الجهة الأخرى من الشارع فهو تعبير عن التعاطف معه.

ويكون من الإيماءات والحركات الجسميّة ما هو متعارف عليها عالميّاً تؤدي نفس الدلالة في مختلف المجتمعات إذا ما تعرضوا لنفس المواقف، فعلى سبيل المثال:
"هز الكتفين إيماءة عالميّة تستخدم لإظهار أنّ الشخص لا يدري أو لا يفهم ما تتحدّث عنه، إنّها إيماءة متعددة لها ثلاثة أجزاء رئيسة: راحتا يدين مكشوفتان، وكتفان محدّبتان وحاجبان مرفوعان"[1]، ومنها ما هو عالميّ كإشارات تنظيم حركة السيّر، والتعليمات، والإرشادات، والتحذيرات. تتميّز العلامات الإشاريّة بصفة أحاديّة الدّلالة، فأغلبها يكون اصطلاحيّاً أي تحمل دلالات معينة يتفق عليها أفراد المجتمع[2]، ومنها ما يعكس ثقافة شعب معين دون آخر كالشعارات الدينيّة، والعادات الاجتماعيّة في مختلف جوانب الحياة، وغير ذلك.

لا يمكننا حصر أشكال التّواصل غير اللّفظي في أشكال محدّدة، بسبب التطوّر التقنيّ في مختلف الميادين، فقد يبتكر الإنسان وسائل غير لفظيّة جديدة يستعين بها في تأدية رسائل ذات دلالات مختلفة وهذا يعتمد على المواقف التي تتطلب معنى دلالة معينة.
ومع ظهور علم السيمياء بات الأمر أكيداً، فكلّ ما يدلّ على معنى واضح للطرفين المتواصلين أو يحمل دلالة معينة فهو علامة كما بيّن ذلك "بيار غيرو" فهو اعتبر كل ما هو لفظيّ وغير لفظيّ يحمل دلالات واضحة العلامات.

فالأنماط الدلاليّة للرموز غير اللّفظية كثيرة، ولكن الدراسات الحديثة حدّدتها في قواعد وأنماط عامّة يشترك فيها الجميع، فتعطي نفس الدلالات: كتعبيرات الوجه، وهناك أنماط سلوكيّة غير لفظيّة خاصة بإقليم معيّن أو بجماعة مهنيّة، وغير ذلك.

مجالات التّواصل بلغة الجسد:

1- لغة الصمّ – البكم

الإنسان الذي حرم نعمة السمع والكلام حظي باهتمام كبير من قبل المؤسسات الجمعيات الراعية لهذه الفئة من الناس، فاستطاع التّواصل مع أقرانه الذين يعانون من نفس هذه المشكلة،

---

(1) آلن بيز، لغة الجسد، ص 11.
(2) ينظر: بيار غيرو، السيمياء، ص 71.

فخصصت لهذه الفئة لغة عرفت بـــ "لغة الصمّ – والبكم" تقوم على أســـاس التّواصـــل بإشـــارات وإيماءات جسميّة مفهومة لأفراده، فإنّ الإنسان السليم اخترعها لهم كي يسهل إدماجهم في المحـــيط الذي يعيشون فيه، حيث بادر إلى تنظيمها وتقنينها الأب الفرنسيّ "دولابيّ" الذي عاش فـــي القـــرن السابع عشر، ودوّنها في قاموس صغير، وأصبحت هذه لغة أساسيّة في المدارس التي كان يشـــرف عليها.[1]

وأمام لغة الصم والبكم نقف مندهشين كيف يمكن لهذه الفئة التّواصل بلغة لا تعتمد علـــى النطق والسمع، إذ تقوم مقام اللّغة المنطوقة التي يتواصل بها الأصحاء، وهذا ما لاحظتُه ذات مرة عندما استوقفت سيارة كانت تنقل أطفالاً، فجلست بينهم، وأنا لا أعلم أنّهم صـــمّ – بكـــم، فبـــدؤوا يضحكون، وينقلون لبعضهم رسائل من خلال الإشارات باليد، فاستشعرت بالغربة بيـــنهم، وعـــدم الرّاحة، رغم أنّهم لا يتجاوزون التاسعة من عمرهم، حيث كان التفاهم بينهم واضحاً بهـــذه اللغـــة الصعبة لمن يجهلها.

والتاريخ الإنسانيّ أثبت لنا قدرة هؤلاء على تحدي الصعاب، أمثال "هيلين كيلر" (1880–1968) المرأة التي عرفها جميع العالم، امرأة عمياء، صمّاء، بكمـــاء، تحـــدّت كـــلّ الصـــعاب، واستعانت عن كلّ ما فقدته من حاسة سمع وبصر ونطق باللّمس الذي ساعدها على قراءة المحيطين بها، وتمييزهم من بعضهم البعض: الغني، والفقير، والسعيد والحزين، ولـــيس هـــذا فحســـب بـــل استكشفت أخلاقهم، ووضعهم النفسيّ، وحالاتهم الانفعاليّة وحتّى لهجاتهم المحليّة وكلّ ذلك بفضـــل حاسة اللّمس.[2]

ولا ننسى لغة "بريل" لغة الفتى الفرنسيّ الذي أصيب بالعمى سنة 1812، استعان بـــدبابيس كـــان يغرسها في وسادة، مشكلاً منها حروفاً بارزة لملامستها مميّزاً بين مختلف الحروف بهذه الطريقة، فطوّرت، وعرفت باسمه "لغة بريل".[3]

لا نستغرب أذن من وجود نظام متكامل، ومتناسق من الإشارات والإيماءات الجسديّة كلغة الصم– البكم، حتّى أننا أصبحنا نشاهد متعلمي هذه اللغة على شاشات التلفزة يقدّمون برامج أخبـــار للصم البكم، ذلك لدمجهم في المجتمع وحتى يكونوا على اطّلاع بما يدور حولهم. لقد أظهرت مقالة بعنوان "لغة الإشارة ودورها في عملية الدّمج التربويّ الاجتماعيّ والاقتصاديّ"[4]: أنّ لغة الإشارة

---

(1) www.ae.gladiatus.com" لغة الإشارة بين الواقع و التطبيق".
(2) ينظر، محمد كشاش، اللغة و الحواس، ص 84.
(3) ينظر، محمد كشاش، م. ن، ص 94.
(4) www. ae. gladiatus. Com.، لغة الإشارة بين الواقع والتطبيق.

للصمّ شكل من أشكال التّواصل الهامّة، والتي تعتبر متنفسا لهم تُعبّر عن حاجاتهم، وانفعالاتهم، وبالتالي تخفّف من حدّة الضغوطات الدّاخلية، وتخرجهم من عزلتهم، لذلك عمدت أنظمة الاتصال المهتمة بالصّم على خرطهم في المجتمع من خلال نظامين: الاتصال الشفويّ، والاتصال الإشاريّ بطرق متعدّدة منبثقة عن هذين النظامين: كالأصوات غير اللّفظية، وحركة الشّفاه، وحركة اليدين، والأصابع، والإشارات، المقترنة بالكتابة والقراءة، وتوفير وسائل مساعدة كالأجهزة السمعيّة الخاصة بالصّمّ.

ولغة الإشارة بطبيعة الحال تنتج من خلال قنوات بصريّة وحركيّة لا من خلال قناة سمعيّة شفهيّة كاللغة الكلاميّة.

2- علاج مرضى التّوحد:

برزت أهمية التّواصل غير اللّفظي لدى المختصين في علاج مرض "التّوحد" لدى الأطفال الذين يعانون من إعاقات نمائيّة غامضة ليس لها أسباب حقيقيّة يترتب عليها ظهور سلوكيات مزعجة للآخرين، فليس لديهم قدرة على التكيّف والتّواصل الاجتماعيّ بسبب وجود صعوبات في التّواصل اللّفظي وغير اللّفظي، فينتج عن ذلك انعدام التعاون مع من يحيط بهم، ويصبح طفل التوحد منسحباً من أي مشاركة، ومنشغلاً بذاته بشكل كبير، فلا ينتبه لما يجري ما حوله، ولا يلفته شيء وإن كان مثيراً. "فأطفال التوحد هم الذين يظهرون عجزاً واضحاً في مهارات التّواصل غير اللّفظي والتي تتحدّد في الانتباه المشترك، والتّواصل البصريّ، والتقليد، والاستماع والفهم، والإشارة إلى ما هو مرغوب فيه، وتمييز وفهم تعبيرات الوجه، ونبرات الصوت الدّالة عليها".[1]

لذلك قام كثير من الباحثين التربويّين بتقديم برامج مقترحة لتنمية مهارات التّواصل غير اللّفظي لدى أطفال التوحد من خلال تدريبهم على عمل مجموعة من الحركات الجسميّة لتحسين سلوكهم الاجتماعيّ ليتم دمجهم في المجتمع.

- لقد أظهرت نتائج الدراسة التي أجرتها الدكتورة (لينا عمر) مدى فعالية البرنامج المقترح لتنمية مهارات التّواصل غير اللّفظي التي يفتقد إليها أطفال التوحد المتمثلة في "الانتباه المشترك، التّواصل البصريّ، والتقليد، والاستماع والفهم، والإشارة إلى ما هو مرغوب، وفهم تعبيرات الوجه، ونبرات الصوت الدّالة عليها لدى الأطفال محدودي اللغة في الفئة العمريّة ما بين (4 6) سنوات.[2]

---

[1] مجلة الطفولة العربية، "فاعلية برنامج مقترح لتنمية مهارات التّواصل غير اللّفظي لدى أطفال التوحد، و أثر ذلك على سلوكهم الاجتماعيّ" مج 9، العدد 33، 2007، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، ص 10.

[2] مجلة الطفولة العربية، فاعلية برنامج مقترح لتنمية مهارات التّواصل غير اللّفظي لدى أطفال التوحد، و أثر ذلك على سلوكهم الاجتماعيّ، ص 32.

3- التمثيل المسرحي:

اهتمت معاهد التمثيل المسرحي بلغة الجسد أي "التمثيل الصامت" الذي يرتكز بشكل كبير على الأداء الحركي الجسميّ، ذلك لأنّ "الحركة جزء بصريّ يجب أن تصنع بشكل صادق، ومبدع لتمنح المشاهد قدرة التحريّ واستقراء الواقع".[1]

فأصبحت الحاجة في هذا المجال ملحة لدراسة العلم المرتبط "بالاتصال الصّامت" للتحكّم بالحركات الجسميّة أثناء التمثيل للتوافق مع الأداء اللّفظي، بناء على فرضية تقول: "أنّ هناك لغة حركيّة إيمائية ترافق اللغة المنطوقة أو تغني عنها".[2]

إنّ جسد الممثل بات أداة فعّالة لنقل الأحاسيس والتأثير في المشاهدين، فلغة الإشارة في المجال المسرحيّ على غرار اللغة المنطوقة "لغة انتظمت على شكل إشارات يمكن فهمها، ويمكن اعتبارها مفردات يتمّ تجميعها لتشكيل جمل منها، تكون مفهومة للجميع".[3]

فإنّ الممثل الناجح يفوز برضا مشاهديه بإقناعه لهم، لصدق ما قام به من حركات استطاع أن يتقمصها بشكل حقيقيّ، بحيث لا تكشف زيف ما يقوم به من دور قد يتناقض مع أقواله.

فالحركة كما يراها الدكتور عوني كرومي "وسيلة إنسانيّة أساسيّة للحياة و البقاء، ووسيلة مسرحية للكشف عن الحياة ومعناها ومكوناتها لأنّها تحدث داخل الإنسان، والفهم هو الذي ينضج عملية اكتشافها. فجسم الإنسان بالغ الدقة في الكشف عن المعنى، حيث تستطيع القدم تكذيب الرأس، وتستطيع اليد أو زاوية أو أي جزء صغير التعبير بينما يظلّ بقية أعضاء الجسم جامدة".[4]

واعتبر العلماء الإيماءات الجسديّة تفوق قوّة القناة الكلاميّة خمسة أضعافها وفق التقديرات العلميّة "فينسب العلماء هذه القوة كون الإيماءات الجسديّة تعبر عن المواقف الداخليّة للإنسان،...، كما أنّ الإشارة غير اللّفظية أثبتت أنّها أكثر صدقاً، وحقيقة، ويمكن التعويل عليها أكثر من الاتصالات اللّفظية".[5]

أصبح "التمثيل الإيمائيّ" المجرّد من الكلام والذي يعرف بالتمثيل الصامت الموحي (البانتوميم) يعتمد على الجسد من خلال الوقفة والحركة والإشارة، لا من خلال عضو واحد من أعضاء الجسد كاليد أو الوجه، فالبانتوميم هو "نقل فكرة إلى حركة وإحياء الشعور الذي يكمن خلف الفكرة، وهو إحياء تتحول فيه جميع الفواصل والجمل، جميع لحظات السكون في المسرحية غير المكتوبة إلى حقيقة في الحركة".[6]

---

(1) إبراهيم عبدا لله غلوم، وآخرون، تقنيات تكوين الممثل المسرحيّ، 2/ 188.
(2) وليد أبو بكر، لغة الجسد في المسرح، القدس، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ص36.
(3) المرجع نفسه.
(4) إبراهيم عبد الله غلوم، م.س، ص 191.
(5) وليد أبو بكر، م.س، ص 37.
(6) إبراهيم عبد الله غلوم، م.س، ص 229.

لقد قدّمت الدّراسات الحديثة دراسة شاملة عن بعض أنماط التعبيرات غير اللّفظية في مجال معيّن، كالتعبيرات العاطفيّة بين المحبين، والعلاقات في مجال العمل، والعلاقات بين الأصدقاء، والعلاقات بين الأقارب.

فسنهتم بالعلامات غير اللّفظية المتعلقة بالجانب العاطفيّ، التي تدور حولها دراستنا كوسائل بديلـــة عن الكلام. وتحديد ما توحيه من دلالتها ضمن السّياق الشعريّ الذي وردت فيه.

الفصل الثاني

النظريات الدلالية الحديثة

المبحث الأول:- النظرية السياقيّة - الحالية.
المبحث الثاني:- النظرية السيميائية.
المبحث الثالث:- النظرية الإشاريّة – التصوريّة.

زاد اهتمام العلماء منذ القدم بمسألة المعرفة، وكيفية حدوثها عند الإنسان، واختلفوا في تفسيراتهم في ذلك نظراً للمسبّب في حدوث المعرفة، وتشكّل الأفكار، الأمر الذي أدّى إلى استمرار البحث، وسمح بظهور نظريات في المجال المعرفيّ لدى الإنسان على مرّ العصور.

فبعض العلماء آمن بالنظريّة الفطريّة والتي تقوم على مبدأ أنّ الأفكار تولد مع الإنسان، وأنّ مركزها العقل، فتحْدث المعرفة من خلال تذكّر الإنسان ما نسيه، والتّذكّر كما يعرفه أفلاطون ليس سوى عملية "لكشف ما قد طواه النسيان بفعل الزمن والإهمال".[1] فإنّ المعرفة الإنسانيّة بحسب تفسير أفلاطون تثار من قبل العقل لاختزالها فيه، كونها حقائق أزلية ثابتة في الذاكرة.
النظريّة الإنسانيّة المعرفيّة أخذت تتطوّر، وأصبحت أكثر واقعيّة في تفسير كيفية الوصول للمعرفة، وأنّ للحواس دوراً في حصولها من خلال علاقتها بالعالم الماديّ والأشياء الموجودة في الواقع، الأمر الذي يجعل بعض العلماء يفسّرون بأنّ العالم الخارجيّ هو مصدر تكوّن المعرفة، وبالتالي إثارة الأفكار في الذّهن من خلال مجموعة الحواس، ومن ثمّ إدراكها في العقل عن طريق مراكز الإحساسات التي توجد فيه، وهكذا تتكوّن الأفكار والمفاهيم حول الأشياء في الواقع، وهذا المبدأ اعتمده "جون لوك" الذي اعتبر أنّ الوصول إلى المعرفة يتمّ من خلال الحسّ، فيتصوّر "أنّ العقل صفحة بيضاء يكتب عليها الحسّ والتجربة بآلاف الطّرق".[2]
فجون لوك لا يؤمن بالأفكار الفطريّة التي يراها "أفلاطون" فالحسّ المعتمد على الحواس هو الذي يمدّ العقل بالأفكار، وهذا لا يعني أنّ العقل خال تماماً من الأفكار والتّصورات بل على العكس، فإنّ لديه "استعدادات كبيرة وعمليات دقيقة، من تذكّر وتخيّل وتصوّر، ومقارنة، وقدرات كثيرة، كالقدرة على التبسيط، والتجريد، وهي ليست عمليات مكتسبة، مثل: الأفكار من خارج العقل، بل هي أمور عقليّة نبعت من طبيعة العقل ذاته".[3]

كثرت الدراسات الحديثة حول كيفية حصول المعرفة عند الإنسان، وما ينتج عنها من إدراك لماهية الأشياء ودلالتها، فظهرت نظريات جديدة تهتم بمناهج البحث في المعنى و الدلالة، تتمثل في النظريّة السياقيّة – الحالية، النظريّة السيميائيّة، والنظريّة الإشاريّة.

---

[1] راوية عبد المنعم عبّاس، جون لوك إمام الفلسفة التجريبيّة، ص 46-47.
[2] راوية عبد المنعم عبّاس، م. ن، ص 41.
[3] راوية عبد المنعم عبّاس، م. ن، ص43.

المبحث الأول:- النظريّة السياقيّة – الحالية:

إنّ التّواصل الإنسانيّ في تصوّر الكثيرين يرتكز على اللّغة المنطوقة، وأنّها تقوم بدور هامّ في بناء السلوك الاجتماعيّ الإنسانيّ، والإفصاح عمّا تخفيه القلوب، فهي ذات أصوات منطوقة مفهومة في ألفاظها المصطلح عليها، واضحة في دلالة كلماتها المتداولة بين مستخدميها.

واللغة القائمة على الاصطلاح والفكر الإنسانيّ هي المعتمدة في البيان القائم على فهم المقاصد من ورائها بين البشر. قال الجاحظ: "والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بَلَغْتَ الإفهام، وأوضَحْتَ المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع".[1]

لقد حظيت النظريّة السياقيّة باهتمام العلماء اللّغويّين و البلاغيّين و الأصوليّين قديماً وحديثاً على أساس أنّ الكلمات المجرّدة من السياق لا تكون لها دلالة إلا من خلال السيّاق الذي وردت فيه. فالسياق هو الذي يحدد معاني الكلمات من خلال مجموع العلاقات بين الكلمات، وليس بوجودها مفردة.

فخلص بيار غيرو إلى "أنّ المعنى يخضع لعلاقات الكلمة مع غيرها من الكلمات الموجودة ضمن السياق ذاته، وتحدّد بنية النظام الألسني هذه الكلمات".[2] يقول فيتجنشتاين: "ليس للكلمة دلالة بل استعمالات وحسب".[3]

فالنظام الألسنيّ يتمثل في المفردات المعجميّة ذات الدّلالة الواضحة المعنى المصطلح عليه، والتي تتشكّل في نسق لغويّ وتركيب نحويّ صحيح مع مراعاة السياق الذي ترد فيه لتعطي مضموناً معبراً عمّا يدور في الأذهان ينمّ عن وعي باستخدامات الوحدات المعجميّة المتناسبة مع المواقف التي دفعت إلى استعمالها دون غيرها من المفردات، والتي يمكن أن تضيف معناً جديداً بالإضافة إلى المعنى المعجميّ، حيث يلعب الحدسُ الإنسانيّ دوراً في ولادة الدلالات الجديدة التي يسعى المتواصلون إلى انبعاثها أثناء تعبيرهم عن مضامين مختلفة وصولاً إلى مرادهم، فتصبح مرسالاً بينهم، وهذا المرسال لكي يكون مفهوماً، يتطلب سياقاً لسانيّاً أو وضعاً غير لسانيّ يُرجع إليه، وبناء رمزيّاً مشتركاً بين المُرسِل والمتلقيّ، والشكل الآتي يبيّن العناصر الأساسيّة التي حدّدها **(جاكوبسون)** لكل عملية تواصل:[4]

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1/ 76.
[2] بيار غيرو، علم الدلالة، ص 29.
[3] بول فابر وكريستيان بايلون، مدخل إلى الألسنيّة، ص 184.
[4] ينظر، بول فابر وكريستيان بايلون، م.ن، 46 – 47.

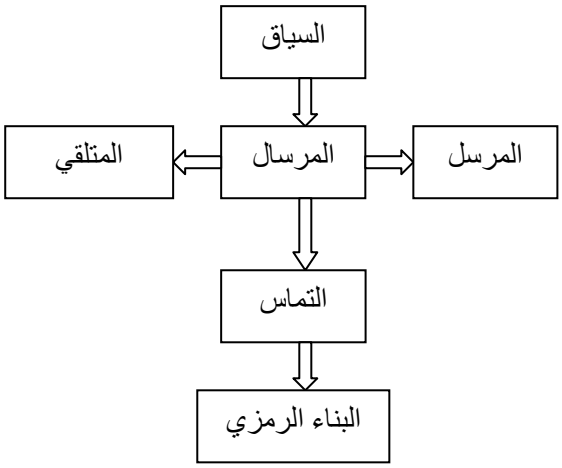

فَيُظهر هذا الشّكلُ المقومات الأساسيّة لحدوث الاتصال (المرسال) بين المرسل والمتلقي فلابد من وجود سياق لساني أو وضع غير لساني ليحصل الفهم بينهما، وهذا وحده لا يكفي لضمان فعالية التّواصل واستمراره فلابد من عنصر آخر يسهم في إقامة التّواصل ومتابعته بين المرسل والمتلقي، وهو وجود صلة نفسيّة بين المتكلم والمستمع والتي أطلق عليها جاكوبسون (التماس)، الأمر الذي يساعد على إيصال الرسالة بشكل صحيح عبر لغة مشتركة بينهما. ولاسيّما أنّ بعض الأمور يتم إدراكها عبر الحدس الإنسانيّ بالاستناد على ما مرّ به الإنسان من تجارب ومواقف كونت لديه خبرة وقدرة على تحليل الأشياء، وتفسيرها بدلالات كثيرة مستعيناً بما لديه من تصوّرات مختزلة في الذّهن، ومشاعر متنوّعة قد تنعكس على أعضاء الجسم توحي بمعان متباينة تبعاً للمواقف التي يتعرّض لها الإنسان، يستطيع الآخرون فهمها ومعرفة ما توحي به.

وأكّد علماؤنا العرب على تعدّد المعاني وكثرتها مقارنة بالألفاظ، فهذا الجاحظ ببصريته النافذة يشير إلى أنّ المعاني كثيرة يدركها ويعرفها جميع النّاس، كلّ وفق جنسه وموقعه الاجتماعيّ، ومقصده من اختيار نفس اللفظ لمعنى مختلف يزيد على المعنى الأساسيّ، ممّا تضفيه عليه مشاعره وأحاسيسه "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ، والقرويّ، وإنّما الشأن في إقامة الوزن، و تخيّر اللفظ، ...".[1]

والذي دفع المتكلم إلى استخدام ألفاظ معينة دون غيرها أثناء اتصاله مع الآخرين، هو السّياق، ليتحقّق المعنى المطلوب "إذ أنّ الكلمة توجد في كلّ مرة تستعمل فيها في جوّ يحدّد معناها تحديداً مؤقتاً، والسياق هو الذي بفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلّ عليها".[2]

---

[1] الجاحظ، الحيوان، مج 3، ص 13.
[2] نور الهدى لوشن، علم الدّلالة، ص 96.

لهذا أعطي السياق اهتماماً كبيراً في التعرّف على معنى المفردة من بين جملة من المعاني التي تفسّرها سواء أكان السياق لغويّاَ مكتوباً أو شفويّاً. فقالوا: "لا تبحث عن معنى الكلمة بل ابحث عن استعمالها"[1]، وقالوا أيضاً: "معنى الكلمة هو مجمل السياقات التي يمكن أن تنتمي إليها".[2]
إنّ السياق لا يتحدّد فقط في الجانب الألسني لفهم المراد من الألفاظ بل يتوقف أيضاً على الوضع والموقف الذي دفع المرسل إلى النطق بها، لذلك اهتمّ الباحثون في علم الدلالة بالسياق اللّغويّ والسياق الحالي.

السياق اللغويّ:

السياق اللغويّ هو نظام من الرّموز الصوتية تتألّف من أبنية مصطلحاً عليها، تترتب بشكل متناسق في تراكيب لا نفور فيها، فيساعد في فهم المعنى المراد من السياقات المختلفة أيضاً وجود مجموعة العلاقات الرابطة بين الوحدات اللغويّة المختارة في التراكيب التي صيغت فيه، مع مراعاة البناء النحويّ المتعارف عليه.
فعلى سبيل المثال:
نقول: يملك الإنسان عيناً يرى بها.
ولا نقول: يملك الإنسان عيناً يسمع بها.

الجملة الأولى والثانية صحيحتان من حيث التركيب النحوي. ولكنّ الجملة الثانية غير مقبولة من النّاحية الدّلاليّة، لأننا لا نسمع بواسطة العين، بل من خلال الأذن.
فدلالة الألفاظ المجرّدة تتميّز عن غيرها من حيث الدّلالة خلال وجودها في السياق، فالسياق يوفّر على الإنسان جهداً ذهنياً في استذكاره لمعاني الكلمات المعجميّة في كل مرة، لقد دلّت الاختبارات التجريبيّة على "أنّ الكثير من الوحدات التمييزيّة المجرّدة لا يحظى باحتفاظ واعٍ أثناء عملية التكلّم الواقعيّ، إنّما يستعاد من خلال السّياق".[3]
فتحصل القيمة الدّلاليّة للمفردة من خلال علاقتها مع مجموعة الكلمات المتجانسة في السياق الذي ترد فيه، فإنّ الكلمة "تعرف بالمجموعة التي تلازمها"[4]، لقد أطلق القدماء والمحدثون على هذا النوع من التلازم بين الكلمات بالتضام، اهتدى إلى هذا القاضي الجرجاني فيقول: "حتّى إذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع، فضممت إلى كلّ شكل شكله، وقابلته بما هو نظير له، وميّزت ما الصنعة منه في لفظه ممّا هي منه في نظمه".[5]

---

(1) نور الهدى لوشن، علم الدّلالة، ص 96.
(2) المكان نفسه.
(3) روبرت ديبو غراند وآخرون، مدخل إلى علم لغة النّص، ص 55.
(4) بالمر، علم الدّلالة، ص 145.
(5) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 71.

فإنّ توالي الألفاظ في السياق لا يكون بمجرّد ضمّ كلمة إلى أخرى بشكل عشوائي لنحصل على مفردات مجموعة معاً في تركيب غير متناسق من حيث الدّلالة "فليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها و تلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل. وكيف يتصوّر أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق، بعد أن ثبت أنّه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه من بعض".[1]

الألفاظ عند الجرجاني "لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنّ الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللّفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك، ممّا تعلّق له بصريح اللفظ".[2]

يتفق مع القاضي الجرجاني في هذه المسألة "بالمر" يرى أنّ من اعتقد بأنّ الكلمات المتضامّة كلّها يحددها معنى الكلمات، نظرة تبدو سيئة[3] بل يتحدّد معنى الكلمات المتضامّة عنده من خلال المجال الذي تستخدم فيه. قد يستعمل اللفظ في غير ما وضع له على سبيل المجاز والكناية، كقولنا بقرة خضراء (green cow) لعطائها.

تتحدّد القيمة الدّلاليّة للكلمات المتضامّة بوجودها في السياق، فإنّ السياق يعبّر عن حاجات نفسيّة لها دور في تحديد هذه القيمة الدّلاليّة وصولاً إلى المعنى المطلوب، فهذه التداعيات النفسيّة تفرض نفسها على المعنى الأساسي بإضافاتها الجديدة، بهذا تساعد على تعدّد الدّلالات و التي يوسّع منها خيال الإنسان أيضاً عبر تصوّرات ذات دلالات واسعة تتجسد في نظام لغويّ.

فإنّ للألفاظ أهمية كبيرة حين يختارها الأفراد في تعبيراتهم المختلفة، طبعاً هذا معتمد على دلالاتها التي تؤدي وظائف معينة بحسب قصد مستخدميها وتجاربهم الحياتيّة التي تفرض نفسها أيضاً في تخيّر الألفاظ المناسبة لتكوينهم الاجتماعيّ والثقافيّ، فقد نجد اللفظة نفسها عند البدويّ، والقرويّ، والمدنيّ ولكن قد يكون لكلّ منهم مرماه من هذه اللفظة يختلف عن مراد الآخر، وهذا ساعد على تعدّد المعاني.

فنجد كلمة "كبد" تستخدم لمعانٍ غير ذلك المعنى الأساسيّ المعروف لدى الجميع، و هو عضو من أعضاء الجسم يقع في الجانب الأيمن من البطن. فنقول:

- تقطّع كبد الأمّ حزناً على موت ابنها.
- تظهر الشمس في كبد السماء.
- تختزن الأرض في كبدها خيرات كثيرة.

فالسياق هو الذي اكسب لفظة "كبد" دلالات كثيرة.

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص 42.
(2) الجرجاني، م. ن.، ص 40.
(3) ينظر، بالمر، علم الدّلالة ، ص 148.

والعلاّمة عبد القاهر الجرجاني توصّل إلى أنّ اللفظة استحقت التميّز ليس بوجودها مفـــردة بل من خلال علاقتها بغيرها من المفردات، التي منحتها تشعباً في الدلالات، نتيجة حاجة الإنســـان للوصول إلى معنى جديد يخدم تصوّره العقلي حول الأشياء المجاورة لمعنى هذه اللفظة مع زيـــادة في المعاني. فيقول: "فإنّك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلماً بأعيانها، ثمّ ترى هذا قد فـــرع السِّماك، و ترى ذاك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفـــظ، وإذا استحقت المزيّة و الشرف استحقت ذلك في ذاتها و على انفرادها، دون أن يكون السبب فـــي ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفت بها الحال، ولكانت إمّا أن تحسن أبداً، أو لا تحسن أبداَ"[1] "ودليل آخر، وهو أنّه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفســـه، دون أن يكـــون الغرض ترتيب المعاني في النّفس، ثمّ النطق بالألفاظ على حذوها، لكان ينبغي أن لا يختلف حـــال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنّهما يحسّان بتوالي الألفاظ في النطـــق إحساســـاً واحداً، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر"[2].

فالمعاني كالماء ليس له شكل محدّد إلا في الإناء الذي يوجد فيه، و إناء المعاني هي الألفـــاظ، وإنّ السياق هو الذي يوجب اللّفظ المناسب له من حيث المعنى.

سياق الحال:

بالرغم من أنّ اللغة وسيلة فعّالة في التفاعل الاجتماعيّ، يتميّز بها الإنســـان عـــن ســـائر المخلوقات في عملية التّواصل، إلا إنّه لا يستطيع الاستغناء عن الجسد خلال التفاعل الاجتماعيّ فلا بدّ من أن تشارك أعضاء الجسم اللغة المنطوقة في نقل الرسائل المختلفة عن قصد أو عـــن غيـــر قصد. فالبصر والوجه يسهمان بدور مساند للغة أثناء التفاعل الاجتمـــاعي، كمـــا أنّ الكثيـــر مـــن الإيماءات غير اللّفظية تكتسب بالتّعلّم والمحاكاة، التي تعكس الأساليب الاجتماعية غيـــر اللّفظيـــة المستخدمة لدى مختلف الشعوب كلغة جسميّة تؤدي رسالة مفهومة لمستخدميها. "فإنّ البشر يعتمدون فعلاً على الأساليب البصريّة واللمسيّة فيما يتعلّق بجزء ممّا يعـــرف "بتواصـــلهم غيـــر اللغـــويّ" (nonverbal communicate)،...، إنّ وجود الفروق الحضاريّة التي لا يستهان بها في مجـــال التّواصل غير اللغويّ، إنّما يدلّ على أنّه يكتسب بالتّعلّم عن طريق المحاكاة إلى حدّ كبير جدّاً"[3].

لقد حظي سياق الحال باهتمام كبير حيث تعدّدت تسمياته: سياق الموقف، مقتضى الحـــال، المقام. فيقال: لكلّ مقام مقال. المقام الموضع والمجلس، فمقامات النـــاس: مجالســـهم[4]. والحـــال:

---

[1] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 41.
[2] الجرجاني، م.ن، ص 43.
[3] روي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ص 112.
[4] ابن منظور، لسان العرب، مادة (حول).

اللحظة التي يكون فيها الإنسان، والحال: كِينة الإنسان وهو ما كان عليه من خير وشرّ، يذكّر ويؤنّث، والجمع أحوال. يقال: حالُ فلان حسنة وحسن.[1]

فإنّ المعنى الدلاليّ يتحقّق من جملة العلاقة الرابطة بين المقال (المعنى الأساسيّ والسياقيّ) والمقام (الظروف المحيطة بالمقال). فإنّ المعنى المقامي "هو المعنى الذي يتكوّن من ظروف أداء المقال، تلك التي تشتمل على المحددات الدّلاليّة الحاليّة، فيما يعرف باسم المقام".[2]
وهذه المحددات الدلالية للسياق الحالي تتمثل عند اللغويين في زمن المحادثة، ومكانها، وطبيعة العلاقة، وبين المتحادثين، والقيم المشتركة بينهم، والظروف الاجتماعية وقت أداء المقال.[3]

وهذه المحددات الدلالية الحالية هي مؤثرات طبيعيّة خارجة عن نطاق المعنى الدلاليّ للألفاظ، وهي تعكس حالة المرسل أثناء تعبيره، وإن لم يظهرها في كلامه في كثير من الأحيان. اعتبر بيار غيرو هذه التداعيات الخارجة عن الدّلالة قيماً، وقسّمها إلى قيم تعبيريّة، وقيم اجتماعيّة[4].

فالإيماءات والالتواءات الصوتية والحركات الجسمية المرافقة للتعابير اللغوية هي بمثابة صورٍ حيّةٍ موحيةٍ لنوايا ورغائب وانفعالات وتداعيات المتكلم النفسيّة، فهي تؤثر في السّامع أكثر مما لو قرئت أو ردّدت على لسان الآخرين، فعلى سبيل المثال عبارة: (أنت هنا !) تعبّر عن عدة قيم تعبيريّة غير ذلك المعنى العادي وهو وجود الشخص في المكان، بل تزيد على ذلك، وكأنه أراد قائلها أن يقول له: غمرتني الدهشةُ عند رؤيتك. ويظهر ذلك من خلال التداعيات غير اللّفظية التي صاحبت اللّفظ اللّساني من انفعال، ودهشةٍ، واستغرابٍ، ونَفَسٍ مُتقطّع.

وذهب إلى هذا الرأي البروفيسور (روي. سي. هجمان): "فإننا نتوقع أن يعتمد التّفاعل الاجتماعيّ بين أفراده أساساً على تعبيرات الوجه والإيماءات واللّمس، ومن ثم على الحواس البصريّة واللمسيّة. وفي الحقيقة يمكننا أن نقول في اطمئنان إنّ ذلك هو ما كان يجب أن يعتمد عليه التّفاعل الاجتماعيّ البشري لولا وجود اللغة".[5]

كما اعتبر (بيار غيرو) القيم الاجتماعيّة تداعيات خارجة عن النّظام الألسني مثل القيم التعبيريّة التي تجمع بين ثنائية الكلام: الألفاظ المنطوقة و الإيماءات الصوتيّة المرافقة للكلام المنطوق فتساعد على فهم الدّلالة الصادرة من الكلام. فالقيم الاجتماعيّة توحي بصورة الأشخاص

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (قوم).
(2) عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلاليّة، ط1، ص 18.
(3) ينظر: محمد سالم صالح، أصول النظرية السياقيّة الحديثة عند علماء العربية " (الانترنت). وينظر: عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلاليّة، ط1، ص 18.
(4) ينظر: بيار غيرو، علم الدّلالة، ص 44- 47.
(5) روي. سي. هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشريّة، ص 111- 112.

من خلال تلك المفاهيم الاجتماعيّة المستخدمة في السياق، فتتحدّد الفئات الاجتماعيّة للأشخاص الذين ينتمون إلى حقول معرفيّة معينة، تربط بين مفاهيمها مجموعة من العلاقات المشتركة، حيث أنّه تضفي عليهم صبغة تميّزهم اجتماعيّاً عن غيرهم من فئات المجتمع الأخرى "فالكلمات توحي من جهة أخرى بصورة أولئك الذين يستخدمونها بشكل اعتيادي، كما توحي بصورة المواقف التي يتخذونها"[1]، فإنّ التداعي فيها يتمّ عبر التجاور، لا تتخذ الكلمة لونها إلا من خلال تماسها مع محيط معيّن ومجاورتها لموقف معيّن.[2]

فالسياسيّ تبرز صورته من خلال المفاهيم السياسيّة، وكذلك الاقتصادي، ومثلهم الإنسان العذريّ الذي تظهر عليه تلك التداعيات العاطفيّة المليئة بالدّلالات الغراميّة، التي تظهره في صورة الإنسان العاشق الذّاهب في عشقه، فمفاهيم حقل معين من المعارف تعطي صورة شبه حقيقيّة عن طبيعة الأشخاص المهتمين بها، ونبرتهم الصوتية، ومواقفهم الحياتيّة، فيقول بيار غيرو: "ثمّة قيم اجتماعيّة تنشأ عن مجموعة اقتصاديّة، مهنيّة وإقليميّة،...، وقيم أخرى تتعلق بطبيعة الاتصال، وبمقاصد المتكلمين ومواقفهم، وبنبرة ونوع الاتصال الذي يقيمونه".[3]

(فبيار غيرو) أكد على أهمية العلاقة الوثيقة بين القيم التعبيريّة والاجتماعيّة والقيم الدلاليّة الصادرة عن ارتباط مجموعة الكلمات في السياق اللغويّ والحالي، لا بالمعنى الأساسيّ تفهم دلالة الكلمة في السياق "فالمعنى الأساسيّ والمعنى السياقيّ لا يتراكبان، ثمّة معنى واحد في موقف معطى وهو المعنى السياقيّ، وتتعلق كلّ كلمة في سياقها بصورة مفهوميّة واحدة"[4] وهذا ما اجتمع عليه الباحثون قديماً وحديثاً، فقال جون لاينز "لا تبحث عن معنى الكلمة بل ابحث عن استعمالها".[5]

ونجد العلاّمة عبد القاهر الجرجاني في (باب التقديم والتأخير) يولي عناية كبيرة في مسألة تقديم لفظ على حساب آخر، فلابدّ أنّ مقتضى الحال هو الذي دفع المخبر إلى تقديم كلام على غيره، كتقديم المفعول به على الفاعل، فعلى سبيل المثال: "قتل الخارجيّ زيدٌ"، قال النحويّون: "إنّ معنى ذلك أن قد يكون من أغراض النّاس في فعل ما أنّ يقع بإنسان بعينه، ولا يباكون من أوقعه، كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجيّ، يخرج فيعيث ويفسد، ويكثر به الأذى، أنّهم يريدون قتله، ولا يباكون من كان القتل منه، ولا يعنيهم منه شيء، فإذا قتل، وأراد مريد الإخبار بذلك، فإنّه يقدّم ذكر الخارجيّ فيقول: "قتل الخارجيّ زيدٌ" ولا يقول: "قتل زيدٌ الخارجيّ" لأنّه يعلم

---

(1) بيار غيرو، علم الدّلالة ، ص46.
(2) ينظر: بيار غيرو، م. ن، ص 47.
(3) بيار غيرو، م.ن، ص 46.
(4) بيار غيرو، م.ن، ص 43.
(5) نور الهدى لوشن، علم الدلالة، ص 96.

أن ليس للناس في أن يعلموا أنّ القاتل له "زيد" جدوى وفائدة، فيعينهم ذكره ويهمّهم و يتصل بمسرتهم، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقّعون له ومتطلّعون إليه متى يكون، وقوع القتل بالخارجي المفسد، وأنّهم قد كفوا شرّه وتخلّصوا منه".[1]

لم يكن التقديم والتأخير عند الجرجاني بهدف العناية وحدها، بل هناك دوافع أخرى دعت إلى هذا التقديم، أثرت على السياق، فهو ينتقد من يهوّن من أمر التقديم والتأخير، فيقول:
"وقد وقع في ظنون النّاس أنّه يكفي أن يقال: "إنّه قدّم للعناية، ولأنّ ذكره أهم" من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهمّ؟ ولتخيّلهم ذلك قد صغر أمر" التقديم والتأخير "في نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه، حتّى إنّك لترى أكثرهم يرى تتبّعه، والنظر فيه ضرباً من التكلّف، ولم تر ظنّاً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه".[2]

اهتم النحاة القدماء بالنواحي المحيطة بالسياق، حيث ظهرت في مؤلفاتهم على شكل إشارات ذكيّة، ولم تبرز في صورة نظريّة متكاملة، ومن هؤلاء النحاة سيبويه، فقال في موضع الحذف: "وذلك أنّك رأيت صورة شخص، فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت: عبد الله وربيّ، كأنّك قلت ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله. أو سمعت صوتاً، فعرفت صاحب الصوت، فصار آية لك على معرفته، فقلت: زيد و ربيّ، أو مسست جسداً، أو شممت ريحاً، فقلت زيدٌ أو المسك. أو ذقت طعاماً. فقلت: العسل".[3]

كما لاقى السياق عند الأصوليّين عناية كبيرة من أجل الوقوف على المعنى لفهم النصوص الشرعيّة والأحكام الفقهيّة، ولهذا اهتموا بدراسة القرائن الحاليّة وربطها بالموقف أو المقام الذي يتطلب كلاماً يتوافق مع المقام من أجل الإيفاء بالغرض من الكلام بأساليب خطابيّة متباينة تبعاً للمواقف المقترنة بقرائن حالية تشتمل على محدّدات مقاليّة ومقاميّة لها أثر في تحديد دلالة النّص، أمثال الإمام أبو حامد الغزالي فأكّد على أهمية القرائن اللغويّة والقرائن الحاليّة والرّموز والإشارات والحركات الجسميّة للمتكلم في إفادة المعنى وزيادة دلالته على اللفظ.

يردُّ أبو حامد الغزالي – رحمه الله – على من اعترض على دور قرائن الحال في زيادة فهم المعنى، فقال: "أمّا قولهم ما ليس بلفظ فهو تابع للفظ فهو فاسد، فمن سلّم أن حركة المتكلّم وأخلاقه وعادته وأفعاله وتغير لونه، وتقطيب وجهه، وجبينه، وحركة رأسه، وتقليب عينيه تابع للفظة، بل هذه أدلّة يفيد اقتران جملة منها علوماً ضروريّة".[4]

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 77 – 78.
(2) الجرجاني، م.ن، ص 78.
(3) سيبويه، الكتاب، 2/ 130.
(4) أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ص 325.

وأكد الإمام الغزالي في أكثر من موقع على دور القرائن في حصول العلم عند الآخرين من غير حاجة إلى الإخبار باللسان، فتفيدنا هذه القرائن غير اللّفظية في معرفة دلالات أخرى، إذ ما أجمع وأكد على ما أثارته من دلالات غير لفظيّة جمعٌ من المخبرين. فيقول الإمام: "فلا يبعُد أن تنضم القرائن إلى الإخبار، فيقوم بعض القرائن مقام بعض العدد من المخبرين، ولا ينكشف هذا إلا بمعرفة معنى القرائن وكيفية دلالتها، فنقول: لا شكّ في أنّا نعرف أموراً ليست محسوسة إذ نعرف من غيرنا حبّه لإنسان، وبغضه، وخجله، وهذه أحوال في نفس المحبّ والمبغض لا يتعلّق الحس بها، قد تدلّ عليها دلالات آحادها ليست قطعيّة بل يتطرق إليها الاحتمال،...، ولكن يحصل القطع باجتماعها،...، ومثاله أنّا نعرف عشق العاشق لا بقوله، بل بأفعاله: هي أفعال المحبين من القيام بخدمته، و بذل ماله، وحضور مجالسه لمشاهدته، وملازمته...".[1]

فالعلامة الإمام الغزالي لم يخص البيان باللغة اللسانيّة في حصول المعرفة، وفهم دلالات الأشياء، بل يرى البيان في كل ما تمّت المواضعة عليه، فدلّ الإنسان على الشيء، وتبيّن المراد منه، وعليه فإنّ "بيان الشيء قد يكون بعبارات وضعت بالإصطلاح، فهي بيان في حقّ من تقدمت معرفته بوجه المواضعة، وقد يكون بالفعل والإشارة والرمز إذاً لكلّ دليل ومبين".[2]

أمّا في العصر الحديث اهتمت النظريّة السلوكيّة بزعامة بلومفيد بالمواقف الخارجيّة، واعتبرها مثيرات لها دور في إنشاء استجابات مختلفة لغويّة أو غير لغويّة.

فإنّ سياق الحال عند بلومفيد هو ماديّ، فهو يتجاهل حقائق لها شأن بالكلام، وأمّا الصيغة اللغويّة عنده هي: "الموقف الذي ينطق فيه بالمعنى، والاستجابة التي يحدثها المعنى في السامع"[3]، فإنّ الموقف الماديّ يتطلب مجموعة من العناصر، وهي:

1 ـ وجود مثيرات لها أثر في تحقّق الاستجابات.
2 ـ استجابات غير كلاميّة وكلاميّة (أحداث فعليّة، وأحداث كلاميّة).
3 ـ وجود أشخاص يستجيبون للمثيرات، فتحدث عندهم استجابات حركيّة (فعليّة) تتحكّم فيها نواحي غريزيّة كالشعور بالجوع في حال رؤية التّفاح، ومن ثمّ الاقتراب منه لتناول تفاحة إذا ما كانت في متناول اليد، أو حدوث إثارة كلاميّة ينتج عنها حدث كلاميّ إذا ما كان التّفاح في مكان بعيد، على أثر رؤيته ينتج الشخص أصواتاً من خلال الجهاز النطقيّ هذا ما ناحية الشخص المتأثر، الأمر الذي يثير أيضاً الشخص المستمع، فينتج استجابة أخرى كردّ فعل على تلك الذبذبات التي

---

(1) أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ص 159.
(2) أبو حامد الغزالي، م.ن، ص 276.
(3) بالمر، علم الدّلالة، ص 81.

وصلت إلى أذن المستمع، وهذه الاستجابة تظهر على شكل سلوك يسلكه المستمع استجابة لطلب المستجيب الأوّل.[1]

أمّا سياق الحال عند مالينوفسكي المعتمد على النطق يكون له معنى فقط في السياق الـذي يستخدم فيه، ويضرب بمثال على ذلك: إنّ كلمة "خشب تشير إلى مجداف الزورق. فـإنّ اللّغـات الحيّة يجب ألا تعامل معاملة اللّغات الميتة، تنتزع من سياق حالها، بل ينظر إليها كمـا اسـتخدمها أفراد للصيد أو الحرث أو البحث عن السمك".[2]

فضّل فيرث النظر إلى سياق الحال باعتباره جزءاً من أدوات عالم اللغة، مثله مثل الفصـائل النحويّة التي يستخدمها[3]، واعتبره تنظيماً مناسباً عندما ينطبق على أحداث اللغة، ولهـذا اقتـرح الفصائل الآتية:

أ. الملامح الوثيقة بالمشتركين: الأشخاص، الخصائص الذاتيّة المميّزة.

1 ـ الحدث الكلاميّ للمشتركين.

2 ـ الحدث غير الكلاميّ للمشتركين.

ب. الأشياء ذات الصلة بالموضوع.

ج. تأثيرات الحدث الكلامي.

يتحدّد الحدث الكلامي بين المشتركين في الكلام في مستويات تتمثل في الأصوات، والوضـع النحويّ، وتضام الكلمات في السياق مع تناسبها في المعنى والتصوّر حول الأشياء المتجسـدة فـي صورة مفاهيم (مدلولات) تحمل معاني معينة مرتبطة بما يتناسب معها من ألفاظ ترتبط بعلاقـات تميّزها عن غيرها.

فسياق الحال إذن لا يتحدّد فقط من خلال السياق اللغويّ بل لابدّ أنّ هنـاك أحـداثاً غيـر كلاميّة تؤثر في الموقف كوجود الأشخاص المتحدثين أنفسهم وما لديهم من طبـائع، ناهيـك عـن الظروف المحيطة بالمواقف التي توجه الكلام إلى اتجاه معيّن، كما تحتاج إلى إيمـاءات وملامـح تتناسب مع المواقف التي توجد فيها كالاشتياق والتعجب والاندهاش،... الخ، وما يتولّد عـن هـذه الوظائف الكلاميّة من حزن، وضحك، وسخريّة،... الخ.

---

(1) ينظر: محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 310- 311.

(2) بالمر، علم الدّلالة، ص74.

(3) ينظر: بالمر، م.ن، ص 77.

المبحث الثاني:- النظريّة السيميائيّة:

السيمياء (semiology) هي علم العلامات (مشتقة من الكلمة اليونانيّة semion علامة)[1]. وهناك من يطلق على علم العلامات مصطلح "سيميوطيقا"، منذ تبني جون لوك لـه فـي كتاباتـه (1690)[2]، وعند بيرس (pierce) (1914) هي نظريّة العلامات النظريّة العامّة للتمثيل.[3] وبرز مصطلح "سيميولوجيا" في الكتابات الفرنسيّة منذ أن أرساه فرديناند دي سوسير (1911)، إلاّ أنّ المصطلحين يستخدمان للمعنى نفسه فهما مترادفان،يعنيان علم العلامات.[4]

لم يتم تحديد مصطلح محدّد لعلم السيمياء وذلك نظراً لاختلاف المجالات الّتي تدخل فيها السيمياء، وافتراقها عن علم الألسنيّة، فهناك من اعتبر اللّغة جزءاً من السيمياء، وطرف آخر اعتبرها جزءاً من اللّغة.

1 -العالم السويسري فرديناند دي سوسير (1857- 1913) رغم أنّه يرى : "أنّ اللغة ما هـي إلا نظام سيميولوجي خاص واحد فقط ، فهي نموذجٌ ممتازٌ لكلّ فروع علم العلامات".[5]

فاللغة كما يعرفها (دي سوسير) "أحد أنساق العلامات التي تعبّر عن الأفكار، ومن ثـمّ يمكـن مقارنتها مع الكتابة، وأبجدية الصمّ والبكم، والشـعائر للرمزيّـة، وأشـكال الإتيكيـت، والرتـب العسكري،... الخ، ومع ذلك يظلّ نسق اللّغة أكثر هذه الأنساق أهمية على الإطلاق".[6]
يبني دي سوسير فرضيته في علم العلامات على غرار علم اللغة كون اللغة أكثر نسقا وعرفاً لدى الجماعات التي تستخدمها فهي عنده "نموذجاً لعلم العلامات".[7]

فإنّ العلامات غير اللغويّة عند (دي سوسير) تحمل معاني اصطلاحيّة لفعل ما، رغم أنّهـا ستبدو علامات طبيعيّة لمن يستخدمها. فما دام أنّها وسائط تعبيريّة تقوم على العرف والاصطلاح، فهي تحمل دلالات معيّنة وفق العرف، فهناك الكثير من التعبيرات الاجتماعيّة والأخلاقيّة التي اعتاد المجتمع فعلها بشكل تلقائي، وروتيني مثل "انبطاح أحد الصينيّين أمام الإمبراطـور تسـع مـرات

---

(1) جوناثان كللر، فرديناد دي سوسير - تأصيل علم لغة الحديث وعلم العلامات، ص 109.
(2) سيزا قاسم، المصطلحات مدخل إلى السيميوطقيا، ص 351.
(3) سيزا قاسم، م. ن، ص 351.
(4) سيزا قاسم، م.ن.، ص 351-352.
(5) ف. دي سوسير ، فصول في علم اللغة العام ، ترجمة أحمد نعيم الكراعين ، ص 125.
(6) جوناثان كللر، فرديناد دي سوسير - تأصيل علم لغة الحديث وعلم العلامات، ص 109.
(7) جوناثان كللر، م. ن، ص110.

بوصفه الأسلوب الأمثل للتحية"[1]، فيمكن لهذه الأفعال غير اللّفظية أن تصبح اصطلاحيّة تحمل دلالات مختلفة بذلك سيتم تجنّب الخطأ الشائع باعتبارها مجرد علامات طبيعيّة لا يستلزم الاصطلاح عليها،" ولكن حين يفترض المرء أنّ العلامات اصطلاحيّة فسوف يستنبط على نحو دقيق الأعراف التي استندت إليها، ويكتشف النسق الكامن الذي جعل من العلامات علامات. ومثلما تدفع الطبيعة العشوائيّة للعلامة – في علم اللغة – للتفكير في نسق الاختلافات الوظيفيّة يخلق العلامات اللغويّة، فسوف تقوده أيضاً في الحالات الأخرى غير اللغويّة إلى التركيز على الاختلافات الدّالة، أي الاختلافات والتقابلات التي تحمل المعنى"[2].

إنّ إرساء (دي سوسير) لعلم سمّاه "سيمياء"[3] (semiologie) (علم العلامات) وجعله علماً شاملاً لكلّ الأفعال والأنشطة الإنسانيّة بما فيها علم اللغة، "سوف تنطبق القوانين التي يكتشفها علم العلامات على علم اللغة الذي سيجد نفسه ملازماً لأحد المجالات المحددّة بدقة من الظواهر الإنسانيّة"[4]، لقد لاقى هذا العلم مؤخراً اهتماما فعّالاً من قبل الباحثين الغربيّين،لأهميته الكبيرة في هذا العصر المتطوّر في مختلف جوانب الحياة الإنسانيّة، ولاسيّما في مجال تعدّد وسائل الاتصال، وتطوّر المعلومات، وفي ظلّ هذا الانفتاح العالميّ، وأصبحت الحاجة ماسّة لفهم سلوكيات الأفراد وعادات المجتمعات، التي تعكس ثقافة معينة، ومفهوماً مصطلحاً عليه يختلف من مجتمع لآخر، فكان لابدّ من علم يشمل كلّ هذه الأمور، علمٌ له أنظمته وقوانينه التي يستند عليها، وفي ضوء توسيع سوسير لدائرة مفهوم العلامة في مختلف ميادين المعرفة الإنسانيّة، إذ "بمقدور المرء أن يعين لعلم العلامات ميداناً عريضاً للبحث لكن لو عدّ المرء أي شيء له معنى داخل أية ثقافة بمثابة علامة، وبالتالي عدّه موضوعاً للبحث السيميولوجي، فسوف ينتهي الأمر بعلم العلامات إلى احتواء معظم فروع المعارف في مجال الإنسانيات، والعلوم الاجتماعيّة، حيث يمكن فهم أي ميدان من ميادين النشاطات الإنسانيّة (سواء أكان الموسيقا، أم فن العمارة، أو أساليب الطبخ، أو آداب السلوك أو الدّعاية والإعلان، أو فن حياكة الملابس، أو الأدب) في ضوء المصطلحات السيميولوجية".[5]

---

(1) ف. دي سوسير ، فصول في علم اللغة العام، ص 125.جوناثان كللر، فردينان دي سوسير، ص 111.
(2) جوناثان كللر، فردينان دي سوسير، ص 111.
(3) بيار غيرو، السيميّاء، ص 6.
(4) جوناثان كللر، م.س، ص 109.
(5) جوناثان كللر، م.ن، ص 115.

2 - وارتأى (أمبرتو إيكو) إلى أنّ الكلمات علامات مثلها مثل الرايات وإشارات المرور والشعارات والعلامات الصناعيّة والتجاريّة والرموز والوان الشعارات.[1]

3 - وأمّا (رولان بارت) اعتبر السيمياء: "فرع من الألسنيّة، وليس العكس ،لأنّ كل نظام سيميائي تخالطه اللّغة"[2]، ويتفق مع (رولان بارت) كلّ من(بول فابر وكريستيان بايلون) : "إنّ السيمياء لا يمكن أن تعتبر طريقاً مختصراً يقود إلى الألسنيّة"[3]، فاللغة أوسع من حصرها في مجال السيمياء التي تتحدّد في التّواصل بالمؤشرات والرّموز والإشارات غير اللّسانيّة[4]، فالسيمياء تقوم على دراسة "نظم الإشارات باستثناء الألسن، وليس دراسة جميع نظم الإشارات بما فيها الألسن. فالألسنيّة والسيمياء توضعان جنباً إلى جنب وليس الواحد داخل الأخرى".[5]

وبسبب هذا الخلاف حول ميدان علم السيمياء، قام "بيار غيرو" بتطبيق علم السيمياء على بعض فروع المعارف في مجال الإنسانيات والعلوم الاجتماعيّة، محترساً من تلك الشمولية التي يراها دوسوسير وغيره لعلم العلامات والذي يشمل اللغة.

فالعلامة عند "بيار غيرو" "هي تلك الإشارة الدّالة على رغبة في إيصال معنى"[6]، وهذه العلامة تأخذ طابع الرمز إذا ما كانت هذه العلامات أكثر تحديدا واتفاقاً بين مستعمليها الذين يعترفون بالعلاقة القائمة بين الدّال والمدلول،[7] فعلى سبيل المثال، يقول بيارغيرو: "تشكلّ العناوين والمعادلات والشتائم ونبرات الصوت، والحركات والمواقف،...، الخ، كلها مجموعة مرمّزة والتي تبرز ميزتها الاصطلاحيّة حينما يحاول المرء ترجمتها من لغة إلى أخرى أو من ثقافة إلى أخرى".[8]

فالأفعال والآثار الإنسانيّة هي علامات بقدر ما ترسله من معان متعارف عليها بين الافراد في مجتمعهم كاللغة المصطلح على دلالات مفرداتها بما أنّ الكلمة المنطوقة ليس لها قيمة بمجرد نطقها صوتياً إلا من خلال المعنى الذي يضفي قيمة دلاليّة مقترنة بمجموع أصواتها المتجانسة صوتياً في آنٍ واحد، وكذلك العلامة في مختلف النشاطات الإنسانيّة، فإنّها لا توصف بالعلامة إلا من خلال ما ترسله من معنى له قيمة دلاليّة مرتبطة بذلك الشيء الدال والمتعارف عليه.

---

(1) أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ص 48.
(2) بول فابر، وكريستيان بايلون، مدخل إلى الألسنيّة، ص 15.
(3) بول فابر، م. ن، ص 17.
(4) بول فابر، م، ن، ص 15.
(5) بول فابر، م، ن، ص 24.
(6) بيار غيرو، السيمياء، ص 32.
(7) بيار غيرو، م. ن، ص 34.
(8) بيار غيرو، م. ن، ص 125.

المبحث الثالث:– النظريّة الإشاريّة– التصوريّة

اهتم الألسنيون بكلمة الإشارة (signe) كونها مدخلاً إلى الدلالة أو المعنى[1]، (فبيار غيرو) اعتبر العلامة إشارة دالة لإيصال معنى، كما أنّ دي سوسير اعتبرها عنصر التنظيم اللغويّ، فالعلامة عند (دي سوسير) مكوّنة من دال (signifiant) هو الإدراك النفسانيّ للكلمة الصوتية، ومدلول (signifie) الفكرة المجردة.[2]

فالصورة السمعيّة (الدّال) ناتجة عن حقيقة نفسيّة، وليست نتيجة تلك الأصوات الماديّة البحتة، فهي مجرد ضوضاء لا تثير في ذهن المستمع المفهوم (المدلول) يَعتبر دي سوسير "الأثر النفسي" هو الذي ترك الصوت فينا، من خلال ما تنقله حواسنا للصوت لذلك فإنّ الصورة السمعيّة هي صورة حسيّة.[3]

"الصورة الصوتية ليست الصوت المادي، إنّها شيءٌ فيزيائي خالص، ولكن الطابع النفسي للصوت هو الانطباع الذي يحدثه على مشاعرنا. إنّ الصورة الصوتية حسيّة وإذا حصل وسميّتها مادية فهي لا تتعدى ذلك المعنى".[4]

وإنّ العلامة عند دي سوسير تقوم على أساس وحدة ثنائية المبنى تماماً كوجهين لعملة واحدة، هما الدال والمدلول، فالدلالة ناتجة عن التداعي النفسيّ بين الصّورة السمعيّة (الصورة اللّفظية غير المختلطة بالصوت) والمفهوم أي المعنى المجرد المدوّن في الذهن، فاستبعد دي سوسير الشيء المادي الموجود في الواقع، فيقول: "إنّ العلامة اللغوية لا توحد الشيء والاسم و لكن توحد الفكرة والصورة الصوتيّة"[5]، فإنّ استبعاد الشيء الماديّ المحسوس في الواقع بقي محلّ جدل في علم اللغة والعلامات بين العلماء، قد اقتفى بعضهم نهج دي سوسير أمثال ستيفن أولمان وأمبرتو إكو[6]، في أنّ أهمية قيمة السيميوطيقية تكمن في العلاقة القائمة بين الدّال والمدلول دون التجاوز إلى العلاقة بين الدّال والمدلول والشيء الذي تشير إليه العلامة.[7]

فنجد أنّ اللغة (la- langue) نسق من العلاقات المتماسكة في بناء منسجم في أصواتها السمعيّة ومعانيها الدلاليّة، فالكلمة تتميّز عن غيرها من الكلمات المتجانسة صوتاً و دلالة من خلال مجموعة العلاقات التي تربطها بقائمة تلك الكلمات التي هي بمثابة مفاهيم (مدلولات) متعلقة بذلك المرجع المتصوّر في الذّهن حول الشّيء المشار إليه في الواقع (لدّال).

---

(1) ينظر، ميشال زكريا، الألسنيّة، ص 179.
(2) ينظر، ميشال زكريا، م. ن، ص 179 – 180.
(3) جوناثان كللر، فردينان دي سوسير- دروس في علم اللغة، ص 152.
(4) ف. دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، ترجمة أحمد نعيم الكراعين، ص122.
(5) ف. دي سوسير، م.ن، ص 121 – 122.
(6) سيزا قاسم، حول المفاهيم والأبعاد، مدخل إلى السيميوطقيا، ص 22.
(7) سيزا قاسم، م. ن ، ص 23.

فعلى سبيل المثال: فكلمة "نَهْر" تميّزت ضوضائيّاً من خلال مجموعة الضوضاء التي صدرت بشكل عشوائيّ اتجاه الدّوال من نفس جنسها (بحر، بحيرة، جدول، بركة)، هكذا تقترن الصورة السمعيّة، الشكل الصوتي لكلمة نهر (الدّال) بالصورة الذهنيّة (المدلول) فإنّ العلامة عند دي سوسير "تجمع بين مفهوم وصورة سمعيّة لا بين شيء واسمه"[1]. فحسب رؤية دي سوسير بأنّه ليس هناك علاقة طبيعيّة بين الشيء واسمه، فالعلاقة بين الدّال والمدلول هي علاقة عشوائيّة وليست جوهريّة: "ليس هناك من بمقدوره تفنيد مبدأ الطبيعة العشوائيّة للعلامة"[2] فعلى أساس مبدأ العشوائيّة للعلامة "لا يوجد ارتباط حتمي أو طبيعيّ بين" "الدّال" و"المدلول".[3]

أي أنّ الاسم الذي يطلق على الشيء المسمى به،غير متأصل به بشكل تكوينيّ بحيث يكون الاسم جزءاً لا ينفصل عن الذي يحمل اسمه، فكلمة (كلب) لم يأت إطلاقها على حيوان معيّن بالذات بحيث يكون اختيار اسم (كلب) عن قصد لحيوان بعينه، بل جاءت التسمية بطريقة عشوائيّة.

يؤكد جوناثان كللر رأي سوسير بقوله: "...، فقد بدأنا بملاحظة عدم وجود صلة طبيعيّة بين الدّال والمدلول، وبعد ذلك شرعنا في تفسير الطبيعة العشوائيّة للعلامة اللغويّة. وقد رأينا كيف أنّ الدّال والمدلول كليهما تقسيمات أو تفريعات عشوائيّة لمتصل (طيف صوتي من ناحية، ومجال تصوريّ من الناحية الأخرى، وقد دفعنا ذلك إلى استنتاج ضرورة تحديد الدّال والمدلول كليهما في حدود العلاقات القائمة بينهما والدّوال والمدلولات الأخرى".[4]

وإنّ استبعاد الحقيقة الماديّة المحسوسة للدّال قوبلت بالرفض لإغفال دي سوسير الشيء المشار إليه في عالم الواقع والذي يعتبر جزءاً هامّاً للعلامة من قبل الفريق الآخر من المهتمين بنظرية العلامات.

فالعلامة تتكون من دال يشير إلى شيء مادي موجود في الواقع غير الأصوات المسموعة، تدركه الحواس، والذي ينتج عنه شيء غير محسوس وهو المدلول، وبناء على هذا فسّرت الباحثة "سيزا قاسم" العلامة على أنّها وحدة ذات أربعة أوجه لا وحدة ذات وجهين فقط كما اعتبرها دي سوسير، وقد وضحتها على النحو الآتي:[5]

---

(1) بيار غيرو، السيمياء، ص 25.
(2) جوناثان كللر، فرديناند دي سوسير- دروس في علم اللغة، ص 32.
(3) المكان نفسه.
(4) جوناثان كللر، م. ن، ص 42.
(5) سيزا قاسم، حول المفاهيم والأبعاد، مدخل إلى السيميوطيقيا، ص21.

(1)	(2)	(3)	(4)
شجرة	شجرة	شجرة	شجرة
الشيء المادي	الصورة الذهنيّة	الصورة السمعيّة	الذبذبات الصوتية
الواقعي	المدلول	الدال	الواقعيّة

العلامة عند دي سوسير

استبعد دي سوسير خلال تصوّره للعلامة العنصرين 1 و4، الشيء الذي دفع كلّ من أوجدين وريتشاردز رفض نظريّة العلامات كونها أغفلت الأشياء (المشار إليها) في الواقع في كتابهما (معنى المعنى) فيقولان: "إنّ العلامات عندما أغفلت تماما الأشياء التي تحلّ العلامات محلّها، قطعت أواصرها بمناهج الإثبات العلمي""[1]، فوضعا نظريّة أقرب إلى العقلانيّة تربط بين الرموز والأشياء التي ترمز لها من خلال العلاقة القائمة بين الأفكار والكلمات (الرموز) والأفكار والأشياء الموجودة في الواقع، كما هو واضح من مثلثهما الذي اشتهر في الدراسات اللغويّة والسيميائيّة:

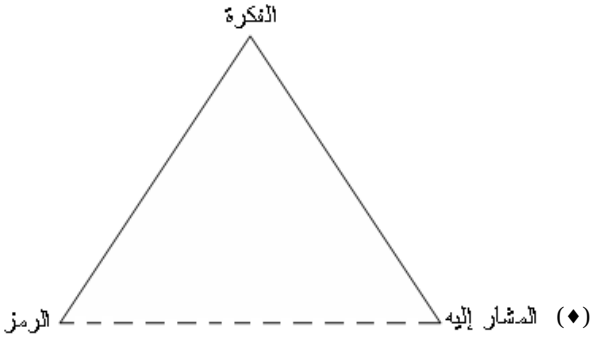

فالفكرة تقابل المدلول عند دي سوسير، والرمز (العلامة) يقابل الدّال عند دي سوسير، والمشار غير موجود عند دي سوسير، فالمثلث يوضح لنا تلك المعادلات التي تربط بين أطرافه في كيفية تكوّن الكلام ونقل المعارف بتبادل العلاقة بين الفكرة والرمز بحيث تستدعي الفكرة الرمز، أو الرمز يستدعي الفكرة، والفكرة تتولد من فعل المشار إليه حيث تربط كل منهما علاقة سببيّة بحيث يستدعي أحدهما الآخر، تماماً كما يستدعي المدلول الدّال عند دي سوسير، إلا هناك اختلاف بين النظريتين، فإن سوسير لا يعطي اهتماماً للتأثيرات الخارجيّة في عملية الربط بين الدّال والمدلول، بينما عند أوجدين وريتشاردز قد يكون هناك اعتبارات أخرى تساهم في هذه العلاقة بين عناصر المثلث، كالاعتبارات السلوكيّة ردود الأفعال، والاعتبارات الاجتماعيّة في استدعاء الرمز الفكرة، ووجود الشيء المشار إليه في الواقع يستدعي الفكرة بشكل مباشر، وفي حال غيابه، فتنوب عنه ثمّة

[1] ينظر، سيزا قاسم، حول المفاهيم والأبعاد، مدخل إلى السيميوطيقيا، ص 23.

(♦) C.K. Ogden & I.A. Richards, the meaning of meaning, P.6.

علامات أو مواقف متعلقة بالمشار إليه، فنكون العلاقة غير مباشرة، فالمعادلة الآتية توضح العلاقة بين الفكرة والرمز، والفكرة والمشار إلية على أنّها علاقة معلّلة:

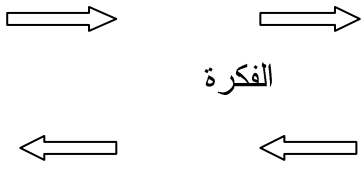

أمّا العلاقة بين الرمز والمشار إليه التي وصل بينهما بخط متقطع، هي علاقة غير معللة وغير مباشرة تتم من خلال العلاقة بين طرفي المثلث، فالرموز لا تحلّ محلّ الأشياء إلا من خلال ترجمتها إلى أفكار، وقد لا تتطابق الأشياء مع الأفكار، وقد تغيّر من حقيقتها وهذا ما دعا كلّ من أوجدين وريتشاردز إلى التنبه إليه[1]. ولم تنال نظرية ريتشاردو وأوغدين القبول، بل أخذت عليها الكثير من المآخذ لأنّ هناك كلمات مبهمة غير واضحة المعالم يختلف الناس في طبيعة تصوّرهم لها كالخرافات، والأشياء الغيبية كالملائكة، والأشياء الباطنة كالحبّ والكره.[2]

انصب الاهتمام في العصر الحديث على التكوين المعرفيّ الأساسيّ لدى العقل الإنسانيّ وقدرته على التطوّر استجابة للمتغيرات الكثيرة وهذا يعني "أن المعلومات المحملة عن طريق اللغة، مصوغة بالطريقة التي ينظم بها الذّهن التجربة، وذلك لأنّ تخصيص العلاقات الدّلاليّة يضطرنا إلى استعمال معرفة (تصوريّة) غير لغويّة، ولأنّ الآليات الضروريّة لمقاربة البنيّة التصوريّة غير اللغويّة، تزودنا بتحليل يكاد يكون مباشراً للعلاقات الدّلاليّة".[3]

فهذا يعني أنّ البنية المعرفيّة لا بدّ أن تكون مصاحبة لما يمرّ به الإنسان من تجارب حسيّة وحركيّة ساعدت على استيعاب العقل للمفاهيم ودلالتها وتميزها بإدراك البنية التصوريّة للأشياء الحسيّة، الأمر الذي أوجد فرضية "البنية التصوريّة" فيقول (جاكندوف 1983): "إنّ هناك مستوى واحدا للتمثيل الذهني، هو البنية التصوريّة، تنسجم فيه المعلومات اللغويّة والحسيّة والحركيّة"[4].

فتصوّر الأشياء يقوم على عدّة أبعاد في تكوّنه[5]:

1 ـ إدراكيّة قائمة على تصورنا للأشياء عن طريق جهازنا الحسيّ.
2 ـ أبعاد حركيّة قائمة على طبيعة التّفاعلات الحركيّة مع الأشياء.
3 ـ أبعاد و وظيفية قائمة على تصورنا لوظائف الأشياء.
4 ـ أبعاد غرضيّة قائمة على الاستعمالات التي تصلح لها الأشياء بالنسبة إلينا في أوضاع معينة.

---

(1) ينظر: سيزا قاسم، حول بعض المفاهيم والأبعاد، مدخل إلى السيميوطيقيا، ص 24 -25.
(2) ينظر: نظريات مناهج دراسة المعنى (الانترنت).
(3) محمد غاليم، التوليد الدّلالي في البلاغة و المعجم، ص 92.
(4) محمد غاليم، م.ن، ص 92.
(5) محمد غاليم، م. ن، 94 – 95.

الفصل الثالث

القسم الأول:- بيئة الغزل العذريّ - الإباحيّ في الحجاز

القسم الثاني:- صور التّواصل غير اللّفظي في شعر الغزل العذريّ _الإباحيّ في البيئة الحجازيّة:

-المبحث الأول:- لغة لسان الحال (الهيئة الجسمية).

-المبحث الثاني: لغة لسان حال فئة المترصدين من الرقباء والوشاة والكاشحين

-المبحث الثالث:- لغة تقاسيم الوجه.

-المبحث الرابع:- لغة العيون.

-المبحث الخامس:- لغة الدّموع.

-المبحث السادس:- لغة الشّم.

-المبحث السابع:- لغة الابتسامة.

-المبحث الثامن:- لغة الشّيب.

-المبحث التاسع:- لغة اللّمس(الإشارة بالأنامل واليد).

-المبحث العاشر:- لغة الحركة والانتقال (المشي).

-المبحث الحادي عشر:- الدّلالات غير اللّفظية التي تُنْقَل عبر النُّصْبَة.

القسم الأول:- بيئة الغزل العذريّ – الإباحيّ في الحجاز

الإنسان العربيّ تفاعل مع عناصر المكان الذي وجد فيه، فأثرت في سلوكياته وطبعته بطابعها، فعرف أسرارها، التي استكشفها خلال حلّه وترحاله في الصحراء الواسعة، فأثارت تقلّبات الطبيعة في نفسه انفعالات مختلفة من فرح، وهدوء، وحبّ، وحزن، وقلق، وخوف، غضب. كما أنّها أصبحت علامات يسترشد بها على الكثير من الظواهر الطبيعيّة المتغيرة في ذلك المكان الذي يعيش فيه. فهذه العلامات ربطها بدلالات تصوّرها عقله، وأضفت عليها أحاسيسه معاني أخرى نابعة من تلك الإحساسات الخفية التي كان يستشعرها ذلك الإنسان العربيّ، فجعل من بعض عناصره وسائل متحدثة معه، فأخذ يتواصل معها في وحدته، يكلمها فتردّ عليه بتعبيراتها غير اللّفظية، فصنع من تلك الإيحاءات غير اللّفظية مخزوناً شعريّاً وهبته له تلك العلامات الصامتة.

نعم، إنسان ذلك المكان خاطبته عناصره الطبيعيّة بصمتها، فأجابها صوته وإحساسه المرهف، فكلّ صامت هو ناطق من حيث الدّلالة، فكان ذلك الصمت المعبر عن نفسه من غير نطق، مصدر إلهام لمعان تجسّدت في نفس الإنسان العربيّ، جسّدها له عقله برموز كلاميّة، خرجت من فمه مصبوبة في قوالب شعريّة، نُظمت كلماتها من دلالات تلك الطبيعة التي استشعرتها حواسه الجسميّة من شمّ، وإبصار، وذوق، ولمس، وهمس، وحسّ. ومن أمثلة هذه الأشعار التي نلمس فيها أثر عناصر البيئة على الإنسان العربيّ، قول الشاعر امرؤ القيس:

(الطويل)

إذا قامتا تضوّع المسك منهما نسيم الصَّبا جاءت بريّا القَرَنفُل[1]

جمع الشاعر في هذا البيت بين رائحتين عطريتين "نشر المسك وريّا القرنفل" فلكل واحدة منهما مبعثها العطري، الذي يبعث على السرور والانتعاش، ويهدي شامّها إلى طيب الحبيب الذي أصبح في حد ذاته علامة دالة عليه. كما وجد الشاعر (عمرو بن كلثوم) في الألوان التي استنتجها من الحياة التي عايشها علامات لها دلالات معنويّة، فمثلاً اللّون الأحمر جعله علامة لنزول الدّماء في المعركة، وهو في نظره دلالة على شدّة القتال، وشجاعة الفرسان الذين يروون أرض المعركة بدمائهم، فقال:

(الوافر)

بأنّا نوردُ الرّاياتِ بيضاً ونَصْدرُهُنّ حُمْراً قد روينا[2]

---

[1] شرح ديوان امرؤ القيس، تحقيق: حجر عاصي، ص 12.

[2] الشيخ أحمد الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص 125.

واستنطق الشاعر الجاهليّ الآثار المتبقيّة من الدّيار، فجعل منها علامة تذكره بتلك الأيام الماضية، فأصبحت تستدعي ذلك الماضي كلما عرج عليها ذلك الشاعر الإنسان، كما فعل عنترة بن شداد:

(الكامل)

أعيـــاك رســـــم الــدّار لــم يتكلّـــم حتّـــى تكلّـــمَ كالأصـــمّ الأعجـــــم

ولقـــد حبســـتُ بهـــا طـــويلاً نـــاقتي أشـــكو إلـــى سُـــفعِ رواكـــد جُثّـــمِ[1]

فآثار الأطلال اكتست بها معظم القصائد الجاهليّة، فرغم أنّها عجماء لا تنطق إلاّ إنّها ناطقة من حيث الدّلالة. أبدع شاعر الصحراء العربيّة في التعبير عمّا يدور حوله من إيمـــاءات صـــوتيّة حيث أنّها – في كثير من الأحيان – تشاركه مشاعره التي يرى فيها نفسه، فيكون هذا الصوت الذي سمعه من مصدره الطبيعيّ بمثابة علامة معبرة، يستدلّ بها على ما يحسّ به من هموم ونحو ذلـــك من مشاعر اتجاه من فقدهم في وحدته، تماماً كالطائر الذي ينوح بصوت يؤلم من يسمعه، فيقـــول عنترة:

(الطويل)

ينـــوح علـــى إلـــفٍ لـــه وإذا شـــكا شـــكا بنحيـــب لا بنطـــق لســـانِ[2]

واستطاعت حاسة الشاعر التقاط الصور الحسيّة التي أملتها عليه الطبيعة، فبنى لها تصوّراً في مخيلته يرتبط بصفات تلك الأشياء المادية من كائنات حيّة وغيرها، والتي استكشفها من خـــلال مراقبته لها، فمُيّز كلّ كائن حيّ عن غيره بخاصيّة معينة أصبحت ملازمة له دون غيره.

فمثلاً: وجد في بعضها ميزة الحسن والألفة كالظّباء، فكانت نعم الونيس في فرقته فاستمتع بصـــره بمنظرها، وجمالها، فكانت علامة دالة على معان جماليّة تذكّره بمن ألفهم وارتـــاح إلـــيهم قلبـــه، فأصبحت مبعثاً لتلك المعاني الجميلة التي رآها في محبوبته، فنظم شاعر الغزل في العصر الجاهليّ منها معانيه، لمّاعاوده ذلك الإحساس الجميل بالحبّ الذي حُرِم منه، حينما أمعن بصـــره بجمالهـــا الطبيعيّ.

والشاعر الجاهليّ سجل أيضاً في شعره معاني أخرى ممّا أملته عليه طبيعة البيئـــة التـــي يعيش فيها، تعبّر عن إحساسه بالقلق، والخوف، والبؤس، والحرمان، فوجد في بعـــض الكائنـــات المحيطة به مبعثاً لهذه المعاني كونها تحمل من المزايا ما يثير في نفسه مثل هذا الشعور من شـــؤم وإزعاج وعدم ارتياح، كلّما لمحها بصره، وصورها له عقله، فأصبحت علامات دالّة على معـــانٍ سلبيّة، فمثلاً الصورة التي رآها في الغراب تختلف عن تلك الصورة اللطيفة التي رآها في الظّباء،

---

[1] شرح ديوان عنترة، تحقيق عباس إبراهيم، ص 144.

[2] شرح ديوان عنترة، تحقيق حجر عاصي، ص 130.

فسواد لونه، وشناعة صوته جعلته من أقبح الموجودات، فاعتبرها المهتمون بدراسة صفات الكائنات الحيّة علامات دالة على لؤمه، وعجزه، وقبحه: "الغراب من لئام الطير، وليس من كرامها،...، ويتقمّم كما يتقمّم بهائم الطير وضعافها، وليس ببهيمة لمكان أكله الجيف، وليس بسبع لعجزه عن الصيد".[1]

فالظباء أوانس الشاعر في وحدته تذكره بحبيبته التي ملأت عليه حياته، بينما الغراب نذير شؤم، فجثومه في الأماكن الخربة لا يبعث على الخير، فيقول الشاعر عنترة:

(الكامل)

بالأمس كان بك الظِّباءُ أوانسا واليوم في عَراصاتك الغربانُ[2]

فرؤية عنترة للغراب بمنظره الدائم السواد، وسماعه نعيبه الحزين، يمثل له في حدّ ذاته علامة ناطقة بذاتها، فمشهد الغراب الذي ليس معه ونيس، يوحي بالحزن، والكآبة، فهي صورة تعكس الحالة التي عليها الشاعر، وما يحسّه في وحدته من حرمان وفراق لأحبته.

وكأنّه صار هناك اتفاق بين شعراء العرب القدماء على دلالات هذه العلامات التي اقتبسوها من بيئتهم، فهي أشبه باللغة الملفوظة المصطلح عليها، يسهل فهم المقصد منها خلال استخدامهم لها في أشعارهم، تؤدي نفس الرسالة أثناء تعبيرهم عن مواقف متشابهة يتعرضون إليها.

فلهذا بنى الخطاب القرآني إعجازه البياني غير اللّفظي لتقريب المشهد المادي للبشرية من خلال فهمهم لمدلولات الدوال التي أدركوها في واقعهم الحسي. فقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

فأنزل الله تعالى على نبيه الكريم محمد عليه السلام القرآن بأسلوب خطابيّ يتلاءم مع طبيعة تفكيرهم، فتدرّج معهم لاستيعاب الدين الجديد، ونقلهم من عبادة الكفر إلى عبادة النّور، وإقناعهم بوجوده من خلال التفكّر فيما بثّه في الطبيعة من علامات ودلائل ترشدهم إلى عبادته، فهي ظاهرة للعين، تدركها مختلف الحواس، فدعاهم إلى التبصر فيها، للاستدلال من خلالها على عظمته، فكانت حجّة قويّة على إنكار الكافرين لربانيّة خالقهم. فمعالم الأرض من جبال، وأودية،

---

[1] الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، 313/2 – 314.

[2] ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: بدر الدين حاضريّ، محمد حمامي، ص 296.

وسهول، وبحار، وما عليها من كائنات حيّة هي دلالات معبرة بصمتها إذا ما أعمل الإنسان عقله بالتفكّر فيها، فيقول الله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [1].

فهي أدلة واقعية تؤكد عظمة خالقها عمّا يعجز الإنسان على خلق مثلها، كخلق الإنسان في أحسن تقويم، فدعاه القرآن الكريم إلى التأمل في نفسه، وما أكرمه الله تعالى به من نعمة السمع، والبصر والقلب والعقل التي هي آيات تخبر عن عظمة الخالق، فحمّله المسؤولية عن السلوكيات الصادرة عن أعضاء جسده، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ .[2]

فآيات هذا الكتاب الرّبانيّ أُنزِلتْ في أطهر بقعة من بقاع الحجاز لتبصير أبنائه بدلائل الله تعالى في هذه البيئة الممتدّة الواسعة بصحرائها العربيّة. فقال أبو المنذر هشام بن أبي النّضر الكلبي، حدثني أبو مسكين محمد بن جعفر ابن الوليد عن أبيه عن سعيد بن المسيب قال: "إنّ الله تعالى لما خلق الأرض مادت فضربها بهذا الجبل، يعني السراة، وهو أعظم جبال العرب وأذكرها، فإنّه أقبل من ثغرة اليمن حتّى بلغ أطراف بوادي الشام فسمّته العرب حجازاً لأنّه حجز بين الغور وهو هابط، وبين نجد وهو ظاهر، ومبدؤه من اليمن حتّى بلغ أطراف بوادي الشام فقطعته حتّى بلغ ناحية نخله،...".[3]

فالحياة في بيئة الحجاز لم تتلوّن بنفس اللّون من أساليب العيش ومظاهره الحياتية، وهذا الاختلاف في أنماط العيش يعود إلى اختلاف طبيعة المكان الذي يسكنه الإنسان الحجازيّ، الذي أفضى بخصائصه المكانيّة عليه، فكأنّ الإنسان والمكان متلازمان في تأثير كلّ منها على الآخر. فالمكان بعناصره الطبيعيّة من خصب وغنى في موارده الاقتصادية حيث السكون والاستقرار، أو جذب ومحل، حيث التنقل والترحال يتوقف بناء وتعمير الإنسان له أو تدميره وتخريبه.

إنّ الطبيعة الجغرافية للحجاز أوجدت هذين اللّونين من العيش، فامتزجت الحياة في الحجاز بلون البداوة في أماكن منه، وبلون الحضارة في أماكن أخرى. حيث يضمّ الحجاز أهم مدينتين: مكة

---

[1] سورة الغاشية، آية 17- 20.

[2] سورة الإسراء، آية 36.

[3] ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (حجاز)، مج2، ص 219- 220.

والمدينة، اختلفت الحياة فيهما عن سائر القرى والمدن المحيطة بهما، كونهما مدينتين مقدستين حظيتا باهتمام كبير من قبل العرب في الجاهلية، وعهد الإسلام.

فمكّة المكرمة أعطيت مكانة متميّزة، فكان يؤمّها العرب من كل مكان، فساعد هذا على نموها التجاري، فانشغل أهلها بالتجارة عن أمور الحرب، والغارات، فأمّنوا طريق سير قوافلهم إلى بلاد الشام في الصيف، واليمن في الشتاء، بعقد العهود والمواثيق مع القبائل التي على حدودها، وعملوا على إغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج لتأمين قوافلهم من النّهب والسّلب.

ولم تكن المدينة في منأى هي الأخرى عن هذا الغنى، وشظف العيش، فسكنتها بعض القبائل القحطانية المتحضرة كالأوس والخزرج، "الذين حملوا مع قوافلهم وهجراتهم: دينهم، وحضارتهم إلى الشماليين".[1]

ولقد زاد ثراء أبناء الصحابة في العصر الراشدي في عهد عمر بن الخطاب[2]، فلم تحرم المدينتان (مكة والمدينة) من العطاء والفيء في عهد الخلفاء الأمويّين رغم انتقال العاصمة إلى بلاد الشام، بل أغدقوا عليهم أموالاً كثيرة لأسباب سياسية، لكي يصرفوا أنظارهم عن الخلافة، واعتلاء مناصب عالية في الدّولة قد تساعد على تقويتهم، وبالتالي الانقلاب على الحكم الأموي الذي انتزعوه من الخلافة الرّاشدة بدهائهم، وجعلوه وراثيّاً في أبنائهم حتّى نهاية حكمهم من (41 – 135)هـ.

فعاش أهل المدينتين ترفاً كبيراً في مأكلهم ومسكنهم وملبسهم، "واتّخذوا القصور وبنوها بالآجر والجصّ واتخاذ أبوابها من السّاج".[3]

نشأ في أحضان هذا الثراء الكثير من الشعراء أمثال: الشاعر عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، فوالده من أحد سادة قريش وأغنيائها، فقبيلة بني مخزوم من أثرياء قريش، فورث عن والده مالاً كثيراً، فكان من أعظم رجالها ثراء، وأبدع شعرائها غزلاً، فشعر الغزل الذي شاع في المدينتين وما حولهما ،حيث الثّراء والأمن، والدعة في العيش ناسبته، وناهيك عن شيوع الغناء في المدينتين فكان شعر الغزل أكثر الأغراض الشعرية ملائمة لغناء أصحاب الأصوات الجميلة من المغنين والمغنيات أمثال: ابن سُريج، ومعبد، وجميلة، وغيرهم. فكان عمر بن أبي ربيعة يكافئ المغنين على حسن غنائهم في أشعاره على نحو ما فعله مع ابن سريج الذي كان بصحبته أوقات الحج، بينما هو يغنيه، إذ طلع عليهما يزيد بن عبد الملك، وأعجب بصوت ابن سريج، فخلع حلّته وخاتمه فدفعهما إليه، وابن سريج أعطاهما لعمر بن أبي ربيعة، فأعطاه عمر

---

(1) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ط 8، ص 29.

(2) ينظر، البلاذري، فتوح البلدان، ص435 – 440.

(3) البلاذري، م. ن، ص27. المسعودي، مروج الذهب، مج4، ص 253.

ثلاثمائة دينار.[1] والمغنية جميلة التي غنّته إحدى مقطوعاته،أعطاها عشرة آلاف درهم لشدّة إعجابه بصوتها[2]، والشاعر العرجي كان من شعراء الغزل الأغنياء، فكان يلبس الحُلّتين بخمسمائة دينار.[3]

وهذا الرّفاه انعكس على حياة النّساء في المدينتين، حيث تلوّنت حياتهنّ بذوق هذه الحياة المرفهة، فتفاعلن معها، وأخذنْ يُزاحمن الرّجال في الغنى، والبروز في مختلف جوانب الحياة ولاسيّما مجالس الشعر، أمثال سكينة بنت الحسين بن علي كانت تجتمع بالشعراء، وكانوا يحكّمون سكينة بينهم لما يعرفونه من رجاحة عقلها وتبصّرها بالشعر.[4]

فجميع هذه الأجواء في المدينتين من غنى، وبروز المرأة المترفة، المزينة بأحلى الزينة، وكثرة الجواري، ودور الغناء، والتّغزل بامرأة العصر دون وجود قيود تمنع من هذا، ووصف ما هي عليه من جمال دون حرج، ساعدت على تطوير غرض الغزل، وتجديد أوزانه، فانشغل شاعر هاتين المدينتين بعشق هذه المرأة التي أخذت تملأ عليه فراغه بمفاتنها الأنثويّة، وحسّها المرهف، أمثال عمر بن أبي ربيعة الذي عبّر بلسانه عن ذوق العصر، فانبعثت منه عاطفة وجدانيّة حرّكت فيه قدرة على نظم الشعر، والتشبّب بامرأة العصر، وأتى بفنٍّ، لم يقدر عليه الشعراء الذين سبقوه، وهذا باعتراف أشهر الشعراء، فقال الفرزدق: "هذا الذي كانت الشعراء تطلبه، فأخطأته، وبكت الدّيار".[5] وقال جرير: "هذا الذي كنّا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشيّ".[6]

استطاع عمر بن أبي ربيعة تصوير نفسيّة المرأة وجسمها، وحركاتها الأنثويّة تصويراً حقيقيّاً، فجعلها مشاركة له في الحبّ، فأقحمها في شعره على أنّها هي التي تطلبه للعشق، فصوّر نفسه بالمعشوق لا العاشق، ومثل هذا الأسلوب الجديد في الغزل لم يكن لولا تهيئة الأجواء له، والتصريح بهذه الإباحيّة، فالحريّة والاحترام التي حظيت بها المرأة في عهد الإسلام ممّا جعل لها مكانة وكياناً تقدّر من قبل الرجل، حيث تغيّرت نظرته إليها عمّا كانت عليه في الجاهلية، فَحِرْص الإسلام على معاملة المرأة معاملة حسنة، ومنحها الحبّ الإنساني، انزوتْ من قلوبهم، وعقولهم تلك القسوة التي تعرضت لها قبل الإسلام، فلامست الروح الإسلاميّة قلوبهم، فعاملوها على أنّها روح وجسد في آن واحد، فنضج هذا الإحساس العاطفي اتجاه المرأة في العصر الأمويّ، إلى جانب ذلك الرّخاء والرّفاه الذي كان يعيشه أفراد العصر الأمويّ في البيئة الحجازيّة ممّا رقّق وجدانهم، وكما

---

(1) ينظر:الأصفهاني، الأغاني، مج 1، ص 240.
(2) ينظر: الأصفهاني، م.ن، مج 8، ص 209.
(3) ينظر: الأصفهاني، م.ن، مج 1، ص 372.
(4) ينظر: الأصفهاني، م.ن، مج 17، ص 109 – 111.
(5) الأصفهاني، م.ن، مج 1، ص 84.
(6) الأصفهاني، م.ن، مج 1، ص 112.

ساعد حضور المغنيات من الجواري والإيماء على تحريك عواطف الإنسان الشاعريّ اتجاه المرأة، فكشف الكثير منهم عن مشاعره من غير خوف أو قيد .

فشاع الغزل في البيئة الحجازيّة بشكل واسع حتّى نظمه أهل التّقوى والإيمان، وإن لم يكن بدرجة إباحيّة وتصريح عمر بن أبي ربيعة، فكان غزلاً عفيفاً يعبّر عن مشاعر محبّة صادقة من غير التعرض لجسد المحبوبة بشكل مغر، ومفحش، أمثال عروة بن أذينة، فهو شاعر غزل مقدّم، من شعراء أهل المدينة، وهو معدود من الفقهاء والمحدّثين، روى عنه مالك بن أنس، وعبيد الله ابن عمر العدوي.[1]

وظهرت فئة أخرى من شعراء الغزل في البيئة الحجازيّة، فئة لم تصنعها تلك الحضارة المترفة، التي حظيت بهما مكة والمدينة، عاشت حياة بدويّة تحكمها العادات القبليّة، التي صنعت الإنسان البطل الفارس الذي يقع على عاتقه حماية القبيلة والذود عنها والعمل لمصلحتها، وإغاثة الملهوف، وصيانة شرف القبيلة المتمثلة في المرأة بكل ما يملكون، فكلّ هذا يحتاج من الأفراد العمل، وعدم التخاذل عنه، وإلا وجد المرء نفسه منبوذاً إذا ما تخلّى عن واجباته اتجاه الجماعة، وغلّب العقل على العاطفة، فلهذا شَعَرَ بعض أفراد القبيلة بالحرمان العاطفيّ، وأحسّوا بحاجتهم الشديدة إلى رفيق دربهم الذي يشبع غريزتهم العاطفيّة، فانشغلوا في طلب ذلك الحبّ عندما وجدوا أنّ حلمهم العاطفي أخذ ينمو مع من اختارها القلب فلم يستطيعوا التخلّي عنه.

ولكن وقفت العادات القبليّة في وجه هذا الحبّ لأنّها ترى في الحبّ العاطفيّ ضعفاً لمروءة الإنسان، وكرامته، وانشغالاً عن تأدية الواجبات التي تقع على عاتق الفرد، و ناهيك على أنّه مسّ بسمعة ابنة القبيلة التي تعلّق بها هذا العاشق. وحفاظاً على شرف العائلة تصدّى الأهل لهذا النوع من العلاقة، فرفضوا ارتباط ابنتهم بالرجل الذي شبّب وصرّح بحبّه لابنتهم، فعمل أهل المحبوبة جاهدين بتزويجها من غيره، وقد يكون هذا بدافع تأمين حياة ابنتهم مع رجل ذي مكانة وغنى يتناسب مع ما تنشده العائلة لابنتهم، متجاهلة هذا الحبّ الذي هو خروج عن ذلك العُرف. فهي لا تؤمن بمثل هذا النوع من الحبّ، بل تعتبره مضيعة لكرامة الإنسان وفروسيته، الأمر الذي أدخل العاشق في صدمة،و صراع داخلي، لمّا تجاهلت تلك العواطف، وربطت محبوبته بمن تراه أنسب من هذا العاشق.

ومن هنا كانت ردّة فعله حيال هذا الحرمان من محبوبته الرفض وعدم الاستسلام بالأمر الذي فرض عليه، فتبدأ معركته بتحديّ تلك العادات من خلال الاستمرار بحبّ من اختارها قلبه،

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، مج 18، ص 240.

وإن كانت مرتبطة بغيره، فرفض جميع المحاولات والإغراءات لإجباره على نسيانها، فأصبح هذا المتيّم العاشق الملدوغ هائماً على وجهه غير مكترث لحياته، ومتخلياً عن واجباته اتجاه قبيلته في سبيل حبّه الذي هو مقدّس من وجهة نظره، فهو يرى في هذا الحبّ قيمة مثاليّة، فجعل المحبوبة في مكانة رفيعة من نفسه، فهي كلّ شيء في حياته، فإن خسره فهو فقد أعزّ ما يملكه في كيانه، فلا قيمة له من دونه، فالحياة لا تسوى في نظره شيئا، فلم يعد يهمّه تلك الأملاك الماديّة التي تملكها أسرته، فهي ليست أعزّ، وأغلى عليه من محبوبته، لهذا كان من السهل عليه التخلي عن أملاكه بعد أن عجز عن امتلاك معشوقته التي سيطرت على وجدانه، والتي قد شاطرته هذا الحبّ بالمثل، فكأنّه تولّدت لديه عقدة الشعور بالذنب بأن يحرص على التملّك الماديّ والتمتع، على حين فقد ملكيته على من اختارها قلبه.

ومثل هؤلاء العشّاق كُثر فقد تداولت كتب الأدب قصتهم مع العشق، فقيس بن الملوّح ترك أهله وقبيلته، فهام على وجهه في البراري، عندما حرم من حبيبته، فقام أهلها بتزويجها من رجل غنيّ، لأنهم غير مؤمنين بذلك الحبّ العاطفي الذي اختارته ابنتهم أيضاً، فوجد (قيس) أنّ حبّه تحطم على باب الماديّة، وطلب الغنى، فلم يكن هناك قيمة للمشاعر الإنسانيّة أمام الأشياء الماديّة، وأدرك قيس هذا الأمر، فرفض كلّ ما يستهين بالجانب الإنسانيّ، وحرمان المرء من شريك حياته، والوقوف في وجه ذلك الحبّ من أجل مكاسب ماديّة، فعبّر عن هذه المعاناة بأدّق الصوّر المفصحة بالذي حلّ بمحبوبته حينما أجبرت على الارتباط بغيره، ومن وجهة نظره فهي عوملت في هذه الحالة معاملة البُدن التي يتم ربطها بالحبل من أجل بيعها بربح كبير، فلهذا لم يعرف قيس وأمثاله الذين عانوا من نفس التجربة أيّ أهميّة للأشياء الماديّة، فلم يحرصوا على تملكها فقال:

(الطويل)

ألا إنّ ليلى كالمنيحة أصبحت تقطع إلا من ثقيف، حبالها

فقد حبسوها مَحْبَسَ البُدنِ وابتغى بها الرِّبْحَ أقوامٌ تساحت مالها[1]

وهذا (قيس بن ذريح) يرفض أن يقبض ثمن ناقته التي اشتراها منه زوج (لبنى) الجديد، عندما علم أنّ التي أحبّها وأُجبر على طلاقها من قبل والده، صارت في بيت الرجل الذي اشترى منه الناقه، فخرج من عند زوج لبنى باهتاً، فكيف له أن يتملّك مالاً، وهو الذي حرم من أغلى شيء ملكه في حياته ألا وهو زوجته (لبنى)، "فإن امتلاك المرأة، المستحيل بالنسبة إلى العذريّ، هو رمز الملكيّة من الدّرجة الأولى، فمن تخلّى عنها، فمن الممكن التخلّي عن ثمن ناقته".[2]

---

[1] ينظر حاشية ديوان قيس بن الملوح، ص 227.

[2] طاهر لبيب، سوسيولوجيّة الغزل العربيّ، 192.

لقد كرّس هذا العاشق نفسه ومشاعره لشخص المحبوبة، فهو مستعدّ أن يهلك نفسه لأجل هذا الحبّ السامي، فوصف الأديب (طه حسين) هذا النوع من الحبّ بالأفلاطوني، "الذي هو مرآة صادقة لطموح هذه البادية نحو المثل الأعلى في الحبّ من جهة، ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تغمر أهل مكّة والمدينة من جهة أخرى".[1]

ارتأى الباحث يوسف اليوسف إلى أنّ تحريم الحبّ كان في المجتمعات البدائيّة، وتعاظم هذا التحريم في المجتمعات الحضريّة لأنّها رأت في الحبّ "عطالة عن التميّيز، وقعوداً عن النشاط والفاعليّة"[2]. حاول يوسف اليوسف في هذه الدراسة التي تدور حول هذا (الحبّ المقموع) أن يبيّن فيها أسباب ظهور مجموعة العذريّين و قمع حبّهم، فيقول:

"كان اصطدام الإنسان بضرورة النشاط الخارجي (بما فيه العمل)، هذه الضرورة التي لا مفرّ منها على الإطلاق حتّى الآن، هي ما دفعت به إلى قمع الحبّ. وبكل توكيد، كان هذا القمع يتعاظم مع الانتقال من مرحلة إنتاجية دُنيا إلى مرحلة إنتاجية عُليا، وبالتالي مع تعقّد أشكال التنظيم الاجتماعيّ والسياسي.. وفضلا عن ذلك، فإنّ المجتمع غير المحرّر، مجتمع العمل الذي يفرز مؤسسات القهر التّاريخيّة، لا يكتفي بفرض نطاق من التحريم على العشق، بل هو يخلق ويؤصل في نفوس أفراده عجزاً صميماً عن ممارسة الحبّ. وتؤدي المؤسسات القهريّة طوال التاريخ دوراً خطيراً وظيفته تنزيل هذا العجز في النفس منزلة طبيعة جديدة للإنسان".[3]

فهذا النوع من التحريم الذي فرض على الأفراد لصالح العمل والإنتاج الجماعيّ، كانت نتيجته توليد الكبت، وانحباس الأنفاس المحبّة، وبالتالي الشعور بالقهر، الأمر الذي دفع هؤلاء الأفراد إلى التصعيد والإعلان عن حبّهم، كونه حبّاً إنسانيّاً، فلا يمكن الاستمرار في كبته، لا بدّ من التصريح به، فما من وسيلة أمام المحبين للتعبير عن هذه المشاعر المكبوتة والكشف عنها، ومن ثمّ تحدّي تلك العقبات المفروضة على المحبين– سوى التغزل بالمحبوبة بواسطة اللغة الشاعريّة التي تفصح عن مدى حبّ هذا العاشق للمرأة التي اختارها، سواء أكانت في المجتمع البدويّ أو الحضريّ.

لم تكن الظاهرة الشعريّة المتمثلة في الغزل العذريّ والإباحي ظاهرة في بداية العصر الإسلامي عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين حيث انشغل الشباب في الفتوحات، وخدمة الدين الجديد إرساءً للدولة الإسلاميّة، فاستثمر شعر الشباب المسلم في هذه الفترة للذود عن الدعوة الإسلاميّة، والردّ على أقوال الكفار، ودبّ الحماسة في النّفوس لإعلاء كلمة الله تعالى عالياً، والإقبال على الجهاد، فانشغلوا عن شعر الغزل في هذه الفترة باستثناء قلّة من الشباب الذين ينتمون

---

[1] طه حسين، حديث الأربعاء، 1/ 187 – 190.
[2] يوسف اليوسف، الغزل العذري، ص6.
[3] يوسف اليوسف، م.ن ، ص 20.

إلى قبائل جديدة العهد بالإسلام، كقبيلة عذرة[1]، التي كانت تسكن وادي القرى[2]، وممّن عُرف بعشقه العذريّ في هذه الحقبة التاريخيّة عروة بن حزام المتوفى سنة 30هـ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. أحبّ عروة ابنة عمّه عفراء، وكان والدها يواعده بها، ولم تكن لوالدتها رغبة فيه لأنّه كان فقيراً، فعزم الذهاب إلى اليمن قاصداً ابن عمّه ليساعده في صداق عفراء، فأخبر عمّه بعزمه، فواعداه بأن لا يفعلا شيئاً بشأن عفراء حتّى يرجع، فعاد بصداق عفراء، فخان عمّه وامرأته العهد معه، فزوجا عفراء، فاشتدّ تعلّق عروة بحبّ عفراء، فأصابه الهزال، والمرض فلم يتبق منه إلا الجلد فمات، ولحقت به عفراء بعد ثلاثة أيام من بكائها، وتمرّغها عليه.[3]

أمّا في العصر التالي لعصر الخلافة الرّاشدة، آلت سدّة الحكم لبنى أميّة، فجعلوا الحكم فيهم وراثيّاً، بعد أن كان الحكم في عهد الخلفاء الراشدين يقوم على مبدأ الشورى دون تمييز بين عربي وأعجميّ، وأمّا في العصر الأموي تغيّرت الموازين، فكان همّ الخلفاء الأمويّين في الدرجة الأولى تدعيم مركزهم السياسي، وتثبيت حكمهم في دمشق بمساندة بعض القبائل التي دعموها بالمال لدعم إمبراطوريتهم التي وسعوها بجهود الأفراد والجماعات التي حرصت على خدمة الإسلام الذي لمسوا فيه العدل، وإحقاق الحقّ، وخلّصهم من تلك الأيام الطاحنة أيام الثأر، والنزعات القبائليّة، فاستشعر الأفراد العدالة والحريّة التي تحفظ للإنسان كرامته، مع الحفاظ على الروح الجماعيّة، والمصلحة العامة، ولكن سرعان ما عادت تلك العصبيات القبائليّة في العصر الأموي، و بسيطرة فئة معينة من بني أميّة على إدارة جميع شؤون الدولة، وتقليد أبنائهم أعلى المناصب، أدّى ذلك إلى استشعار بعض الأفراد بالغربة، والابتعاد عن تلك الروح الإسلاميّة التي رسخها الإسلام، وأنّ ذلك الواجب الذي يقع على كلّ فرد خدمة للمصلحة العامّة صار ينصب في مصلحة بني أميّة، الذين نقلوا مركز العاصمة الإسلاميّة من المدينة إلى دمشق، وحرموا الهاشميين من الحكم خوفاً من أن يعيدوا الحكم لآل البيت، والتفاف الناس حولهم، فحالوا دون حصول ذلك، وتصدّوا لهم بالقوّة، إذا ما ثارت منهم هبّة من وقت لآخر، وفي الوقت نفسه لم يمنعوا المال عن المدينتين مكة والمدينة، بل حظيت المدينتان بالدعم المالي وذلك لأغراض سياسيّة، في محاولة لإشغالهم عن المطالبة بالحكم للهاشميين، فينشغل أهلها وشبابها بذلك الترف والغنى، وبناء القصور، وتملك البيوت لتصبح شغلهم الشاغل عن الأمور السياسيّة، فشعر عدد من المترفين بفراغ سياسيّ نتيجة ذلك الحرمان من تولي المناصب السياسيّة، الشيء الذي دفع العديد من شباب المدينتين إشغال نفسه بنظم الشعر، فوجدوا

---

(1) قبيلة عذرة: قبيلة من العرب القحطانيّة، وينسب إليهم الشعراء العذر يون، المعرفون بشدّة العشق، والعفة فيه. ينظر: الأعلام، 13/5.

(2) واد القرى: واد بين الشام والمدينة، وفيه قرى كثيرة، قال أبو عبيدة الله السكوني: وادي القرى والحجر، والجناب منازل قضاعة ثمّ جهينة، وعذرة وبليّ. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج4، ص 1376.

(3) ينظر: ديوان عروة بن حزام، ص 12 – 13.

في الغزل أكثر أغراض الشعر ملاءمة لهذه الأجواء في ظلّ الفراغ المنصبي والرفاه، وظهور المرأة المترفة التي حظيت بمكانة رفيعة، واحترام وتقدير من قبل مجتمعها في العهد الإسلاميّ، وساعد على ذلك أيضاً كثرت انتشار الجواري والإيماء، والمغنين والمغنيات من الأصوات الجميلة، الأمر الذي دفع شعراء الغزل إلى نظم المقاطع الشعريّة الخفيفة الأوزان لغنائها، وعلى رأسهم عمر ابن أبي ربيعة، فكان من المعجبين بامرأة عصره، فأخذ يتغزل بها، وملاحقتها في أي مكان إذا ما سنحت له الفرصة، مستمتعاً بجمالها الأنثوي، في ظلّ هذه المدنيّة التي عاشتها كلّ من المدينة ومكة، فخطا خطوة عمر بن أبي ربيعة كل من العرجي، والأحوص، فاستطاع عمر بن أبي ربيعة تأسيس الغزل الحجازي الذي أبدع في نقل الصورة التي كانت عليها امرأة بيئته التي شاركته هذه المدنيّة من غنى ورفاه، فبادلته بعضهنّ ذلك العشق، فصرّح عمر بن أبي ربيعة في أشعاره أنّه المعشوق لا العاشق لملاحقة ولشدّة إعجاب عشيقاته به.

أمّا أبناء الحجاز من القرى والبوادي فلم تتشرّب نفوسهم تلك الحياة الحضريّة، فلم يشغلوا أنفسهم بذلك التّرف من تملك للجواري والقصور، فضّلوا حياة البداوة، والنظام القبائلي على النظام الحضريّ، فكرّس أبناء كلّ قبيلة أنفسهم في الدّفاع عن شرف القبيلة، وكرامتها، والتّصدي لأي عدوان يداهمها، فغلب العقل على الناحيّة العاطفيّة لأنّ الطبيعة المكانيّة فرضت عليهم الاحتكام إلى العقل في جميع أمورهم، إيماناً منهم بهدف مشترك قائم على المصلحة العامّة، فشعر بعض الأفراد بذلك الحرمان العاطفيّ، فما إن حانت الفرصة لهم في التعبير عن عواطفهم للتي اختارها القلب، وتمسكوا بهذا الحبّ العاطفيّ، فلم يلقوا العون من قبل مجتمعهم، بل وجدوا الصّد لهذا الحبّ، فزادت معاناتهم أيضاً في عهد الإمبراطورية الأمويّة التي لم تستجب لنداء هؤلاء العشّاق، بل ساعدت على شكمه، وخصوصاً أنّ ظهور مثل هؤلاء العشاق الذين يركضون وراء عواطفهم لا ينصبّ في خدمة الدّولة الأمويّة وتوسّعها التي هي بمثابة هويّة خاصة للأمويّين، على عكس ما استشعره الأفراد في العصر الراشديّ من راحة واطمئنان فتفانوا في خدمة الإسلام والدفاع عنه، فهذا الدين الجديد لم يتجاهل العواطف الإنسانيّة، والرغبات الداخليّة، فقد وجدوا الحلول لكلّ مشكلة تواجههم، فتقبل الشباب المسلم النصح والإرشاد بكل صدر رحب.

فكانت هذه العواطف الإنسانيّة المحبة موجهة للحبّ الأخوي، والحبّ النبيل، مؤمنة بقدر الله تعالى، متقربة إليّه، فالحبّ الإيمانيّ وتلك القيم التي زرعها الإسلام في النفوس ملأت حياة الشباب المسلم سواء أكانوا رجالاً أو نساءً في هذه الفترة، فلم يشعروا بذلك القهر والكبت والرفض المستمر من ارتباط كلّ حبيب بحبيبته، كما حدث لجماعة العذريّين في العصر اللاحق بمعارضة الأهل من ارتباط ابنتهم بمن أحبّها لأنّه ليس غنياً، فهذا النوع من الحرمان دفع هؤلاء العذريّون إلى رفض

قرار الأهل بمنع هذا الحبّ من أن يتحقّق، فظلّوا يتواصلون رغم الحواجز المانعة للتواصل، فلما رأى الأهل هذا التحدي استعانوا بالدولة الأموية التي وقفت بجانب الأهل ضدّ هذا الحبّ العاطفيّ.

بيّن الباحث يوسف اليوسف الاختلاف بين العصر الراشديّ و العصر الأمويّ الذي كثر فيه العشاق العذريّون: "لم يكن من الممكن أن تظهر العذريّة في المرحلة الجمهوريّة (العصر الراشدي) لأنّ المثال الذي كان يتبناه الأفراد جميعاً يحقق ائتلافاً سياسيّاً بين الفرد والدولة، ولأنّ تنازل الفرد عن حاجاته الطبيعيّة يعود بالفائدة النفسيّة على جميع أعضاء المجتمع، أمّا وقد انتقلت الإمبراطورية إلى الملكيّة الاستبداديّة، وألغي مفهوم الشورى الدّيمقراطيّة، وأصبحت الدّولة آلة بيد طبقة واحدة سائدة، فقد أصبح التنازل عن الحقوق الأزليّة للروح أمراً لا يخدم إلا طبقة واحد ة"[1]. فناضلت هذه الفئة من العشاق العذريين من أجل هذا الحبّ بكل ما أتيح لها من الوسائل التي تعبر عن ذلك الحبّ لترفع صوتها عالياً في وجه العذاب الذي لحق بها، فرفضت كلّ ملذات الحياة، وكلّ ما يعرض عليها من النساء في محاولة لنسيان المحبوبة، فرأوؤا في الغزل بالمحبوبة متنفسا لعواطفهم المكبوتة، فكان أقوى وسيلة لمواصلة المحبوبة، وأصدقها تعبيراً عن ذلك الحبّ النبيل، وحاولت هذه الفئة تحميل من وقف في وجه هذا الحبّ المسؤوليّة عمّا حلّ بهم، وإشعارهم بالذنب عمّا حلّ بالشاعر العاشق، فأطلق الباحثون على هذه الفئة "المجموعة العذريّة"[2] لأنّهم لم يتخلوا عن حبّهم، بل أفنوا أنفسهم من أجله.

فإطلاق مصطلح "المجموعة العذريّة" جاء بناء على وجود عوامل مشتركة بين أفرادها التمسها الكثير من الباحثين، على نحو:

1. انتماء هذه المجموعة العذريّة لقبائل سكنت في الحجاز، لم تنخرط في الحياة الحضريّة التي كان يعيشها أبناء المدينتين مكّة والمدينة، فهذه القبائل اعتادت على حياة الباديّة كقبيلة "عذرة" رغم سكنها في وادي القرى، إلا أنّها لم تستغل ثرواته كما ذهب إلى ذلك طاهر لبيب "كان هؤلاء يعيشون بالدّرجة الأولى، قبل الإسلام من الضريبة أو الإتاوة التي كان يدفعها لهم يهود الواحات"[3] وهذا الدّخل الذي فرض على قبيلة عذرة وغيرها من القبائل التي تسكن وادي القرى كان له دور في تكوين شخصيّة الفرد المنتمي لهذه القبائل، فلم تخلق إنساناً مصطبغاً بالطابع الريفيّ الصرف الذي يمتلك الأراضي، والاهتمام بها، ولم تغرس فيه الطابع البدوي الخالص. فرأى طاهر لبيب أنّ هذه الهامشيّة الاقتصاديّة أثّرت في نفس الإنسان العذريّ، ونلاحظ هذا التأثير في عدم حرصه على اقتناء الأملاك الماديّة بسبب عدم ارتباطه بمحبوبته الّتي أصبحت ملكاً لغيره لأنه يملك الكثير من المال، فباستطاعته الارتباط بأي امرأة وإن كانت

---

[1] يوسف اليوسف، الغزل العذري، ص 30.
[2] طاهر لبيب، سوسيولوجيّة الغزل العربي، ص161.
[3] طاهر لبيب، م.ن، ص 186.

تعشق غيره، لهذا رأى الإنسان العذريّ أنّ الحبّ لا يمكن شراؤه بالمال، فمحبوبته إنسانة لها مشاعرها وكرامتها، فهي أرفع من أن تسوى بالأشياء الماديّة، فكان من السهل عليه أن يتخلى عن أملاكه فهي لا تساوي أي شيء مادام أنّه خسر حبيبة قلبه.[1]

2. تَعرُّض هذه "المجموعة العذريّة" لنفس المعاناة التي تقوم على وجود رجل وامرأة تربط بينهما علاقة حبّ قويّة، فتقف العراقيل ضدّ تحقق الارتباط بينهما، لأنّه خروج عن العادات والتقاليد المتعارف عليها في مسألة الزواج، فكان من عادة الأهل حرمان الحبيب من الارتباط بابنتهم إذا تشبّث بها، معلنا عن حبّه لها، فيحجب الأهل ابنتهم عنه، ويزوجونها من غيره، فمن هنا تبدأ معركة العاشق العاطفيّة، ويظلّ متمسكاً بعشقه فلا يستطيع نسيان حبيبته، فيحاول بين الفينة والأخرى الاتصال بها، فيزداد ألماً وحسرة، فتشعر الحبيبة بألم عشيقها، ويصيبها من الوجد العاطفي ما أصابه، فيموت أحدهما قهراً، فلا يستطيع الطرف الآخر البقاء يعاني لوحده هذا الظلم ومكابدة الحزن، لفقد حبيبه، فيلحق به. قيل لأعرابي من العذريّين: "ما بال قلوبكم كأنّها طير تتماث[2]، كما يتماث الملح في الماء! أما تجلّدون؟ فقال: إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها"[3]، وقيل أيضاً لأعرابي: "ممن أنت؟ فقال: من قوم إذا أحبّوا ماتوا. فقالت جارية سمعته: عذريّ وربّ الكعبة"![4].

3. ومن العوامل المشتركة الإطار اللغوي الموروث عن العذريّين الذي نقل إلينا نفس التجربة الإنسانيّة التي عانى منها هؤلاء الشعراء العذريّين، فاللغة العذريّة هي نتاج العاطفة الوجدانيّة الصادقة، فهي لغة تعكس الواقع الذي كان يعيشه العذريّون. فاستطاع العذريّون أن يفجّروا من طاقاتهم العاطفيّة، والوجدانية لغة قريبة من إحساسهم العاطفي، فهي لغة ملاصقة لهذه الأحاسيس المرهفة المعذّبة، فجاءت كلماتها صادقة فيها لمسة العذاب والقهر لاقت التعاطف والمواساة من قِبل مَنْ شعر بعظيم هذه المأساة، فكوّن هؤلاء العذريّون معجماُ لغويّاً عكس البيئة الثقافيّة التي اختاروها بحكم التجربة التي يمرون بها، وحظيت اللغة العذريّة باهتمام الباحثين المحدثين، فالباحث يوسف اليوسف ذهب إلى "أنّ اللّغة العذريّة تسير على محورين متمايزين ولكنّهما متكاملان بحيث يسهم كلّ منهما في إضفاء المعنى الإنساني على الآخر: محور يقدّم

---

(1) ينظر: طاهر لبيب، سوسيولوجيّة الغزل العربي، ص 188- 189.
(2) ابن منظور، لسان العرب، تنماث: تذوب. مادة: موث.
(3) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، مج 2، 4/ 128.
(4) المكان نفسه.

المرأة بوصفها إمكانية سعادة ووعداً بالفرح الأعظم، وآخر يقدّم حظر المرأة من حيث هو وجع لا يمكن احتماله".[1]

وفي موضع آخر يحدّد الباحث يوسف اليوسف محورين للغة الغزل العذريّ والتي تتشكّل في معجم القهر، ومعجم الفرح،...، هذا يعني أنّ اللغة العذريّة لغتان أساسيتان: اللّغة المتوترة واللّغة الانفراجيّة".[2]

فظهور المجموعة العذريّة في نفس العصر وبالتالي انعكاس أثرها على الفن العربيّ، سلط الأضواء على ضرورة إيجاد علاقة رابطة بين مركزيّة الإنتاج الشعريّ لهؤلاء العذريين ومركزيّة الحركة التاريخيّة، إذ لابدّ أن تكون هناك علاقة وثيقة بين هذه العذريّة وعصرها، فهذه العلاقة تؤكد أنّ العصر الأموي كان مركزاً لظهور هذا الانشطار والتوتر الذي ذاقه العذريّون، فيعتبر الدكتور يوسف اليوسف الفترة الأمويّة، "برهة اشتداد ضغط التاريخ على الأصالة الطبيعة السابقة على التجربة الاجتماعيّة، أي على الغرائز ولا سيّما غريزة العشق".[3]
فلقد أنتج هذا العصر تراثاً شعريّاً يروي لنا قصصاً غراميّة تكاد تقترب من الحبّ الأسطوريّ في إفناء النفس من أجله، فاستطاع شعراء الغزل العذريّ نقلها بصورة فنيّة تظهر مدى المعاناة التي مروا بها، وصدق مشاعر البطل اتجاه المحبوبة، وعدم تخليه عنها، وهؤلاء الأبطال:

أ. **(جميل بثينة – 82) هـ[4]:** هو جميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث بن ظبيان، وقيل ابن معمر بن حنّ ابن ظبيان بن قيس بن جزء بن ربيعة بن حرام بن ضنّة بن عبد بن كثير بن عذرة بن سعد – وهو هذيم، ترعرع جميل في "وادي القرى" فعاش حياة البداوة، التقى ببثينة أوّل مرة عندما أورد إبله وادياً يقال له "بغيض"، فاضطجع، وأرسل إبله مصعدة، وأهل بثينة بذنب الوادي، فأقبلت بثينة برفقة جارتها، لتردا الماء، فمرتا على فصال لجميل برُوك، فضربتهنّ وأدمتهنّ، فسبّها جميل، فردّت على سبابه، فاستملح سبابها، علقت بقلبه، فهواها، فشبب بها، قائلاً:

(الطويل)

وأول ما قاد المودة بيننا ... بوادي "بغيض" يا بثين سباب
وقلنا لها قولاً، فجاءت بمثله ... لكلّ كلام، يا بثين، جواب

---

[1] يوسف اليوسف، الغزل العذري، ص140.
[2] ينظر، يوسف اليوسف، م.ن، ص 141.
[3] يوسف اليوسف، الغزل العذري، ص12
[4] الزركلي، الأعلام، 2/ 134.

فوصل هذا التشبيب مسامع ذويها، فرفضوا تزويجها له، حفاظاً على سمعتها، فزوجت من رجل آخر، حتى لا تصبح حديث الناس بأنّها زوجت للشخص الذي شبّب بها، وهكذا حيل بين جميل ومحبوبته بحكم هذه العادات والتقاليد، فورّث هذا المحبين داء لا علاج منه، سوى ملاحقة المحبوبة أينما كانت متمسكاً بقدسيّة هذا الحبّ الذي من أجله ينصهر القلب قهراً، وتزفر الأنفاس ملتهبة بنار الحبّ السامي، وتعرف معشوقته حجم هذا الإخلاص في الحبّ، فتخفي ذلك الشعور في قلبها، وتظلّ المحبوبة في صراع داخلي يمزق كبدها، نتيجة البؤس والحرمان من حبيبها، فتبقى متحسرة على ما حل بحبيبها، فكان يجمعهما هذا الحبّ الروحاني بين فينة وأخرى، فمات جميل شهيد الحبّ، فلمّا علمت بثينة بموت جميل صاحت، وصكّت وجهها، فاجتمعت نساء الحيّ معها حتّى صعقت، فمكثت مغشياً عليها ساعة، ثم قامت وقالت:

(الطويل)

وإنّ سُلوّي عن جميل لساعةٌ من الدّهر ما حانتْ، ولا حان حينُها
سواءٌ علينا، يا جميلُ بن معمر إذا مُتّ، بأساءُ الحياةِ ولينُها[1]

ب. **(مجنون ليلى – 68هـ):**[2] هو قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة من بني عامر من أهل نجد، لقب بالمجنون لشدّة هيامه في حب (ليلى بنت سعد بن مهدي بن ربيعة)، عشق قيس ليلى التي تكنى أمّ مالك، وهما حينئذ صبيان، فعلق كلّ واحد منهما بالآخر لمّا كانا يرعيان مواشي أهلهما، فلم يزالا كذلك حتّى كبرا، فحجبت عنه، ويدل على ذلك قوله:

(الطويل)

تعلّقت ليلى وهي ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

لمّا أنشد فيها الأشعار، علم أهلها بغرامه، رفضوا تزويجه ابنتهم، وأجبروها على الزواج من رجل من ثقيف اسمه ورد بن محمد، حينها جُنّ قيس وذهب عقله، وراح يهيم على وجه منشداً الأشعار في ليلى، فأصابه الذهول إلى درجة الإغماء، وكانت ليلى تحبّ قيساً، وهي الأخرى كان يغشى عليها، لاحق قيس ليلى في كلّ مكان يسمع أنّها فيه، فشكا أهلها قيساً للسلطان مروان بن الحكم بسبب تمسكه بحبّ ليلى، وبقي قيس في هيامه وتفرده، لا يؤنسه سوى تلك الظباء التي تذكره بحبيبته، وليلى في بكائها وشدّة وجدها على ما حلّ بقيس، فيزفر قيس أنفاسه، فيقع صريع العشق، فيدرك المجتمع ما أوقعه من ظلم على هذا العاشق، وكم كان قاس معه، ويقف متفرجاً، فتنتهي هذه

---

[1] ينظر: الأصفهاني، الأغاني، مج 8، ص 90 – 155.
[2] الزركلي، الأعلام، 6/ 60.

التراجيدية، بمأساة كبيرة، وهي موت البطل، فيجتمع الناس حول شهيد الحبّ مسجى بين أيديهم، دون حراك، وأخيراً تخفق أفئدتهم، وتهتز عواطفهم، وتتحرك مشاعرهم لهذا البطل بعد فوات الأوان "فلم تبق فتاة من بني جعدة ولا بني الحريش إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه، واجتمع فتيان الحي يبكون عليه أحرّ بكاء، وينشجون عليه أشدّ نشيج، وحضرهم حيّ ليلى معزّين، وأبوها معهم، فكان أشدّ القوم جزعاً وبكاء عليه، وجعل يقول: ما علمنا أنّ الأمر يبلغ كلّ هذا. ولكني كنت امرأ عربياً، يخاف من العار وقبح الأحدوثة ما يخافه مثلي، فزوجتها وخرجت عن يدي، لو علمت أن أمره يجري على هذا ما أخرجتها عن يده، ولا احتملت ما كان عليّ في ذلك. فما رئي يوم كان أكثر باكية وباكياً على ميّت من يومئذ".[1]

ج. **(قيس لبنى – 68 هـ):**[2] قيس بن ذريح بن سنة بن حذاقة بن طريف بن عتوارة ابن عامر بن ليث بن بكر عبد مناة، وهو علي بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار. وذكر أبو شراعة القيسي أنّه قيس بن ذريح بن الحباب. عشق لبنى بنت حباب الكعبيّة، وهي أيضاً عشقته، فجعل ينطق الشعر فيها، حتّى شاع وروي، فأخبر والده بالأمر، وسأله أن يطلبها له، فأبى، لأنّ الوالد كان راغباً بأن يزوجه من إحدى بنات عمّه، وكونه غنياً فلا يريد أن يصير ماله خارج أسرته، فشكا أمره لوالدته ولم يجد عند أمّه ما يحبّ، فأتى الحسين بن علي بن أبي طالب وابن أبي عتيق، فقال: أنا أكفيك، ولرفيع مقام الحسين وافق الطرفين أهل قيس وأهل لبنى على تزويج قيس للبنى، وكان قيس بارّاً بأمّه، فقالت في نفسها لقد أشغلت هذه المرأة ابني عن بري ولم تر للكلام في ذلك موضعاً حتّى مرض مرضاً شديداً. فلما برأ من علّته، قالت أمّه لأبيه: لقد خشيت أن يموت قيساً وما يترك خلفاً، وقد حرم الولد من هذه المرأة، ويصير ماله إلى الكلالة، وطالبته أن يزوجه بغيرها، وألحت عليه في ذلك، فحدّث الوالد ولده، فرفض قيس الزواج على لبنى، وأصرّ على ذلك أمام عناد الأهل في هذا الأمر، ولكنّ الوالد أجبره على ترك لبنى، فوضع ابنه في موقف محرج، وذلك أنّ ذريح حلف لا يكُنُّه سقف بيت أبداً حتّى يطلّق لبنى، فكان يخرج فيقف في حرّ الشمس، ويجيء قيس فيقف إلى جانبه فيظلّه بردائه ويصلي هو بحرّ الشمس حتّى يفيء الفيء فينصرف عنه، ويدخل إلى لبنى يعانقها، ويبكيان، محذرة إيّاه من إطاعة والده، الأمر الذي سيؤدي بهما إلى التهلكة، فهجره أبواه، فما كان من الولد إلا الرضوخ لأمر الوالد، فيطلقها، فتذهب لبنى إلى أهلها بعد انقضاء عدّتها، فحيل بينها وبينه، فجنّ جنونه والبكاء لا يكاد يغادره على فراقه للبنى، وبات في أسوء حالة، فلا يستطيع نسيانها، فكره وقلبه معها، وبالرغم من عقد قيس قرانه على امرأة أخرى أقام معها

---

[1] ينظر: الأصفهاني، الأغاني، مج 2، ص 5- 74.
[2] الزركلي، الأعلام، 6/ 55.

أياماً وهو لا يكلمها، وارتباط لبنى برجل آخر، ظلّ الحبّ الحبل المتين الذي يجمع بين هـذين العاشقين، فتجمعهما الظروف مرة أخرى، في الحياة والممات، فاعتلّ لمّا اشتدّ شـوقه للحبيبـة الأولى والأخيرة في حياته، فقال:

(الخفيف)

عيـد قـيس مـن حـبّ لبنـى، ولبنـى داء قـيس، والحـبّ صـعب شـديد

وعندما ماتت لبنى، خرج قيس ومعه جماعة من أهله، فوقف على قبرها، وأكبّ يبكي حتّى أغمي عليه، فرفعه أهله إلى منزله وهو لا يعقل، فلم يزل عليلاً لا يفيق ولا يجيب مكلّماً ثلاثاً حتى مات فدفن إلى جنبها.[1]

د. وأمّا **كُثيّرعزة (45- 105هـ)** فصغر اسمه لأنّه كان حقيراً شديد القصر[2]. اشتهر كثيّر بحبّه لامرأة تسمّى "عزّة" ومع ذلك لم يكن من ضمن شعراء الغزل العذريّ في "ديوان العذريّين"[3]. والأديب طه حسين لم يعتبره صادقاً في حبّه[4] لهذا لم يكن ممن اشتهروا بالحبّ العذريّ. أمّـا زكي مبارك فيعزي عدم نيل الشاعر كثيّر عزّة نصيبه من العشق إلى تلك الآفات الخلْقيّة التي اتّصف بها كثيّر، والتي تتمثل في قصارة قامته، وعوره. وهذان عيبان فظيعان في البيئات التي تغلب عليها الطابع البدويّ، لذلك كان يشعر كثيّر في قرارة نفسه بأنّه غير أهل للمصاولات في الميادين الغراميّة مقارنة ببعض فتيان عصره الذين نالوا حظّهم من العشق لمّا أصاب أفئدتهم، وأصاب مَن خصّت بهذا الحبّ، وذلك لما تمتعوا به من نضارة الأجسام وصـباحة الوجـوه، وعذوبة الأرواح.[5]

وشعراء الغزل من صنع البادية الحجازيّة الذين أحبّوا وتغزلوا بمن أحبّوها هم كثر، ولكنّهم لم يتطرفوا في حبّهم مثل ما فعل العذريّون، لم يقتصر شعرهم على غرض الغـزل بـل تعـددت أغراضهم الشعرية أمثال: عبد الله ابن الدُّمينة (... – 130هـ)[6] والدُّمينة أمّه، أحبّ امرأة مـن قومه يقال لها أميمة، فتزوجها، وقتل وهي عنده.[7]

وهكذا اعتبر الباحثون المحدثون الغزل الحجازي لونين غزل عذريّ مـن نتـاج الباديّـة، وغزل إباحي من نتاج الحياة المدنيّة، فهما وجهان لعملة واحدة، العملة هي المرأة التي هي محـور

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، مج 9، ص 174- 210.
(2) ينظر: ديوان شرح كثيّر عزّة، تحقيق رحاب عكاوي، ص4.
(3) ديوان العذريين، شرح: يوسف عيد.
(4) ينظر: طه حسين، حديث الأربعاء، 291/1.
(5) ينظر: زكي مبارك، العشاق الثلاثة: جميل – كثيّر – العباس، ص 36- 37.
(6) الزركلي، الأعلام، 7/5.
(7) ينظر: الأصفهاني، م.س، مج 17، ص 47- 59.

هذا الغزل، والوجهان هو اختلاف نظرة هؤلاء الشعراء للمرأة، وغايتهم من التّغزل فيها، بينما الدكتور طه حسين ذكر وجه ثالث للغزل من نتاج الباديّة فصله عن الغزل العذريّ يمثله يزيد ابن الطثرية (126 هـ)[1]، فكان من أهل الباديّة ومن الشعراء اللاهين المحققين أيضاً، وقد جعله طه حسين زعيماً لقسم ثالث من الغزل هو "هذا الغزل الذي ليس" بالعفيف "إلاّ في لفظه والذي يمثّل لهو أهل الباديّة وعبث شبابهم"[2].

فأمّا الغزل الإباحي هو من نتاج أفراد لم يعانوا مرارة العيش، أفراد استمتعوا بالحياة المرفهة، أعجبوا بجمال وأنوثة المرأة الحضريّة، فاشغلوا أنفسهم بالغزل فيها، ووصف محاسنها، أبدعوا في التعبير عن حبّهم لهذه المرأة بجرأة، من غير تطرف في حبّهم إلى حدّ إسلام الروح للمحبوبة، حيث اعتاد الناس على الاستماع لشعر الغزل الذي يعبر بشكل صريح عن مشاعر هؤلاء العاشقين، فلاقى رواج في المدينة ومكّة.

ويمثل هذا اللون من الإباحيّة شعراء الغزل الذين أشهر بين الناس لجرأتهم في التغزل بامرأة عصرهم من غير عفّة، حيث كانوا يركضون وراء شهواتهم في تحقيق رغائبهم من هذا اللون من الحبّ العاطفي، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة، والعرجي، والأحوص:

1. عمر بن أبي ربيعة (23– 93 هـ) نال عمر مكانة عالية عند الشعراء، وشهدوا له بالشاعريّة، كما أقرّت لمكة بالتقدّم في الشعر على يده، فكانت العرب تقرّ لقريش بالتقدّم في كلّ شيء إلا في الشعر، إنّها كانت لا تقرّ لها به. فقال نصيب: عمر بن أبي ربيعة أوصفنا لربّات الحجال[3]، أحبّ عمر امرأة عصره من جمال جسديّ، وجمال أنثوي روحي وجنسي، فلم يجعله في امرأة واحدة، فلم يكن عذريّاً رغم أنه بلغ به الحبّ لبعض عشيقاته درجة الجنون والتحسر، فيقول الدكتور جبرائيل جبّور: "أنّه كان واقعيّاً وأنّه كان يدرك الجمال في عناصره المتعددة المختلفة من إنسانية وروحية وجسديّة، ويقدره قدره، ويطلبه ويسعى في أثره"[4].

2. الأحوص (... – 105)[5] هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، فافتخر بجده الذي استشهد في السنة الثالثة من الهجرة فلما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه، ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصابها ابنيها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربنّ في قحفه الخمر، فمنعته الدَّبْر،...، كان يتردد على دور الغناء، حيث كانت

---

(1) الزركلي، الأعلام، 9/ 236.
(2) طه حسين، حديث الأربعاء، 1/ 217.
(3) ينظر: الأصفهاني، الأغاني، مج 1، ص 83.
(4) جبرائيل جبور، عمر بن أبي ربيعة، 3/ 22.
(5) ينظر: الأصفهاني، م.س، مج 4، ص 228- 271.

تعج المدينة بالمغنين والمغنيات، وأهلت شاعريته في دور الغناء وخاصة في دار جميلة، فكان شديد الافتتان بها، كثير التردّد عليها، وعرف بفسقه وعبثه، فكانت جميلة جادّة، تكره العبث، فدفعت صرامتها مع الأحوص أن يقبل على غيرها من الجواري، و تعلّق قلبه بالمغنية سلامة القسّ تعلقاً شديداً، وكانت ترقّ له سلامة و تصله، وله شعر رقيق فيها يصوّر غرامه بها، وللأحوص مكانة مرموقة عند العلماء والرّواة والشعراء، فاجتمعوا على أنّه أنسب الناس، وكان كثير الهجاء.

3. العرجي (... – 120)[1] هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس، لقّب بالعرجي لأنّه كان يسكن عرْج الطائف، وقيل: بل سمّي بذلك لماء كان له ومال عليه بالعرج، كان خليفة عمر بن أبي ربيعة في وصف النساء وحسنهنّ، فهو من شعراء قريش الذين أجادوا في الشعر وخاصة الغزل، فهو نحا نحو عمر بن أبي ربيعة، فلم يأت غزله على أساس الحبّ الخالص، بل جاء بعض غزله افتراء، وتشهّيراً، ليلحق بأهل هؤلاء النسوة المشبب بهنّ العار، على نحو ما شبّب بجيداء أمّ محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي، وذلك ليفضح ابنها لا لمحبة بينهما، فكان ذلك سبب حبس محمد إياه و ضربه له حتى مات في السجن، فهو مثل عمر بن أبي ربيعة أعجب بالمرأة المنعمة، المرهفة، التي أثارت قريحته الشعريّة لإشباع رغباته، واستمتاع نزواته، وكان به مجون وفسق مثل الأحوص، يتنقل غزله بين طائفة من النساء، فلم يقتصره على أحدهنّ.

ويرى الأديب طه حسين أنّ غزل العذريّين الذين كانوا يتغنّون في شعرهم هذا الحبّ الأفلاطوني، كجميل وعروة وقيس بن ذريح والمجنون، كان طموحاً إلى المثل الأعلى المعنوي، مصدره اليأس من الحياة العاملة والزهد فيها. والثاني غزل الإباحيّين الذين يسميهم "المحقّقين" وهم الذين كانوا يتغنّون الحبّ ولِذّاته العمليّة كما يفهمها الناس جميعاً وزعميهم عمر بن أبي ربيعة.[2]
والدكتور شوقي ضيف رأى أنّ شعراء الغزل الصريح كانوا يطلبون المرأة، ويلحون في طلبها، وهم جميعاً يلقون من حولها شباك الإغراء[3]، أمّا الغزل العذريّ هو غزل تقيّ طاهر ممعن في النّقاء والطهارة[4].

ويوافق الدكتور شكري فيصل الدكتور شوقي ضيف في "أنّ الغزل العذريّ هو تعبير عن وضع طائفة من المسلمين كانت تتحرج، وتذهب مذهب التّقى، وتؤثر السلامة والعافية على المقامرة

---

(1) ينظر: الأصفهاني، الأغاني، مج1، ص 362- 392.
(2) طه حسين، حديث الأربعاء، 187/1.
(3) ينظر، شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 349.
(4) ينظر، شوقي ضيف، م. ن، 359.

والمخاطرة"[1]، وأنّ هذا الغزل العذري هو عصارة الحبّ العذري الذي يتصف بالحرارة الملتهبة، والديمومة الدّائمة، والعفّة المحضة[2]، وفي المقابل كان الغزل العمريّ الذي "هو تعبير عن طبقة متحررة منطلقة، تضع شهوتها، وملاذها فوق كلّ شيء، وتلوب في حياتها تنشد هذه الملاذ، والشهوات،...، إنّها لم تنسى نصيبها من الدّنيا، ولكن نست نصيبها من الآخرة".[3]

الباحث (وليم نقولا شعير) لم ير (في الحبّ والغزل العذريّ) تلك العفّة التي أشار إليها الباحثون أمثال شكري فيصل، وطه حسين، وشوقي ضيف، الذين يجعلون منه حبّاً مثاليا روحانياً، بينما الغزل الإباحي هو غزل مفحش، مصرّح بالمتعة الجنسيّة، أي الحبّ الحقيقي (الواقعيّ) الذي يعرفه جميع الناس، بل هناك من السلوكيات التي عبّر عنها الشعراء العذريّون ما تدلُّ على إباحيتهم في الحبّ أكثر من المحقّقين الذين نعتوا بالاباحيّين، بحث الدكتور نقولا أوجه الاختلاف بين إباحيّة الشعراء المحقّقين، وإباحيّة الشعراء العذريّين تتلخص في وجهين[4]:

الوجه الأوّل: أنّ الشعراء المحقّقين كانوا أباحيّين في حبّهم بوجه عام،...، كانوا يرون أنّ كلّ امرأة مرشحة، ومؤهلة للحبّ الحقيقيّ.

أمّا الشعراء العذريّون كانوا إباحيّين في حبّهم لشخص امرأة واحدة يتعبدون لها، ويفنون في سبيلها حياتهم من غير طائل.

واعتبر الباحث زكي مبارك الحبّ العذريّ حبّاً لا يقوم على الزهد المطلق في المتعة الحسيّة، وإنّما يقوم على أساس الصّراع بين زوجين يغالبان مطامع الأفئدة و مطالب الحواس.[5]

أمّا الوجه الآخر: يتمثل في وجه اجتماعي نوعي صرف، يتجلّى في سلوك الشعراء مع النساء اللواتي يتغزلون بهنّ، وفي سلوكهم مع أهل هؤلاء النساء بعد زواجهنّ، فالشاعر العذري جميل لم تنقطع علاقته مع حبيبته بثينة بعد زواجها، بل كان يختلي بها خلسة، ويحيي معها الليالي رغم زواجها من رجل آخر، وهذا التصرّف لاقى الاستنكار من قبل أهلها، ومثله كان العذري قيس الملوح مع بثينة، وقيس بن ذريح مع لبنى.

بينما الشعراء المحقّقون لم يتصرّفوا هذا السلوك مع معشوقاتهم، فعمر بن أبي ربيعة أحبّ الثريّا، فتزوجت، فلم يجتمع بها بعد زواجها، ولم يصرّح باسمها في أشعاره رغم حبّه الشديد لها. وكذلك العرجي الذي أحبّ (سعده) ابنة عمّه، فلم يتعرّض لها بعد زواجها من يزيد بن عبد الملك.

---

(1) شكري فيصل، تطّورالغزل بين الجاهلية والإسلام، ص 280.
(2) شكري فيصل، م. ن، ص 288.
(3) شكري فيصل، م. ن، ص 281.
(4) ينظر: العرجي وشعر الغزل في العصر الأموي، ص 660 – 664.
(5) ينظر: زكي مبارك، العشاق الثلاثة، ص17.

القسم الثاني:- صور التّواصل غير اللّفظي في شعر الغزل العذريّ – الإباحيّ:

المبحث الأول:- لغة لسان الحال (الهيئة الجسمية):

يعدّ جسد الإنسان وعاء جامعاً لتلك الأعضاء الجسمية، حيث يفصح كلّ عضو منها عن رسائل غير لفظيّة متعدّدة تتناسب مع الهيئة التي أنشئت عليها، والدور الوظيفيّ الذي وجدت له، فما تحمله هذه الأعضاء من معان مختلفة يفهمها المتفرّس فيها في حال تفرّد كلّ عضو عن الآخر، وذلك تبعاً للمواقف التي تفرض عليها نقل رسائل معينة تتلاءم مع طبيعتها الوظيفيّة، قد تنعكس على الهيئة العامة لجسم الإنسان، فَتُظهر الإنسانُ في وضعيات مختلفة: فيكون مبتهجاً، فرحاً، وأحياناً حزيناً، بائساً، غاضباً، منزعجاً، مثقلاً بالهموم، وأحياناً أخرى مولعاً بالعشق، شارد الذهن، غائباً عن الوجود، تائهاً.

فهيئة الإنسان الخارجيّة هي لسان حاله تخبر عن تعبيرات غير لفظيّة عديدة، فبعضها مرتبط بالانفعالات الطبيعيّة المنعكسة من داخله، وأخرى متعلقة بالمظهر الخارجيّ من أناقة وترتيب وجمال أو عكس ذلك. فالقرآن الكريم بإعجازه البياني رسم لنا صورة الإنسان المنافق الخارجية التي تكشف عن حقيقته الداخلية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.[1]

فهذه الصورة الحيّة التي رسمها الخطاب القرآنيّ تبين طبيعة نفسية هؤلاء المنافقين، فهي تعتبر شاهداً حسيّاً تدلّ على صفات هذه النوعية من الجنس البشري الذين يشبهون الخشب المسنّد إلى الحائط، لخلوّهم من العلم والتفكّر مع إنّهم يبدون في أحسن هيئة من الجمال والحسن.

وقد عرف الشعراء العذريّون والإباحيّون أهميّة دور الجسد في أداء رسائل غير لفظيّة للآخرين: من إقبال وصدّ، وبهجة، وألم، وولَه، ومرض، وضعف، وجمال. فقال قيس بن ذريح:

(الطويل)

وَلِلْحُبِّ آياتٌ تُبَيِّنُ بالفتى شُحُوباً وتعْرى من يديه الأشاجِعُ[2] [3]

وأكد عمر بن أبي ربيعة على دور جسد المحبّ في الكشف عمّا يكتمه في داخله، حيث تبدو آثار العشق واضحة للمتفرّس فيه، يقول:

(الخفيف)

يَكْتُمُ النّاسَ ما به والذي يَكْتُمُ بادٍ مُبَيِّنٌ للّبيْبِ[4]

---

[1] سورة المنافقين، آية 4.
[2] الأشاجع: أصول الأصابع أو عروق ظاهر الكفّ.
[3] ديوان قيس لبنى، ص 58.
[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص62.

وعبّر الشاعر العذري (قيس بن الملوح) عن ذلك بأبلغ صورة. فصار منكبه (مجتمع رأس الكتف والعضد) وأصابع يديه وسادة يتوسد بهما، دلالة على الضعف الذي ألّم بجسده. فقال:

(الطويل)

وكيـــف إلـــى ليلـــى إذا رَمَّ أَعْظُمـــي وصـــار وِســـادي مَنْكَبـــي وَبَنَـــاني[1]

1- الضّعف والنّحول:

بات جسد المحبين مرهفاً ضعيفاً من جرّاء الحب الذي تعلقّ به هؤلاء العشاق، الذي تملّـك قلوبهم، فلم يقدروا على الانفكاك منه والتغلّب عليه، فسيطر على أحشائهم، ومن ثمّ أخذ داؤه يغزو العظم واللحم، فبدوا نُحلاء لا يُرى ممّن ابتلوا به بلاء شديداً سوى الجلد الذي تسنده العظام.

فالشاعر قيس بن الملوح عانى صراعاً شديداً من شدة هيامه بحبّ ليلى العامريـــة، فتلقـــى جسده ما هو فوق طاقته من مرض الحب، فكساه نحولاً وضعفاً، فلم يعد سليماً، يقوى على العمـــل ومشاركة الأهل في مختلف جوانب الحياة، فدبّ فيه العطب والخلل، وذاب لحمه، وبـــدت عروقـــه عارية لا تمسكها سوى العظام، قال:

(البسيط)

أليـــكَ عنّـــي فـــإنّي هـــائم وصِـــبٌ[2] أمَا تَرى الجسم قـد أودَى بـــه العَطَـــبُ[3]

وقال ابن الملوح أيضاً:

(الطويل)

بَـــرى حُبّهـــا جِســـمي وقَلْبـــي ومُهْجَتـــي فَلَـــمْ يَبْـــقَ إلا أَعْظـــمٌ وَعُـــرُوق[4]

فعدّد الشاعر قيس بن الملوح لوالده بعض العلامات التي تؤكد له مدى أثر الحب فيه، فهي أدلة بينة تثبت عدم استطاعته ترك ما ابتلي به من حبّ، لهذا لا يمكن أن ينزل وفق رغبـــة والـــده والذي تدعوه إلى نسيان محبوبته ، فقال:

(الطويل)

أيـــا أَبتـــي دَعْنـــي ومـــا قـــد لَقِيْتُـــهُ ولا تَلْـــحَ محـــزون الفـــؤاد ســـقيما

عـــديمَ التشـــكي بـــاكيَ العـــين ســـاهراً حليـــف الأســـى للإِصـــطبار عـــديما

---

[1] ديوان مجنون ليلى، ص272.

[2] وصبٌ: هو المرض الدائم ونحول الجسم.

[3] م.ن، ص 48.

[4] م. ن، ص 209.

كَلِفْـــتُ بهـــا حتـــى أذابنـــي الهـــوى وصـــيَّر عَظْمـــي بـــالغرام رَمِيمـــا[1]

وفي موقف آخر، ذكر ابن الملوح لمخاطبه بعض العلامات التي تبيّن مدى تعلّق محبوبتـــه به لمّا يُقبل عليها هذا الشخص المبعث من قبله، ليبلّغها سلامه، فإنّه سوف يبدو الحـــزن واضـــحاً عليها، وستظهر جوانب ذلك الحبّ الذي تكتمه في داخلها على كيانها الخارجي. فقال:

(الطويل)

وَبانَ الذي تَخفي من الشّوق فـــي الحَشـــى إذا هاجَهـــا مِنِّـــي حَـــديثٌ يَـــرُوعَها[2]

ومن علامات العشق التي أبرزها شِعْر هؤلاء العشّاق: انقياد المحبّ بكامل جسمه وعقلـــه لمحبوبته، فهو غير قادر على الانفكاك من هذا الحبّ، فلا يقوى على مقاومة ما دبّ في وجدانه من هوى وعشق، ففعل فيه فعله إلى أن غيّر من معالمه الجسمية ما لا يكاد يصدّقه أحد مقارنة بما كان عليه من قوة، وصحة بنيته، فعبر جميل عن هذا قائلاً:

(الطويل)

ألا تَتَّقـــــين الله فـــــيمن قَتَلْتِـــــه فأَمْســـــى إلـــيكم خاشِـــعاً يَتَضَـــرَّعُ
إلا تَتَّقـــين الله فـــي قَتْـــل عاشِـــق لـــه كَبِـــدٌ حـــرَّى عليـــكِ تَقَطَّـــعُ[3]

وقال أيضاً:

(الطويل)

ألا قاتَـــلَ اللهُ الهـــوى كيـــف قـــادني كمـــا قيـــد مغلـــولُ اليـــدين أَســـيرُ[4]

وقال جميل أيضاُ:

(الطويل)

تَعَلَّقْتُهـــا والـــنّفسُ منّـــي صـــحيحةٌ فمـــا زال يَنْمِـــي حُـــبٌّ جُمْـــلٍ وتضْـــعُفُ
إلى اليـــوم حتّـــى سَـــلَّ جِسْـــمي وشَـــفَّني وأنكرتُ من نفسي الـــذي كُنْـــتُ أعـــرفُ[5]

---

(1) ديوان مجنون ليلى، ص 261.
(2) م. ن، ص 194.
(3) ديوان جميل، ص 118-119.
(4) م. ن، ص 99.
(5) م. ن، ص 134.

ونال الحبّ العاطفي من الشاعر قيس بن ذريح، فبراه كما برى المجنون وجميلاً، فجعلـه ضـعيفاً نحيلاً، وسقيماً حتّى كاد يقترب من الموت، فعبر عن ذلك قائلاً:

(الوافر)

سَـــــقيمٌ لا يُصَـــــابُ لَـــــهُ دواءٌ ... أصـــــابَ الحُـــــبُّ مُقْلَتَـــــهُ فَنَاحـــــا
وَعَذَّبَـــــهُ الهَـــــوَى حتَّـــــى بَـــــراهُ ... كَبَـــــرْي القَـــــيْنِ بالسَّـــــفن القِـــــداحا
فَكـــــادَ يُذيقُـــــهُ جُـــــرَعَ المَنايـــــا ... ولـــــو سَـــــقّاهُ ذلـــــك لاسْـــــتراحا[1]

وقال قيس بن ذريح أيضاً:

(الطويل)

وحُـــبٌّ بـــدا بالجِسْـــم واللَّـــوْن ظـــاهرٌ ... وَحُبٌّ لـــدى نَفْســـي مـــن الـــرُّوح أَلْطَـــفُ
وَحُـــبٌّ هـــو الـــدّاءُ العيـــاءُ بِعَيْنِـــه ... لَـــهُ ذِكَـــرٌ تعْـــدُو علـــيّ فـــأدْنَفُ[2]

وقال ابن ذريح أيضاً:

(البسيط)

أصْـبَحْتُ مـن حُـبِّ لبنـى بَـلْ تَـذَكُّرها ... فـــي كُرْبَـــةٍ فَفُـــؤادي اليـــوم مَشْـــغولُ
والجِسْـــمُ مِنّـــي مَنْهُـــوكٌ لِفرْقَتهـــا ... يَبْرِيـــهِ طُـــولُ سَـــقامٍ فهـــو مَنْحُـــولُ
كـــأَنَّني يَـــوْمَ وَلَّـــتْ مـــا تُكَلِّمُنـــي ... أَخُـــو هُيـــامٍ مُصـــابُ القَلْـــبِ مَسْـــلُولُ[3]

ومثل هذه المعاناة التي عاناها الشعراء العذريّون، وما ابتلوا به من جرّاء الحبّ العـاطفي، نجدها كذلك عند الشعراء الإباحيين، فلا اختلاف بين تلك العلامات التي نقلها الشاعر العذريّ مـن ضعف ونحول وسقم، وتلك التي صوّرها الشّاعر الإباحي. فالعشق أفنى زعيم الغزل الإباحي (عمر بن أبي ربيعة) فبراه وأبلاه حتى بات لا يُرى منه إلا العظام والجلد وغيّر حاله، فعبّر عن حاله:

(الخفيف)

أيّهـــا النَّاصِـــحُ الأمـــينُ رســـولي ... قُـــل لهنـــدٍ مِنِّـــي إذا جِئْـــتِ هنْـــدا
يعلَـــمُ اللهُ أنْ قـــد أوتيـــتِ مِنِّـــي ... غيْـــر مَـــنٍّ لـــذاك نُصـــحا وودّا
قـــد بَـــراهُ وشَـــفَّه الحُـــبُّ حتّـــى ... صـــار ممّـــا بـــه عظامـــا وجِلْـــدا[4]

---

[1] ديوان قيس لبنى، ص39.
[2] م. ن، ص 65.
[3] م.ن، ص 61-62.
[4] ديوان عمربن ابي ربيعة، ص 98.

وقال عمر أيضاً:

(الطويل)

أَرِقْــتُ ولــم أمْلِــكْ لهــذا الهــوى رَدّا وَأَوْرَثَنـــي حُبّـــي وكِتْمانُـــه جَهْـــدا
كَتَمْــتُ الهــوى حتّــى بَرانــي وَشَــفَّني وَعزَّيْــتُ قَلْبــاً لا صَــبورا ولا جَلْــدا[1]

وقال أيضاً:

(المنسرح)

يــا صــاحِ لا تَلْحَنــي وقُــلْ ســددا إنّــي أَرَى الحُــبَّ قاتِــلي كَمَــدا
ألا تَرانــي مُخــامِراً سَــقَماً كَحَّــلَ عَينــي بِمأْقِهــا السَّــهَدا
أَحْبَبْــتُ حُبّــاً مِثْــلَ الجِنُــونِ فقــد أبلَــى عِظــامي وَغَيَّــر الجَسَــدا[2]

وصور الشاعر عمر بن أبي ربيعة أيضاً الحالة التي بدتْ عليها عشيقته (رباب)، فظلّت تنتظر قدومه، فلمّا أكّدت لها أختها الصغرى أنّه لن يأتيها لمدة شهر شهقت، فشقّت جيب ثوبها، ونزلت الدّموع من عينيها، فكانت في حالة جزع شديد مِنْ أنْ يكون ذاك صدقاً. فقال:

(الكامل)

قالــتْ لهــا الصُّــغرى وقــد حَلَفَــتْ بــاللهِ لا يأتيكُمــا شَــهْرا
فَتَنَفَّســتْ صَــعداً لِحِلْفَتِهــا وهــوت فَشَــقَّتْ جَيْبَهــا فَطْــرا[3]
وَجَــرَتْ مآقيهــا بِأَدْمُعِهــا جَزَعــا وقالــت حُــبَّ مَــن ذُكِــرا[4]

وأثبت الحال الجسميّ الذي بات عليه الشاعر (العرجيّ) من نحول وضعف، الأمر الذي جعل بعض نساء عصره يدركن مدى تعلّقه بحبيبته (عمرة)، فقال:

(الطويل)

ألا مَــن لِعَــينٍ لا تَــزَالُ تَســيلُ وعــينُ المُحِــبِّ المُســتَهامِ هَمُــولُ
وطَــرْفٍ أبــى يــا عَمْــرَ[5] إلاّ إتّبــاعَكُمْ وَقَلْــبٍ أبــى إلاّ عليــك يَجُــولُ
بقــولُ نســاءٌ: حُــبُّ عَمْــرةَ شَــفَّني، زعَمْــنَ، وفــي جِسْــمِي لــذاك نُحُــولُ

---

(1) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 104.
(2) م. ن، ص 111.
(3) فطرا: شقاً.
(4) م.ن، ص174.
(5) عَمْرَ: منادى مرخم لاسم عمرة.

وَواللهِ مـــا أحْبَبْتُهـــا حُـــبَّ ريبـــةٍ ولكِنَّمـــــا ذاكَ الحُبـــــابُ قَتُـــــولُ[1]

فلم ينزل الشاعر (العرجي) عند رغبة من يوجّهون إليه اللّوم لتعلّقه بالعشــق، ومــا حــلّ بجسمه من نحول بترك الهوى، معللاً لهم بأنّ الأمر ليس بيده، بل إنّ شأن الحبّ متروك لقلبه، فهو الذي يُملي عليه التّمسك بحب الحبيب، وبالتالي عصيان مراد أعداء الحبّ. فقال:

(الطويل)

يَلومـــونَ صَـــبّاً أَنْحَـــلَ الحُـــبُّ جِسْـــمَهُ وما ضَرَّهُمْ لـــو لـــم يَلومـــوا؟ وأَجْمَلـــوا؟
ألَـــم يَعلَمـــوا- لا بُوركـــوا- أَنَّ قَلْبَـــهُ عَصى قَبْلَهُمْ فيها العِـدى فَهْـو مُبْهَـلُ[2]

ونال العشق من كيان (عبد الله بن الدمينة)، فلم يَعُدْ يُرى منه سوى العظام، والنطق باللسان. فقــال في هذا:

(الطويل)

خليلـــيّ مكنُـــونُ الهـــوى صَـــدَع الحَشـــا فكيـــفَ بِمَكْنـــونِ الهـــوى تَرَيـــان؟
بَرَى الحبُّ جِسمي غيـرَ جُثمـانِ أعظُمـي بَلـــين وإنـــي نـــاطق بلســـاني[3]

وفي بيت آخر صرّح (ابن الدمينة) أنّ معالم أصول أصابع يديه ظهرت لشدّة نحافته وضعفه، فقال:

(الطويل)

وبـــاتَ وســـادي ســـاعداً قـــلّ لحمُـــهُ على العظمِ حتّـــى كـــاد يَبْـــدُو أشـــاجِعُه[4]

حاول الواشون الإيقاع بين (ابن الدمينة) ومحبوبته (أميمة) مشككين في مودّته لها، ولكــن الشاعر دحض كذبهم مؤكداً لها بأنّه يحبّها حبّا شديداً، وأنّ علامات الحبّ البادية على جسمه مــن شحوب وضعف تثبت لها صحة ما يكنّ لها من حبّ، فعبر عن هذا قائلاً:

(الطويل)

وَقَـــدْ جَعَـــلَ الواشـــونَ عَمْـــداً ليعْلَمـــوا ألـــي مِنْـــكِ أَمْ لا – يـــا أُمَـــيْمُ – نَصِـــيبُ
أُمَـــيْمَ انْصِـــبِي عَيْنَيْـــكِ نَحْـــوي تَبَيَّنِـــي بِجِسْـــمِي مِمّـــا تَفْعَلِـــينَ شُـــحُوبُ[5]

---

[1] ديوان العرجي، ص 297.
[2] م.ن، ص 302.
[3] ديوان ابن الدمينة، ص 32.
[4] م.ن، ص 194.
[5] م.ن، ص.110.

وكذلك الشاعر يزيد بن الطّثرية فقد بدا تأثير الحب في جسمه واضحاً، فقلّ لحمه ونَحِـلَ جسـمه، فأخذت دواعي العشق ترسم معالمها على حالته الجسمانيّة، فقال يزيد:

(الطويل)

دَعـاني الهـوى مِـنْ نَحْوهـا فأَجَبْتُـهُ فأَصْـبَحَ بـي يَسْـتَنُّ حَيْـثُ يُريـدُ[1]

وقال يزيد أيضاً:

(الطويل)

أَنا الهـائِمُ الصّـبُ الـذي قـاده الهـوى إليـك فأمسـى فـي حِبالِـكِ مُسْـلما
بَرَتْـهُ دواعـي الحـبّ حتّـى تركنـه سـقيما ولـم يَتْـرُكْنَ لحمـا ولا دمـا[2]

لم يعجز الطب في الكشف عن مختلف الأمراض، وتقديم العلاج المناسب لها إلا فـي داء الحبّ، فقد عجز الناس عن مداواة المبتلى بالعشق، فيصعب على الذي قدّر عليه بلاء العشق إخفاء آثار الحبّ بسبب شخوص عظامه وسَقْم بدنه، قال الأحوص في هذا المعنى:

(البسيط)

ما عالجَ النَّـاسَ مثـل الحُـبِّ مـن سَـقمٍ ولا بَـرى مِثْلُـهُ عَظْمـاً ولا جَسَـدَ
مـا يَلبـث الحُـبُّ أن تَبْـدو شـواهِدُهُ مـن المُحِـبِّ، وإنْ لَـم يُبْـدِه أَبَـدا[3]

وقال الأحوص أيضاً:

(الوافر)

وقـالوا: قَـدْ نَحَلْـتَ وكُنْـتَ جَلْـداً وأَيْسَـرُ مـا مُنِيـتُ بـه النُحُـولُ[4]

2- الإعراض والصدّ:

إن الإعراض والصدّ من الحركات الجسميّة غير اللّفظية، تقوم على أساس تجنّب الطـرف الآخر بإدارة الرأس وجزء من الجسم إلى ناحية معاكسـة بالنسـبة لاتجـاه الشـخص المقصـود بالإعراض عنه، فيأتي الإعراض من قبل أحد الطرفين عن الطرف الآخر، تعبيراً عن موقف ما أو أمر حصل بينهما، أدّى إلى سوء التفاهم بينهما. فعبر شعر الغزل عن هذه الحركة الجسميّة حيـث

---

(1) شعر يزيد بن الطثرية، ص. 62.
(2) م.ن، ص 104.
(3) شعر الأحوص الأنصاري، ص 106.
(4) م.ن، ص 173.

كانت شائعة بين المحبين. وكان شاعر العشق يتظاهر بالصدّ عن محبوبته خوفاً من أنظار المترصدين لأخبارهما، فيطيل الصدّ رغماً عنه لإبعاد الشك عنهما. قال ابن الملوح:

(الطويل)

برغمي أُطَيلُ الصَّدَّ عنها إذا نَأتْ ... أُحاذر أَسْماعاً عليها وأَعْيُنا[1]

فعبّر ابن الدمينة عن مثل هذا الموقف، قائلاً:

(الطويل)

أحقّاً – عِبادَ الله– أنْ لَسْتُ صادراً ... ولا وارداً إلا عليّ رقيبُ
ولا ناظراً إلا وَطَرْفي دُونَهُ ... بعيدُ المَراقِي[2] **في السَّماءِ مَهيبُ**
ولمَّا رَأَيْتُ الهَجْرَ أَبقى مَوَدَّةً ... وطارَتْ لأَضْغانٍ عليَّ قُلوبُ
هَجَرْتُ اجتِناباً غير بِغْضٍ ولا قِلىً ... أُمَيْمَةُ مَهْجورٌ إليّ حَبيبُ[3]

وكانت المحبوبة تُعرض عن عاشقها إذا بلغها إساءة منه عن طريق الآخرين. فعبّر هؤلاء المحبون في أشعارهم عن ذلك السلوك الذي كانت تظهره المرأة المعشوقة من خلال حركة جسدها نحوه، إشعاراً له بسوء تصرّفه معها، أو ردّاً على ما بلغها من كلام قد جرح كرامتها ممّا جاء على ألسنة الواشين. قال ابن الملوح:

(الطويل)

وتُذْنِبُ ليلى ثم تَزْعَمُ أنني ... أسأتُ ولا يَخْفى على النَّاسِ ما بيا
وتُعرِض ليلى عن كلامي كأَنَّني ... قَتَلْتُ لليلى إِخوةً ومواليا[4]

وقال جميل:

(البسيط)

صَدَّتْ بثينةُ عنّي أنْ سَعى ساعِ ... وآيستْ بعد موعودٍ وإطماعِ
وَصَدَّقَتْ فيّ أقوالاً تَقَوَّلَها ... واشٍ وما أنا للواشي بِمِطْواعِ[5]

---

(1) ديوان مجنون ليلى، 282.
(2) المراقي: المَرْقاة والمِرقاة، الدّرجة، واحدة من مراقي الدّرج.
(3) ديوان عبد الله بن الدمينة، ص 103- 104.
(4) ديوان مجنون ليلى، ص 299.
(5) ديوان جميل، ص 123.

وقال عمر:

(الطويل)

أرى أمَّ عبـــــدِ اللهِ صَـــــدَّتْ كـــــأنّني بما فَعَـلَ الواشـــي جَنَيْـتُ لهـا ذنْبـا[1]

وقد يأتي صدّ المحبوبة عن حبيبها عندما تستشعر الجفاء منه، وطول البعد عنها، وعدم صدقه فـــي مواعيده معها. وفي ذلك يقول العرجي:

(البسيط)

أقـــولُ لَمّـــا التَقينـــا وهـــي مُعْرِضَـــةٌ تَشـــكو الجَفـــاءَ وإخـــلافَ المواعيـــدِ[2]

فخاطب محبوبته، بينما هي معرضة عنه بسبب الواشي النمّام الذي سعى بينهما بالشرّ، محاولاً أن يوكد لها مدى تمسكه بها، وأنّ حبّه لم يكن لأحد من النساء غيرها. فقال:

(البسيط)

أقـــولُ لَمّـــا التقينـــا وهـــي معرِضَـــةٌ لِقيـــل واشٍ علينـــا يَقْـــرِضُ[3] الكـــذبا
فقلـــتُ: لا تُعْرِضـــي نفســـي الفِـــداءُ لكُـــم في غيرِ شـــيءٍ ومـــا نـــأتي لَكُـــم غَضَـــبا
اللهُ يعْلَـــمُ مـــا أحْبَبْـــتُ حُـــبَّكُمُ يا قُرْبَ مِـــنْ خَلْقِـــه عُجْمـــاً ولا عربـــا[4]

والشاعر (جميل) طلب بأن يتشفعا له عند محبوبته. فإن قبلت وصفحت وفـــاء لمـــا كـــان بينهما، فسيبدو منها علامات تدلّ على ذلك تتمثل في اللّوعة، وذرف الدّموع، وإن نسيت ذلك العهد، ورفضت الصّفح عنه، فإنّه سيبدو منها أيضاً علامات مغايرة، كالإعراض والصدّ. فقال:

(الطويل)

ألمّـــا بهـــا ثـــم اشْـــفَعا لـــي وســـلِّما عليها، سَـــقاها اللهُ مـــن ســـائِغِ القَطْـــرِ
وبوحـــا بِـــذِكْرى عنـــد بَثْنَـــةَ وانظـــرا أتَرْتَـــاحُ يومـــاً أم تَهَـــشُّ إلـــى ذكـــري
فإن لـــم تَكُـــنْ تَقطـــعْ قُـــوى الـــودِّ بيننـــا ولم تَنْس ما أسْـــلَفتُ فـــي ســـالف الـــدهرِ
فســـوفَ يُـــرى منهـــا اشـــتياقٌ ولوعـــةٌ ببـــيْنٍ، وغـــرْبٌ مـــن مـــدامعِها يجـــري
وإن تـــكُ قـــد حالـــتْ عـــن العهـــد بَعْـــدَنا وأصْـــغَتْ إلـــى قـــول المُؤَنِّـــبِ والمُـــزْرِي

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 55.
[2] ديوان العرجي، ص 217.
[3] يقرض: يتلو ويُردّد.
[4] م. ن، ص 166.

فسوف يُـرى منهـا صـدودٌ ولـم تكـن بنفسـي مـن أهـل الخيانـةِ والغـدرِ[1]

وكان لسان حال الشّاعر العذريّ الجسمي – أثناء إقباله على جمع من النساء بينهنّ محبوبته – يُظهر ميلاً ناحيتها دون غيرها من رفيقاتها، حيث يكون هواه، فَيُعْرِضُ بجسمه عن جميع النساء ما عدا محبوبته. فلاحظت صواحب ليلى حبّ الشّاعر (جميل) لها، وقد بدا ذلك من حركة جسـمه، حيث كشفت عن حبه الشديد لعشيقته هذه. فقال جميل:

(الخفيف)

وأتـت صـواحبها فقلـن: هـذا الـذي مَـنَحَ المـودَّةَ غيرَنـا وجفانـا[2]
نَـولّي قبـل نَـأي داري جُمانـا وصِـلِينا كمـا زَعُمْـتِ تَلانـا
إنّ خيـر المواصـلين صـنيعا مـن يُـوافى خليلَـهُ حيـث كانـا[3]

وقد تعرض النساء المعشوقات عن عشاقهنّ لأسباب تتعلّق بتقدّمهم في السّن، وذهاب شبابهم، مـع حلول الشّيب. فقال عمر معبّراً عن هذا الموقف:

(الخفيف)

صَـرَمَتْ حَبْلَـكَ البَغُـومُ وصَـدَّتْ عنـكَ فـي غيـرِ ريبَـةٍ أسمـاءُ
والغـواني إذا رَأيْنَـكَ كَهْـلاً كـان فـيهنَّ عـن هـواكَ التِـواءُ[4]

وقد تتظاهر المحبوبة بالصّد والإعراض عن عشيقها حفاظاً على نفسها من الفضيحة، وانتشار خبر حبّها بين الناس. فقال عمر:

(الطويل)

وآخِـرُ عَهْـدي بالرَّبـابِ مَقالُهـا ألسْـتَ تَـرى مَـن حَولَنـا فَتَرَقَّبـا
مِـن الضَّـوءِ والسُّـمّارِ فـيهم مُكـذِّبٌ جـريءٌ علينـا أنْ يقـولَ فَيَكْـذِبا
فَقُلْـتُ لَهـا فـي الله واللّيـلُ سـاترٌ فَلا تَشْـغبي إنْ تُسـأَلي العُـرف مِشْـغَبا
فصـدّتْ وقالـت بـل تريـدُ فضـيحتي فأحبـب إلـى قلبـي بهـا مُتغضِّـبا[5]

---

[1] ديوان جميل، ص 103.
[2] م. ن، ص 216.
[3] اللسان: وأتى./ الزجاج: وأتوا... أذا الذي. ينظر حاشية الديوان.
[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 24.
[5] م.ن، ص 49.

وتتمنّع وتصدّ المحبوبة إذا استشعرت أنّ المعجب بها، لم يخصّها بالخطاب حينما وجّه لها سؤاله بصيغة الجماعة، فأحسّت أنّ سؤاله هذا يُشرك فيه أيضاً غيرها. فقال عمر:

(الخفيف)

فإذا نَعْجَةٌ تُراعي نِعاجاً ... ومهاً بُهِّجَ المَنَاظِرِ عيناً

قلت: مَنْ أَنْتُم؟ فَصَدَّتْ، وقالتْ ... أُمُبدٌ سؤالَكَ العالمينا[1]

ويكون صدّ المحبوبة عن عاشقها من منطلق التّظاهر بعدم الاكتراث والاهتمام به، وحرق قلبه لتستيقن مدى تعلقه بها، فترى رفيقاتها الحالة التي آل إليها هذا المحبّ، بسبب التصرّف الذي أظهرتها معشوقته اتّجاهه، فأخذن ينصحنها بضرورة حسن التصرّف معه، لأنه يُكِنّ لها حبّه الذي نال منه وأضعفه، تماماً كما حصل مع عمر بن أبي ربيعة، فقال:

(الطويل)

لَعَمْري لو أَبْصَرَتْني يَوْمَ بِنْتُمُ ... وَعَيْني بِجاري دَمْعِها تَتَرَقْرقُ

وكَيْفَ غَدَاةَ البَيْنِ وَجْدي، وكيفَ إذْ ... نأت دَارُكُمْ عن شِدَّةِ الوَجْد آرقُ

لأَيْقَنْتِ أنّ القلبَ عانٍ بِذِكْرِكُمْ ... وأَنّي رَهينٌ في حِبالِكِ مُوثَقُ

فَصدّت صُدودَ الرِّئْمِ، ثم تَبَسَّمَتْ ... وقالت لتربيْها: اسمَعَا لَيْس يَرْفَقُ

فقالت لها إحداهُما: هو مُحْسِنٌ ... وأنتِ به، في ما ترى العَيْنُ أَخْرَقُ

وقالت لها الأُخْرى: ارْجِعِيهِ بما اشْتَهى ... فإنَّ هَواهُ بَيِّنٌ حِين يَنْطِقُ

شَفَعْنَ إليها، حينَ أَبْصَرْنَ عَبْرتي ... وَقَلْبي، حِذارَ العينِ، مِنْهُنَّ مُشفِقُ[2]

ولاحظ عمر سلوك إحدى عشيقاته وهي معرضة عنه، حيث أنها منحته طَرَفْ وجهها تعبيراً عن صدودها عنه وإنشغالها بغيره:

(البسيط)

فَقُلتُ، لمَّا التَقيْنا، وهي مُعْرِضَةٌ ... عَنّي، ليَهْنِكِ مَنْ تُدْنِينَهُ دُوني[3]

3- الزي واللباس، والصفات الجسميّة:

إنّ لغة الجسد لا تعتمد على تعبيرات الوجه والإيماءات، والانحناءات، واللمس، وحركة اليدين، فقط، بل إنّ شكل ومظهر الجسم من ملبس، ومسكن، وزينة، ولون شعر الرأس وتغيّره

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 406.
[2] م. ن، ص 258- 259.
[3] م.ن، ص 396.

وغيرها من وسائل الاتصال غير اللّفظية التي تنقل معان مختلفة عن الإنسان، فتخبر عن جنسه، وشخصيته، وعمره، وثقافته. فارتداء الملابس الجميلة قد توحي بالجاذبية، وتأكيد الذات، وكما تشير إلى الوضع الطبقي والعائلي الذي ينتمي إليه، وذوقه، وخلفيته الثقافية.

فكان عمر بن أبي ربيعة من أغنياء الحجاز الذين ظهرت عليهم النعمة جلية من تزيّن، وارتداء ملابس فاخرة تخصّ ذوقه دون غيره، فهذه العلامات جعلته متميّزاً، فإحدى المعبات به عرفته وميّزته عن غيره بزيّه الذي بات يعرف به. فقال عمر:

(الكامل)

قالت لجارتِها انْظُري ها مَنْ أُولى[1] وتَأَمَّلي مَنْ راكِبُ الأَدْماءِ[2]
قالت أبو الخطاب أَعْرفُ زِيَّهُ وركُوبَهُ لا شكّ غير مِراء[3]

وقد يطرأ تغير على مظهر الإنسان بسبب الشقاء والتعب، وهذا ما حصل مع (عمر) حينما زار عشيقته (نُعم) تغيّر حاله نتيجة عناء السفر وطول المسافة، مما جعل رفيقتها (أسماء) تنكره لتغيّر شكله مقارنة بما وصف به من حسن جمال، وطلعة بهية، فبدا أشعث أغبر، ضعيفاً، فلم يدل عليه سوى ذلك الرّداء المزيّن الذي يخصّه، فعبّر عمر عن هذا بقوله:

(الطويل)

قِفِي فانْظُري أَسْماءُ هل تَعْرِفينَهُ أهذا المُغيريّ[4] الذي كان يُذكرُ
أهذا الذي أطْرَيْتِ نَعْتاً فلمْ أكُن وعيشِكِ أنساهُ إلى يَوْمِ أُقْبَرُ
فقالت نَعَم لا شكّ غيّرَ لونه سُرى اللّيلِ يُحيي نصَّهُ[5] والتَّهجُّرُ
أخا سَفرٍ جوّابَ أرضٍ تقاذفَتْ به فَلَواتٌ فهو أشعثُ أغبَرُ
قليلٌ على ظَهْرِ المَطِيَّة ظلُّهُ سِوى ما نفى عنه الرّداءُ المُحبّرُ[6]

لقد شُهِر عمر بن أبي ربيعة بين النّساء بتلك العلامة الجسميّة البادية في أسنانه، والتي هي عبارة عن أثر تبقّى في سنيّه الأماميتين. فقال عمر:

---

[1] من أُولى، من هؤلاء.
[2] الإبل ذات لون مشرّب سواداً أو بياضاً. (راجع اللسان، مادة أدم).
[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة،ص 20-21.
[4] المُغيريّ: هذا لقب عمر نسبة إلى جدّه (المُغيرة).
[5] نَصّه: ضرب من السير السريع.
[6] م.ن، ص 120.

(الخفيف)

قَــدْ صَــدقْنَاكَ إذ ســألتَ، فمــن أنــــ ـــتَ؟ عســى أنْ يَجُــرَّ شــأْنٌ شُــؤُونا
ونَــرى أنّنــا عَرَفْنَــاك بالنّعــــ ـــتِ بظَــنٍّ، ومــا قَتَلنــا يــقينا
بِسَــوادِ الثّــنيّتينِ، ونَعْــتٍ قــد نــرَاهُ لِنــاظِرٍ مُــسْتَبينا[1]

والكائن البشريّ يسعى دائماً إلى الظهور في أحسن صورة، فاهتدى إلى صنع الملابس المناسبة لجنسه وبيئته سواء أكان رجلاً أو امرأة. فملابس أهل الحاضرة تختلف عن ملابس أهل البادية، بهذا تكون الملابس علامة غير لفظيّة دالة على إقليم مرتديها، وكذلك على طبيعته النفسيّة والذوقيّة والدّور الاجتماعيّ، والوظيفيّ الذي يشغله الفرد في مجتمعه.

أبدع عمر بن أبي ربيعة في نقل الصورة التي تبدو عليها امرأة عصره، المرأة المنعمة التي ترتدي الملابس الناعمة، بأزهى الألوان، فهي تعكس ذوق امرأة عصره التي تعيش حياة مدنيّة تختلف عن تلك الحياة القاسيّة التي تعيشها نساء الباديّة. فقال عمر:

(الكامل)

مازِلْــتُ أَتْــبَعُهُمُ لأَسْــمَعَ حَــدْوَهُمْ حتّــى دَخَلْــتُ علــى رَبِيبــة هــودجِ
نَظَــرَتْ إلــيّ بِعَــينْ رِئْــمٍ أَكْحَــلٍ عَمْــداً وَرَدَّتْ عَنْــك دَعْــوَةَ عَــوْهَجِ[2]
فَبَهــتْ بــدُرّ حَلِيِّهــا وَوِشــاحِها وَبَرِيمِهــا وَسِــوارِها فالــدُّمْلُجِ[3] [4]

وقال عمر:

(البسيط)

قالــت ثُرَيّــا لأتْــرابٍ لهــا قُطُــفٍ[5] قُمــن نُحَــيّ أبــا الخطَّــاب مِــنْ كَثَــبِ
فَطِــرْنَ حَــدّاً لِمَــا قالــت وشَــايَعَها مثــلُ التّماثيــلِ قــد مُــوِّهن بالــذَّهبِ
يَــرْفُلْنَ فــي مِطرَفــات السّــوسِ آونــةً وفــي العَتيــقِ مِــنْ الــدّيباج والقَصَــبِ
تــرى عَلــيْهِنّ حَلْــي الــدُّرِّ مُتّسِــقا مــع الزَّبَرْجَــدِ والياقوتِ كالشُّــهُبِ[6]

---

(1) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 407.
(2) عوهج: الظبية الطويلة العنف.
(3) الدُّملُج: الجوهر، نوع من أنواع الحُليّ.
(4) م.ن، ص 83.
(5) قُطُف: جمع قطوف، القصيرة الخطى تمشي على مهل. كثب: قرب.
(6) م.ن، 61 -62.

وقال عمر:

(المنسرح)

يَرْفُلْنَ[1] في الـرَّيْطِ والمُـرُوطِ مـن الـــ خَـــزِّ[2] يُسَـــحِّبْنَها علـــى الكُثُـــب[3]

4- حركة ترصد وبغض ولوم العاشقين:

لقد استطاع شاعر الغزل من خلال لغة الجسد أن يحصل على عدّة رسـائل، ممّـا فهمـه بنظرته الثاقبة وإحساسه المرهف من الهيئة الجسميّة للمترصدين له. فجميل بثينة لاحظ من هيئـة بعض الناس شدّة إصغائهم لكل من يأتي بخبر عنه، وعن محبوبته، وتبيّن له ذلك من خلال اتّجـاه حركة أذنهم إلى الشخص المخبر، وكما لمس ذلك العداء الذي رآه في نظرات أعين البعض مـنهم حيث أخذت ترمقه بقسوة، وكما استشعر من حركات بعض النساء اللاتي وجّهن اللوم إلى محبوبته التي عكستها حركة أيديهنّ المشيرة إليها، والمصاحبة للسان حالهن الناطق بكلمات اللوم هذه. فقال جميل معبّراً عن تلك العلامات التي جسّدتها له تلك الهيئة الجسميّة التي بات عليها مترصدو حبّـه لبثينة ولائماتها من النساء:

(الطويل)

أحقّـــاً، عبـــادَ الله، أنْ لســـتُ زائـــرًا بُثينـــةَ، إلا أُصـــغِيتْ لـــي المســـامِعُ

وإلاّ عَـــداني دونَ بُثْنَـــةَ أَعـــينٌ حِـــدادٌ[4] ولامتْهـــا النســـاءُ الهَلامِـــعُ[5]

وكما أحسّ عمر بن أبي ربيعة ذلك الضرر والشرّ من قبل لائماته على وصاله للمرأة التي عشقها، وهي (عبدة) بزعمهنّ أنّ حبّها عارٌ عليه، وذلك من خلال ما أوحت بـه لغـة أجسـادهن وإيماءاتهن فقال:

(الكامل)

إنّ العَـــواذِلَ قـــد بكَـــرْنَ يلُمنَنـــي وَحَسِـــبتُ أَكثـــرَ لَـــومِهِنَّ ضِـــرارا

وزَعَمْـــنَ أنّ وِصـــال عَبْـــدَةَ عائـــدٌ عـــاراً علـــيّ ولَـــيْسَ ذلـــك عـــارا[6]

وفي موقف آخر مع اللائمين، فطلب عمر من رفيقيه الإقلال من لومهما له، لما يصبو إليه من عشق، فأخبرهما أنّ لومهما له لا يجدي معه نفعاً ولا يردعه عن حبّه، فحال جسمه تخبرهمـا

---

(1) يرفلن: يتبخترن. الرّيط: جمع ريطة، وهي الملاءة وكل ثوب رقيق.
(2) خزّ: لباس من صوف.
(3) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص63.
(4) حِداد: غاضبة. الهلامع: الخفاف إلى اللوم.
(5) ديوان جميل، ص117.
(6) م.ن، ص 162.

بصدق عمّا يكنه قلبه من عشق للحبيب، أي أراد أن يؤكد لهما أنّ العشق لا يرحم الإنسان الصبّ ولو عارضه فيه جميع الناس، وإن هلك دونه. فقال:

(الطويل)

خليليَّ، بَعْضَ اللّومِ لا تَرْحَلا به ... رَفيقَكُما حتّى تَقُولا على عِلْمِ[1]
خَليليَّ ما حُبٌّ كَحُبِّ أُحِبُّهُ ... ولا داءُ ذي حُبٍّ كَدائي ولا هَمّي
خَليليَّ، قد أَعْيا العَزاءُ فَخَفِّفا ... ولا تُبْديا لَوْمي فيُنبيكُما جِسْمي[2]

يعرف الإنسان العربي خطورة ما يصبو إليه قلبه من عشق النساء، في ظلّ مجتمع محافظ، فسوف يلقى العداء والشدّة من قبل أقارب المحبوبة، فكانت إيماءاتهم الصوتية والصوريّة توحي بهذه المعاني، فأحسن عمر بن أبي ربيعة التعبير في مثل هذه المواقف، فقال:

(الطويل)

إذا زُرْتُ نُعما لمْ يَزَلْ ذو قَرابةٍ ... لها كُلّما لاقَيْتُها يَتَنَمَّرُ
عزيزٌ عليهِ أنْ أُلِمَّ[3] ببَيْتِها ... يُسِرُّ لي الشحناءُ والبغضُ مظهرُ[4]

وقال عمر أيضاً:

(الكامل)

ومُشاحِنٍ ذي بِغْضَةٍ وقرابةٍ ... يُزْجي لأقْرَبِه عَقارِبَ[5] لُسَّعا
يَسْعَى لِيَهْدِمَ ما بَنَيْتُ وإنَّني ... لَمُشَيِّدٌ بُنيانُه المُتضَعضِعا
وإذا سُررْتُ يَسُوؤُهُ ما سَرَّني ... ويَرى المَسَرَّةَ مَرْوَتي[6] أن تُقرعا
وإذا عَثَرْتُ يَقولُ إني شامِتٌ ... وأقول حين أراه يعثُرُ دعدَعا[7]

وتبقى المرأة العربية تحسب حسابا لمجتمعها المحافظ، فتحبس حبّها عن أنظارهم، فلا تخطو خطوة اتجاه ما تصبو إليه من حبّ عاطفيّ، إلا وشعور الخوف ينتابها من أولئك الرقباء

---

(1) لا ترحلا، رويت لا تزحلا أي لا تُعييا، ينظر حاشية شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 338..
(2) ديوان جميل، ص 338.
(3) ألم: نزل.
(4) م.ن، ص 119-120.
(5) عقارب لسّع: كناية عن الكلام المؤذي.
(6) المروة: حجر الصُّوان، ويقرع مروتي كناية عن الانتقاص، ينظر حاشية شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 229.
(7) دعدعاً: كلمة تقال للعاثر ومعناها قم و اسلم. ينظر حاشية، م. ن، ص 229.

والمحيطين بها من الأهل والأقارب، ويكون ذلك بيّن للناظرين من خلال مشيها، وحركة انفعالها عندما تشعر بوجود الحبيب أو حينما يقع بصره عليها. قال عمر بن أبي ربيعة:

(المتقارب)

فقامَتْ فَقُلْتُ بَدَتْ صُورَةٌ ... مِنْ الشّمْسِ شَيَّعَها الأَسْعَدُ[1]

فجاءَتْ تَهادى على رِقْبَةٍ ... مِنْ الخَوْفِ أَحْشاؤُها تُرْعَدُ

وكَفَّتْ سَوابِقَ مِن عبْرَةٍ ... على الخَدِّ جالَ بها الإثْمِدُ[2]

تَقولُ وتُظْهِرُ وجداً بنا ... ووَجْدي وإنْ أَظْهَرتْ أَوجَدُ[3]

وقال عمر أيضاً:

(الهزج)

ألا حَيَّ التي قامَتْ ... على خَوْف تُحَيّينا

فَفَاضَتْ عَبْرَةٌ مِنْها ... فكاد الدَّمعُ يُبكينا[4]

---

[1] الأسعد: برج الحمل.
[2] الأثمد: الكحل الذي يكتحل به.
[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص94.
[4] م. ن، ص385-386.

المبحث الثاني:- لغة لسان حال فئة المترصدين من الرقباء والوشاة والكاشحين

إنّ طبيعة النفس الإنسانيّة لا تحب من يقيدها، أو يحدّ من تصرفاتها، أو يراقب سلوكياتها سواء أكان ذلك عن قصد أو غير قصد، فهي تحاول جاهدة التخلص من هذه القيود، أو الأحرى تتجنّبها إذا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. فما بالك بمن ابتلي بداء الحبّ وشاع خبره، فإنّه سيجد من يترصده عن عمد، وهذا ما يزيد من معاناة المحبّ، ويدفعه إلى كبت حبّه، فيحجب لسانه عن البوح به أمام من يرقبه، فيربط نفسه عن الكلام مستعيناً بلغة الجسد كبديل يصرّح عبره كلا طرفي الحبّ عن مشاعرهم.

ولقد حفل شعر الغزل الحجازي في العصر الأمويّ بمصطلحات لفظيّة تطلق على المترصدين للمحبين أخذت تتردد على ألسنة الشعراء العاطفيّين، تتمثل في: الرقيب، والعاذل، والكاشح، والواشي، والعين. فجاء إطلاق كل مصطلح من هذه المصطلحات ليظهر تباين غرض أصحاب هذه المسميّات من المراقبة، أي أنّ تعدّد المسميات لهذه الفئات التي اهتمت بتتبع المحبين أينما حلّوا، فالتصقت دلالة كل منها بطبيعة أصحاب هذه المصطلحات، ومن منطلق الدور الذي سعت إليه في ترصد المحبّين. وهذا التباين في مفهوم هذه المصطلحات التي أطلقت على أشخاص كان لهم تأثير كبير في سلوك المحبين، وتبدّل أسلوب تواصلهم مع الحبيب، أظهرته كتب الأدب والعشاق، على نحو ما ورد في كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي، وكتاب "تزيين الأسواق في أخبار العشاق" لداوود الأنطاكي. فالعاذل هو الإنسان الذي يقوم بتوجيه اللوم لمن اشتدّ عليه الوجد، فيكون بمثابة الناصح الحريص على صديقه فيأتيه بأسلوب لطيف، فيه رفق، وحسن تواصل بما يتلاءم مع الوضع المؤلم الذي يمرّ به العاشق، الأمر الذي قد يُحدث استجابة معينة تجعله يتفهم الحالة التي عليها المحبّ. وهناك العاذل الزاجر الذي لا يكاد يفيق أبداً من لومه، وتعنيفه للولهان في حبّه، الأمر الذي يؤدي إلى النفور منه، وبغضه، فلا يستجاب لزجره فيزيده هذا الزجر تعلّقاً بالحبيب. يقول ابن حزم الأندلسي: "ولقد رأيت من اشتدّ عليه وجده وعظم كلفه حتّى كان العذل أحبّ شيء إليه، ليرى العاذل عصيانه ويستلذّ مخالفته، ويُحصّل مقاومته للائمه وغلبته عليه"[1].

وهناك الرقيب غير المُتعمّد لملاحقة هؤلاء المحبين، ولكنّ الصّدفة جمعتهما في مكان واحد، ومع ذلك فهو مصدر قلق لهما، وقد يكون عازماً على كشف سرّهما. ومن الرّقباء من يتعمَّد مراقبة المحبيّن واختلاس النظر إليهما لكشف حقيقة أمرهما، ولاسيّما إذا كان هذا الرقيب ممّن ابتلي

---

[1] ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص 71.

بالعشق، فيكون على علم بحركات المحبين ممّا يزيد في فرض القيود عليهم، فيتحدّونهم بابتكار أساليب جديدة غير لفظية، يتواصلون مع الحبيب من خلالها. فتحدث (ابن حزم) عن هذه الفئة من الرقباء في كتاب "طوق الحمامة" فقال: "ومن آفات الحبّ الرقيب،...، والرقباء أقسام، فأوّلهم مُثقل بالجلوس غير متعمّد في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه وعزما على إظهار شيء من سرّهما والبوح بوجودهما والانفراد بالحديث. ولقد يعرض للمحب من القلق بهذه الصفة ما لا يعرض له ممّا هو أشدّ منها، وهذا وإن كان يزول سريعاً، فهو عائق حال دون المراد و قطع متوفر الرجاء...، ثم رقيب قد أحسّ من أمرهما بطرف، وتوجسّ من مذهبهما شيئاً فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك، فيدمن الجلوس، ويطيل القعود، ويتخفّى بالحركات ويرمق الوجوه، ويحصّل الأنفاس، هذا أعدى من الحرب".[1]

ومن آفات الحبّ، التي ذكرها (ابن حزم) صنف ثالث: وهم الوشاة، وجعلهم أيضاً أصنافاً: "أحدهم واش يريد القطع بين المتحابّين فقط، وإنّ هذا لأفتَرُهُما سوءةً...، والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به وهذا أشدّ شيء وأقطعه وأجزم لاجتهاد الواشي واستفادة جهده. ومن الوشاة جنس ثالث، وهو واشٍ يسعى بهما جميعاً ويكشف سرّهما،..."[2] وتردّد في شعر الغزل أيضاُ مصطلح الكاشح وهو العدوّ المبغض.[3]

وهذه الأصناف من الناس كانت مبغضة لدى العشّاق، فيرونهم عقبة تعترض سبيل حبّهم العاطفي وما يرتبط به من كلام شاعري، يرغب كلا طرفي الحبّ التصريح به كتبادل مشاعر وعواطف الحبّ التي تَلُم بهما، الأمر الذي جعلهم يلجؤون إلى الاستعانة بلغة الجسد باستمرار كي يحدّوا من نشر أخبارهم العاطفيّة التي تصطدم مع ثقافة مجتمعهم الذي لا يؤمن بإقامة علاقة عاطفية بين الرجل والمرأة ما دامت لا تدخل ضمن الرابطة المسموح بها، رابطة الزواج ورابطة قرابة الدّم.

فجعل شعر الغزل مكانة لهذه الفئات، حيث عبّر الشعراء العاطفيّون عنها في معظم قصائدهم بعدّة صور، تتمثل في اللّائمين الذين يحاولون إقناع المبتلى بالعشق بنسيان المحبوبة، وترك حبّها لأنّه لا جدوى منه، وفئة أخرى تترصدهم وتراقب ما يحصل بينهم لفضح سرّهم، وأخرى توقع بين المحبين لتفسد العلاقة بينهما، فكانت هذه الفئات دائماً بالمرصاد للمحبين، ترقبهم من بعيد وأحياناً عن قرب، فأصبح اللّوم، والزّجر، والتّرقب، والبغض أو إفساد العلاقات من قبل هذه الفئة من البشر علامات ملتصقة بها، يفصح عنها للمحبين سلوكهم ومظهرهم الجسميّ، وفي هذا ما يدعو المحبين إلى أن يحذروهم كلّما رأوا منهم مثل هذه العلامات.

---

(1) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص 74- 75.
(2) م. ن، ص 78- 79.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة: كشح.

1) فئة اللّوام والعذّال:

كان الناس يكثرون من لومهم للعشّاق لتعلّقهم بالحبّ العاطفي الذي هو في نظـرهم إثـم، وإعياء يلحق بالمحبّ، ولكنّ هؤلاء العشّاق لم يجدوا في هذا اللّوم النصح والإرشاد، بل وجدوا فيه الضرر والأذى لمشاعرهم اتّجاه حبّهم العاطفيّ. وكان المحبّ دائماً يطلب من لائمه الكفّ عن عتابه له، قال قيس بن الملّوح:

(الطويل)

خليلـــيّ كفّـــا لا تلومـــا متيّمـــا ولا تقـــتلا صـــبّا بِلَومِكُمـــا ظلمـــاً[1]

وكان المُحب يبدي مخالفته لمن يتوجه إليه بالعتاب واللّوم لتعلقه بالمحبوب وملاحقته له في كل مكان، فلا يلتفت إلى لومه ولا يأخذ به، فيزيده اللّوم تمسكاً بالحبيب ويصرّ على لقائه، قال ابن الملوح:

(الطويل)

لقـــد أَكْثَـــرَ اللَّـــوَّامُ فيـــك مَلامَتـــي وكـــانوا لمَّـــا أبـــدوا مِـــنَ اللَّـــومِ أَلْوَمَـــا
وَقَـــد أَرْسَـــلَتْ ليلـــى إِلـــيَّ رَسُـــولَها بـــأَنْ آتِنـــا سِـــرّاً إذا اللّيـــلُ أَظْلَمـــا
فَجِئْـــتُ علـــى خَـــوفٍ وَكُنْـــتُ مُعَـــوِّذا أُحـــاذِرُ أيقاظـــاً عُـــداة ونُوّمـــاً[2]

وقال ابن الملوح أيضاً في العاذل:

(الوافر)

لهـــا حـــبٌّ تَنشّـــأ فـــي فـــؤادي فلـــيس لـــه وإن زُجِـــرَ انتهـــاءُ
وعاذلـــــة تقطعنـــــي ملامـــــا وفـــي زجـــر العـــواذلِ لـــي بـــلاءٌ[3]

2) فئة الوشاة:

الوشاة هم الفئة التي تسعى بالنميمة بين المتحابين، فمنهم من يسعى بالوشاية لإفساد العلاقة بيـنهم، وإقناع أحدهم بترك الآخر، قال ابن الملوح:

(الطويل)

يقـــولُ لـــيَ الواشـــونَ إذْ يَرْصُـــدونني وَمـــنْهُم علينـــا أعـــينٌ ورُصـــودُ

---

(1) ديوان مجنون ليلى، ص 258.
(2) م.ن، ص 260.
(3) م. ن، ص 42.

سَـــلا كُـــلَّ صَـــبٍّ حِبَّـــه وخَليلَـــهُ وأَنْـــتَ لِليلـــى عاشـــقٌ وودودُ[1]

وفئة أخرى من الوشاة تسعى بهما لتستفرد بالمحبوبة فتظهر سعادتها وفرحها بتأزم العلاقة بين طرفي الحب وانقطاعها بينهما، فقال أيضاً:

(الطويل)

وأنـــتِ التـــي اخْلفتنـــي وَعَـــدْتني وَأشـــمَتِّ بـــي مَـــنْ كـــان فيـــك يَلُـــومُ
وأبْرَزَتْنـــي للنّـــاسِ ثُـــمَّ تَرَكْتِنـــي لَهُـــمْ غَرَضـــاً أُرْمـــى وأَنْـــتِ سَليـــمُ
فلـــو أنّ قـــولاً يَكلِـــمُ الجِسْـــمَ قَـــدْ بـــدا بِجِسْـــمي مِـــنْ قَـــوْلِ الوُشـــاةِ كلـــومُ[2]

وقال جميل:

(الطويل)

لقـــد فـــرح الواشـــون أنْ صـــرمتْ حبلـــي بثينـــةُ أو أبـــدت لنـــا جانـــب البُخـــلِ
وكَـــم قـــد رأيْنـــا ســـاعياً بِنَميمـــةٍ لآخـــرَ لـــمْ يَعْمِـــد بكـــفٍّ ولا رِجْـــلِ[3]

3) فئة الكاشحين:

الكاشح العدو المبغض لكل مُتحابَين، فيتعرّض للمحبوبة بالقيل والقال، فيفشي خبر حبّها ولقائها بالحبيب بين الأهل والأقارب، الشيء الذي يجبر الحبيب الإعراض، وتجنب المحبوبة، وقد يصل الأمر إلى قطع العلاقة معها ليرضي عين العدو المبغض، وقد يسعى الكاشح مثل الواشي بإفساد العلاقة بين طرفي الحب بالتعرض للحبيب، والكذب عليه بمكره وخبثه، فتعرض عنه. قال العرجي:

(الكامل)

وَأَطَعْـــتُ فيهـــا الكاشِـــحينَ فـــأَكْثَروا فيهـــا المَقَالَـــةَ شـــامِتاً وَمُعَرِّضـــاً
وســـفاهةٌ بـــالمَرْءِ صَـــرْمُ حَبيبـــهِ يُرْضـــي بهجرتـــهِ العَـــدُوَّ المُبْغِضـــا[4]

وقال عمر:

(السريع)

لمّـــا التَقَيْنـــا رَحَّبَـــتْ تِرْبُهـــا هِنْـــدٌ وقالـــت: قُلَّبـــاً حُـــوَّلا

---

[1] ديوان مجنون ليلى، ص 99.
[2] م. ن، ص 247.
[3] ديوان جميل، ص 174- 175.
[4] ديوان العرجي، ص 254.

وَأَعْرَضَـــتْ، مِـــنْ غَيْـــرِ مـــا بِغْضَـــةٍ لِكاشِـــــحٍ لَـــــمْ يَـــــأْلُ أنْ يَمْحُـــــلا
بَلَّغَهـــــا كِـــــذْباً، ولَـــــمْ يَأْلُهـــــا غِشّـــاً، وَشَـــرُّ النّـــاسِ مـــن حَمَّـــلا[1] [2]

لقد اتّسم موقف المحبين من فئة الواشين بالكره الشديد، والدعاء عليهم لسـعيهم بالوشـاية وإفساد العلاقة مع المحبوبة، وتمنوا غيابهم من حياتهم، وعدم ظهورهم لا من قريب ولا من بعيد، فهم العدوّ المتشفي، فوجودهم في المكان الذي يجمع بين المحبين مبعث قلق لهم. قال ابن ذريح:

(الطويل)

يقولـــون: لُبْنَـــى فِتْنَـــةٌ كُنْـــتَ قَبْلَهـــا بِخَيْـــرٍ فـــلا تَنْـــدَمْ عَلَيهـــا وَطَلِّـــق
فَطاوَعْـــتُ أَعـــدْائي وعاصَـــيْتُ ناصِـــحي وَأَقْـــرَرْتُ عَـــيْنَ الشَّـــامِتِ المُتَخَلِّـــق[3]

وقال ابن الملوح:

(الطويل)

فَـــإنِ تَـــكُ ليلـــى قَـــدْ جَفَتْنـــي وَطاوَعَـــتْ على صَـــرْمِ حَبْلِـــي مَـــنْ وَشـــى وتَكـــذَّبا
فـــــلا مَرحبـــــاً بالشَّـــــامتين بِهجرِنـــــا ولا زمـــــنٍ أَمســـــى بِنـــــا قَـــــدْ تَقَلَّبـــــا[4]

وقال عمر فيهم:

(الطويل)

أَقـــولُ لِـــواشٍ سَـــالَني وهـــو شـــامِتٌ ســـعى بَيْنَنـــا بالصَّـــرْمِ حِينـــاً وَأَجْلَبـــا
سؤالَ امرئٍ يُبْـدي لنـا النُّصْـحَ ظـاهراً يُجِـــنُّ[5] خـــلالَ النُّصْـــحِ غِشّـــاً مُغَيَّبـــا
على العَهْدِ سَـلمى كـالبَرِيِّ[6] وقـد بـدا لنـــالا هـــداهُ اللهُ مـــا كـــانَ ســـبّبا
نعـــاني لَـــدَيْها بَعـــدما خِلـــتُ أنّـــهُ له الويلُ عن نعتي لديها قد اضْـرَبا[7]*[8]

---

[1] حمّلا: أغرى.
[2] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، 291.
[3] ديوان قيس لبنى، تحقيق إميل بديع يعقوب، ص 68.
[4] م.ن، ص 323.
[5] يُجنّ: ستره.
[6] البريّ: البريء، حذفت الهمزة للتسهيل.
[7] اضربا: ترك.
[8] ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 45. *- القصيدة للعرجي أيضاً في ديوانه ص 168.

وقال ابن الدمينة:

(الطويل)

ومـــا حُـــبُّ أمِّ الغَمْـــرِ إلا سَـــجيّةٌ ... عليهـــا بَرانـــي اللهُ ثُـــمَّ طَـــواني
طَـــواني علـــى حُـــبٍّ لهـــا وســـجيّةٍ ... أجَـــلْ وأُنُـــوفُ الكاشِـــحين عَـــواني[1]
نـــذُودُ النُّفُـــوسَ الحائمـــاتِ عـــن الهـــوى ... إذا كـــان قلْبانـــا بِنـــا يَـــردانِ[2]

فلقد اضطرّ العشّاق إظهار الإعراض والصدّ عن الحبيب لإيهام هؤلاء الوشاة، والكاشحين بالجفاء اتجاه المحبوب، وانقطاع العلاقة معه، ليقطعوا عليهم ما يسعون إليه من إلحاق الأذى بهم، وما يترتّب على ذلك من تخريب العلاقة مع المحبوبة، وتشويه صورتها في مجتمعها، لهذا تعمّدوا إلى إبداء بعض الحركات الجسميّة التي تثبت لهم تبدّل العلاقة مع المحبوبة، تماماً كما يريدها الكاشحون والوشاة، وحتّى لا تكون لهم حجّة في تتبع أخبارهم، وبهذا التظاهر في تغيّر تصرّفات الحبيب اتّجاه محبوبته، يصبحون في أمن من تسليط الأضواء عليهم من قبل هذه الفئات. فقال ابن الملوح:

(الطويل)

وَمَنَّيتَنِـــي حتّـــى إذا مـــا رَأَيْتنـــي ... علـــى شَـــرَفٍ للنَّـــاظِرين يُريـــبُ
صَـــدَدْتِ وأَشْـــمَتِّ العُـــداةَ بِهَجرِنـــا ... أَثابَـــكِ فيمـــا تَصْـــنَعينَ مُثيـــبُ
أُبَعِّـــدُ عَنْـــكِ الـــنَّفْسَ والـــنَّفْسُ صَـــبَّةٌ ... بِـــذِكْرِكِ والمَمْشَـــى إليـــكِ قَريـــبُ
مَخافَـــةَ أنْ تَسْـــعى الوُشـــاةُ بِظِنَّـــةٍ ... وأُكْـــرِمُكُم أَنْ يَسْـــتَريبَ مُريـــبُ[3]

وقال جميل:

(الطويل)

فـــإنْ كُنْـــتَ تهـــوى أو تريـــدُ لِقاءَنـــا ... على خَلْـــوةٍ فاضـــربْ لنـــا منـــك موعـــدا
فقلـــتُ ولَـــمْ أَملـــكْ ســـوابقَ عَبْـــرةٍ: ... أَأَحْسَنُ مـــن هـــذا – العشيَّـــةَ- مَقْعَـــدا
فقالـــت: أخـــاف الكاشِـــحين وأَتّقـــي ... عيونـــاً مِـــنَ الواشـــينَ حـــوليَ شُـــهّدا[4]

---

[1] عواني: جمع العاني، وهو الذليل الخاضع.
[2] ديوان ابن الدمينة، ص 30.
[3] م. ن، ص 51.
[4] ديوان جميل، ص 79.

وقال جميل أيضاً:

(الطويل)

نصـــد إذا مـــا النَّـــاسِ بـــالقول أَكْثَـــروا، وتجـــــري بالصَّـــــفاءِ الرَســـــائلُ
فـــإن غَفَـــلَ الواشـــونَ عُـــدْنا لِوصْـــلنا وعـــاد التَّصـــافي بيننـــا والتّراسُـــلُ[1]

وقال الأحوص:

(الكامل)

فَصَـــدَدْتُ عَنْـــكَ، ومـــا صَـــدَدْتُ لِبغْضَـــةٍ أَخْشـــى مَقَالَـــةَ كاشِـــحٍ لا يَعْقِـــلُ
وَتَجَنُّبِـــــي بَيْـــــتَ الحَبيـــــبِ أَوَدُّهُ أُرْضـــي البَغِـــيضَ بـــه حَـــديثٌ مُعْضِـــلُ[2]

وقال ابن الدمينة:

(الطويل)

فمـــا أَعْلَـــمَ الواشِـــينَ بالسِّـــرِّ بَيْنَنـــا وَنَحْـــنُ كِلانـــا لِلْمَـــوَدَّةِ كاتِـــمُ
وَمَـــا نَلْتَقـــي إلا الفُجـــاءَةَ بَعْـــدما نَـــرَى أنَّ أَدْنَـــى عَهْـــدِنا المُتقـــادِمُ
ومـــا نَلْتَقـــي إلا لِمامـــاً علـــى عِـــدى عِـــدادَ الثُّرَيّـــا وهـــي مِنْـــكِ الغَنـــائمُ[3]

لعبت فئة الواشين والكاشحين دوراً كبيراً في فرض بعض الأساليب غيـر اللّفظيـة علـى العاشقين ،والمتمثلة على الأغلب في لغة الجسد، فأجبروا على التّواصل من خلالها مع المحبـوب خلسة، كلّما غفلت عنهم هذه العيون المحيطة بهم برهةً. قال ابن الملوح معبراً عن ذلك:

(الطويل)

ومـــا بَـــرِح الواشـــون حتـــى بَـــدَت لنـــا بُطـــونُ الهـــوى مقلوبـــةً لِظُهـــورِ[4]

فابن الملوح وحبيبته (ليلى) اضطّرا للتظاهر بخلاف ما هو معهود لدى الواشين من حـبّ اللّقاء، وتبادل حديث الهوى، فعمدوا إلى تجنّب اللقاء والإعراض عن بعضهم، وإظهار التبـاغض لبعضهما من خلال حركاتهم وإيماءاتهم الجسمية.

---

(1) ديوان جميل، ص 159.
(2) شعر الأحوص الأنصاري، ص 167.
(3) ديوان ابن الدمينة، 23.
(4) ديوان مجنون ليلى، 169.

وكان للغة العيون نصيب كبير في عملية تواصل المحبين غير اللّفظي اتّقاء أعين مترصديهم من الواشاة والكاشحين والرّقباء. فمحبوبة جميل طلبت منه أنْ يمنحها حبّه بالنظر إليها بعين جلية دون اعتبار لأولئك الكشّح الذين يخفون لهم العداء، والمتنصحين الذين يتظاهرون بتقديم النّصح له. قال جميل:

(الطويل)

وقالت: عيونٌ لا تزالُ مُطِلّةً عليناً، وَحَولي مِنْ عَدُوّك كُشَّحُ
إذا جِئْتَنا فانْظُرْ بِعَيْنٍ جَليَّةٍ إلينا، ولا يَغْرُرْكَ مَنْ يَتَنَصَّحُ[1]

ولقد وجد (جميل) في نظرة محبوبته التي تعمّدت توجيهها إليه، لمّا حان وقت الضّيم (الفراق) نظرة إخلاص ووفاء لحبّها، أكذبت كل كاشح تقوّل على محبوبته، بأنّها تُظْهِرُ ما تضمره حقيقة اتّجاهه وهو النفور منه، وبالتالي الابتعاد عنه ونسيانه. فقال:

(الطويل)

فلما رَأَتْ جِدّ النَّوى ضامتِ النَّوى بِنَظْرَةِ ثَكْلى أَكذبتْ كُلَّ كاشِحِ[2]

وبقيت الدموع التي تجري من عين (جميل) وعين محبوبته التي لا تكاد تلاحظ إلا لهما عندما أخذا يتبادلان النظر سرّاً، تُظْهِرُ ما بينهما من المودّة والمحبة على عكس ما تظاهرت به محبوبته بحركة جسمها، وهو الصدّ والإعراض عنه، وتظاهره هو الآخر بالابتعاد عنها وتركها، الأمر الذي جعل الناس يكذّبون ما ما شيّعه هؤلاء الوشاة من أقوال عنهما، فقال:

(الطويل)

يُكَذِّبُ أقوالَ الوشاةِ صُدُودُها ويحتازها[3] عني كأنْ لا أُريدُها
وتحت مجاري الدّمعِ مِنا مَودةٌ تُلاحَظُ سِرّاً، لا يُنادَى وليدُها[4]

وكذلك حال عمر بن أبي ربيعة مع عشيقته، فامتنعا عن الظهور خوفاً من عيون الوشاة والكاشحين رغم شوقهما الشديد للالتقاء، فعكست عيونهما ما يشعران به من أمل وخوف في نفس الوقت، فتَعَجَّبَ (عمر) من اجتماع هذين الضدين اللّذين قرأهما كلٌّ منهما في عين الآخر، حيث قال:

---

(1) ديوان جميل، ص 46.
(2) م. ن، ص 55.
(3) يحتازها: يمنعها عني.
(4) م.ن، ص 69 – 70.

(الطويل)

فَرُحْنَـــا بِقَصْـــرٍ نَتَّقَـــي العَـــيْنَ والرِّيـــا وَقَـــوْلَ العَـــدُوِ الكاشِـــحِ المُتَـــنَمِّمِ
وفـــي العَـــيْنِ مَرْجُـــوٌّ، وآخَـــرُ يُتَّقَـــى، فيالـــك أَمْـــراً، بـــين بُـــؤْسٍ وأَنْعُـــمِ[1]

وجعل كذلك (عمر) التّظاهر بالصّد والإعراض عن الحبيب علامة جسمية يستترون وراءها أمـــام الناس لتكذيب ما نقله الرّقباء والوشاة والمتقوّلين عليهم، فقال:

(الخفيف)

فالتَقينـــا فَرَحَّبَـــتَ حِـــينَ سَـــلَّمَتْ وكَفَّـــتْ دَمْعـــاً مـــن العَـــيْن مـــارا
ثُـــمَّ قالـــت عنـــدَ العِتـــابِ رَأْيَنـــا فِيـــكَ عَنَّـــا تَجَلُّـــدا وازْوِرارا[2]
قُلْـتُ كـلا لاهِ[3] ابـنُ عمِّـكِ بـل خِفْـ نـا أُمـوراً كُنّـا بهـا أَغْمـارا[4]
فَجَعَلْنـــا الصُّـــدودِ لمَّـــا خَشـــينا قالـــةَ النَّـــاسِ بيننـــا أَسْـــتارا
وَرَكِبْنـــا حـــالا لنُكْـــذبَ عنَّـــا قـــول مـــن كـــان بالبنـــانِ أَشـــارا[5]

وقال أيضاً:

(الطويل)

لقد أَرْسَلَتْ، في السِّـر، ليلـى بـأَنْ أقـمْ، ولا تنْأنـــا، إنَّ التَّجَنُّـــب أَمْثَـــلُ
لعـــلَّ العُيـــونَ الرّامِقـــاتِ لِودّنـــا تُكـــذَّبُ عنّـــا، أو تنـــامُ فَتَغْفُـــلُ
فقلـــت، وَقَـــدْ ضـــاقَتْ علـــيّ بِرُحْبِهـــا بـــلادي بمـــا قـــد قيـــل، فـــالعينُ تَهْمِـــلُ
ســـأجتنبُ الـــدّار التـــي أَنْـــتُم بهـــا ولكـــنّ طَرْفـــي نَحْـــوكُم ســـوف يَعـــدِلُ
أَلَـــمْ تَعلمـــي أنّـــي، فَهَـــل ذاك نـــافِعُ لَـــدَيْكِ ومـــا أُخفـــي مـــن الوَجْـــدِ أَفْضَـــلُ
أرى مُسْـــتَقيمَ الطّـــرْفِ مـــا أَمَّ نَحْـــوكُمْ فإن أَمَّ طَرْفي غيركُم فهـو أَحْـــوَلُ[6]*

وهذا العرجي رأى ذلك الدّمع الذي يمور في عيني حبيبته، فحاولت حبسه لئلّا يلتفت إلـى سـكبه الواشي، والكاشح فيستدلا من خلاله على مدى استمرار حبّها الذي تخفيه في وجدانها اتّجـاه ذلـك الحبيب فتفتضح، فقال:

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، 324. تمّ ذكره في العلامات غير اللفظي التي ينقلها البصر، ص 102.
[2] ازورار: انحراف.
[3] لاه: لله.
[4] أغمار: جمع غُمر، وهو الغرير الذي لا تجربة عنده بالأمور.
[5] م.ن، ص 158.
[6] م.ن، ص 276. * الأبيات 1، 2، ذكرت في ديوان العرجي، ص 293.

(السريع)

تحُـــوذُ[1] بـــالبُرْد لهـــا عبـــرة جـــادت بهـــا العـــين ولـــم تُفْشَـــجِ

مخافـــةَ الواشـــين أن يفطنُـــوا لشـــأنِها والكاشِـــحِ المـــزعجِ[2]

[1] تحوذ: الأصل تحوز، تملك. البُرد: الثوب. تفشج: تسكب.

[2] ديوان العرجي، ص 190.

المبحث الثالث:- لغة تقاسيم الوجه

الوجه العضو البارز للمتفرس فهو أهمُّ أعضاء الجسد في التّواصل غير اللّفظي لما يكشفه من انفعالات طبيعيّة يتعرّض لها الفرد من فرح، وحزن، واشمئزاز، وخوف، ودهشة وغضب. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾.[1]

ولقد رسم القرآن الكريم صورة الإنسان الجاهل الذي يشتهي الذكور ويكره البنات كراهة شديدة، فإذا علم أنّ المولود الذي أنجبته زوجته أنثى، فإنّه يسودّ وجهه من شدّة الغم والأسف، فلا يظهر على أبناء جنسه خوفاً من الفضيحة.

وكانت ملامح وجه الرسول محمد – صلى الله عليه وسلّم – تثبت ما يقوله بلسانه، ويلاحظ الصحابة هذه العلامات في وجهه الكريم. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: "كان رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – إذا خَطَبَ احمّرت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه، حتّى كأنّه منذر جيش، يقول صبّحكم ومسّاكم".[2]

فالوجه بما فيه من فم وعينين وأنف وجبين أكثر أعضاء الجسم من حيث الدلالات غير اللّفظية لأنّ "الوجه يقع قريبا جدّاً من الدماغ، حيث تستقرّ انفعالاتنا، بحيث يبدو أنّه مرآته"[3]، كما أنّ الوجه يدلّ على شخصية صاحبه، وعمره، وصفاته وطبائعه وذلك لكثرة العضلات التي تنتشر تحت بشرة الوجه والتي تسمّى "العضلات تحت الجلدية" وإنّها تستجيب لأدنى سائل عصبي وتكشف أضعف أثر للانفعال[4]، والمشاعر الإنسانيّة تكون على الأغلب "مكتوبة على وجوهنا"[5]، يقول بول إيكمان: "إنّ ما هو عام أو مشترك بين أفراد الجنس البشري من تعبيرات الوجه هي الأوضاع المعينة التي تتخذها عضلات الوجه عندما يعبّر الشّخص عن انفعال معين"[6]. كما أنّ للاختلاف الثقافي والعادات والتقاليد والمكان الجغرافي دوراً في رسم التعبيرات غير اللّفظية على الوجوه التي تدلّ على معان معينة بالنسبة لجماعة معينة.

---

(1) سورة النحل، آية 58-59.
(2) العسقلاني، "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، 10/ 534.
(3) ناتالي باكو، لغة الحركات، ص 62.
(4) ينظر: ناتالي باكو، م.ن، ص 63.
(5) برنت. د. روبن، الاتصال و السلوك الإنساني، ص 185.
(6) برنت.د.روبن، م.ن، ص.186.

كما ينقل الوجه تعبيرات متباينة عن طرفيّ الحبّ مُظهراً ردود أفعالهم وفق ما يتعرضــون له من مواقف. وهذا ما أفصح عنه لسان الشاعر المحبّ معبراً عن إيماءات الوجه غير اللّفظيــة التي ترتسم عليه، والتي يبديها وجه الطّرف الآخر:

1 -الحزن والكآبة والتجهم:

عبّر عمر عن موقفه من فراق الأحبة يوم رحيلهم حيث بقي حزيناً، وارتسمت الكآبة على وجهــه لهذا الفراق فقال:

(الكامل)

رَاَعَ الفُــــؤادَ تَفــــــرُّقُ الأَحْبــــــابِ ... يــومَ الرَّحيــلِ فَهــــاجَ لــــي أَطْــــرابي
فظلِلــــتُ مُكْتَئِبــــا أُكَفْكِــفُ عَبْــــرَةً ... سحّــــاً تَفيــــضُ كواشــــلِ[1] الأَسْــرابِ
لمّــــا تَنــــادوا للرحيــــل وقرَّبــــوا ... بُــــزُلَ[2] الجمــــالِ لــطيّــــةٍ وذهــــابِ
كــــادَ الأَســــى يَقْضــــي عَلَيْــكَ صــــبابةً ... والوجْــــهُ مِنْــكَ لبــيْنِ إلْفــــكَ كــــابِ[3]

وفي موقف مختلف، فإنّ إحدى عشيقات عمر استقبلته بوجه متجهم عندما فاجأها بقدومه من غيــر ميعاد فعبّر عن هذا الموقف قائلاً:

(الكامل)

فَطَرَقْــــتُ بــــابَ العامِريَّــــةِ مُوهِنًــــا ... فِعْــــلَ الرَّفيــــقِ أَتــــاهُمُ للمَــــوْعدِ
فــإذا وليدَتُهــــا فَقُلْــتُ لهــا افتحــــي ... لِمُتَيَّــــمٍ صَــــبٍّ الفُــــؤادِ مُصيّــــدِ
فَتَجَهَّمَــــتْ لَمّــــا رَأَتْــــني داخــــلا ... بِتَلَهُّــــفٍ مــــن قَوْلِــهــــا وَتَهَــــدُّدِ
ثــم ارْعَــوَتْ شَــيئاً وخَفَّــضِ جأْشَهــــا ... بعــــد الطُّمــــوحِ تهجُّــدي وتــــوَدُّدي[4]

وصوّر (العرجي) نفس الموقف الذي مرّ به الشاعر (عمر)، حيث قابلته عشيقته بنفرة لمّا فاجــأها هو الآخر بقدومه، فلمّا هدأت ولانت قابلته بوجه مبتسم، فقال معبراً عن هذا الموقف:

(الخفيف)

أَعْلــى غيــر مَوْعــدٍ جِئْــتَ تَسْــري ... تَتَــخَــطّــى إلــى رؤوسِ النّــيــامِ
عَــذَلتني، فَقُــلْتُ: لا تَعْــذُليــني ... ودعــي اللَّــوْمَ واقْصِــدي فــي المَــلامِ
قــد تَجَشَّمْــتُ مــا تــرَيْنَ مــن الهَــو ... لِ ومــا جِئْــتُ هٰهُنــا لِخصــامِ

---

[1] كواشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة يقطر منه قليلاً لا يتّصل قطره.
[2] بُزُلَ: بازل: ما شق نابه وطلع (ما استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة).
[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص41 – 42.
[4] م.ن، ص 106.

فـــــارْعَوَتْ بعـــــد نَفْـــــرَةٍ نَفَرتْهـــــا بسُـــــكُونٍ وَهَمْـــــزةٍ وابْتســـــامِ[1]

قرأ عمر علامات الحزن والكآبة التي أظهرها وجه عشيقته خوفاً من انكشاف أمرهما مـــن قبل الحيّ، لمّا أمضى عندها معظم اللّيل إلا أقلّه، فطلبت المساعدة من أختيها لتسهيل أمر خروجـــه من غير أن يشعر به أحد، فأقبلتا مرتاعتين خوفاً من الفضيحة، ثم قلّلن من شدّة الخَطْـــبِ عليهـــا، فحاولن تدبير أمر خروجه من غير أن يحسّ بأمر وجوده أحد، فقال في هذا:

(الطويل)

فقامَـــتْ كَئيبـــا لـــيسَ فـــي وَجْهِهـــا دَمٌ مـــن الحُـــزْنِ تُـــذري عَبْـــرَةً تَتَحَـــدَرُ
فقالـــــتْ لأُخْتَيْهـــــا أَعِينـــا علـــى فتـــىً أَتـــى زائِـــراً والأَمْـــرُ للأَمْـــرِ يُقْـــدَرُ
فأَقْبَـــــلتا فارْتَـــــاعتا ثُـــــمَّ قالتـــــا أَقِلِّـــي عَلَيْـــكِ اللَّـــومَ فالخَطْـــبُ أَيْسَـــرُ[2]

تساءلت إحدى عشيقات عمر باستغراب عن سبب عبوسه كلّما ناطقته، ولعلّ ذلك يعود إلـــى أمـــر صدر منها، فلم يعجبه أو إصغائه لقول الوشاة أو الكاشحين:

(المديد)

للتـــــــي قالـــــــت لجارَتِهـــــا وَيْـــحَ قَلْبـــي مـــا دَهَـــى عُمـــرا
فـــــيم أَمْســـــى لا يُكَلِّمُنـــــا وإذا ناطقتُـــــــه بَسَـــــــرا[3]
أَبِـــــهِ عُتْـــــبى فأُعْتِـــبُـــــهُ أم بـــــهِ صَـــــبْراً فقـــــد صَبَـــــرا
أم حَـــــديثٌ جـــــاءَهُ كَـــــذبٌ أمْ بِـــــهِ هَجْـــــراً فقـــــد هَجَـــــرا
أم لقـــــولٍ قالَـــــهُ كاشِـــــحٌ كـــــاذِبٌ يـــــا لَيْتَـــــهُ قُبِـــــرا[4]

وبيّن (الأحوص) علامتين متضادتين بدت على وجهه، ووجه عشيقته، فهو إذا ما جاءها، فإنّه يقبل عليها بوجه طلق، بينما هي تستقبله بوجهها العابس، فقال:

(الطويل)

وإنِّـــي إذا مـــا جِـــئْتُكُمْ مُـــتَهَلِّلاً بـــدا مِـــنْكُمُ وَجْـــهٌ علـــيَّ قَطُـــوبُ[5]

---

(1) ديوان العرجي، ص 326.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 123.
(3) بسرا: عبس.
(4) م.ن، ص 179.
(5) شعر الأحوص الأنصاري، ص 77.

2 -اللطم:

إذا شعرت المرأة بمصيبة شديدة ستنزل بها، كانت تعبّر عن هذا الموقف بلطم وجهها بكفّها، وهذا ما فعلته إحدى عشيقات (عمر) عندما فاجأها بإقباله عليها، انتفضت ولطمت وجهها خوفاً من الفضيحة، فقال:

(البسيط)

فَجِئْتُ أَمْشي ولَمْ يُغْفِ الأُولى سَمَروا ... وصاحِبي هِنْدُوانِيٌّ بِهِ أُثُرُ

فلم يرُعْها وقد نَضَتْ مَجاسِدَها ... إلاّ سَوادٌ وَرَاءَ البَيْتِ يَسْتَتِرُ

فَلَطَّمَتْ وَجْهَها واسْتَنْبَهَتْ مَعها ... بَيْضاءُ آنسةٌ مِن شَأْنِها الخَفَرُ

ما بالُهُ حين يأتي أُخْتِ مَنْزلنا ... وقد رأى كَثْرَةَ الأَعداءِ إذ حَضَروا

قالت أَرَدْتَ بذا عَمْدا فَضِيْحَتَنا ... وَصَرْمَ حَبْلي وَتَحْقِيقَ الذي ذَكَرُوا[1]

3 -إظهار البهجة والمودّة والمحبّة:

لم يترك عمر بن أبي ربيعة شيئاً يخصّ عواطف المرأة إلا وأطلعنا عليه في شعره، فحينما تلمح المرأة من تعلّق بها، وهواها قلبه، فإنّها تشعر بالسرور والسعادة التي لا تفوقها سعادة، فيتهلّل وجهها بالابتسامة والنور، وتُظْهِرُ مودّتها وحبّها لهذا المعشوق، فيبادلها المحب نفس العواطف. قال عمر:

(الطويل)

فلمّا تواقفنا وسلّمتُ أشرقتْ ... وجوهٌ زهاها الحُسْنُ أنْ تتقنّعا[2]

وقال أيضاً:

(الطويل)

تُبينُ هوى مِنّا، وتُبْدِي شمائلاً ... وَوَجهاً لهُ من بَهْجَةِ الحُسْنِ رَوْنَقُ

فألْفَتْ لها من خالصِ الوُدِّ والهَوى ... جديداً، على شَحْطِ النَّوى ليس يَخْلَقُ

لدى عاشقٍ أَحْمى لها من فؤادِهِ ... على مَسرحٍ ذي صَفْوةٍ لا يُرنَّقُ[3]

---

(1) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 135.
(2) م.ن، ص 218.
(3) م. ن، ص 258- 259.

وقال عمر:

(الكامل)

وَجَلَـــتْ عَشـــيَّةَ بَطْـــنِ مكَّـــة إذ بَـــدتْ وجهـــاً يُضـــيءُ بياضُـــهُ الأسْـــتارا

كالشَّـــمسِ تُعْجِـــبُ مـــن رأى ويزينُهـــا حَسَـــبٌ أَغَـــرُّ إذا تُريـــدُ فِخـــارا[1]

عرف عمر من خلال تلك العلامات التي برزت على وجوه عشيقاته ما تكنّ له محبوباته من مودّة وحبّ. فقال:

(المتقارب)

ومَـــنْ إنْ ذُكِرْنـــا جَـــرى دَمْعُـــهُ ودَمْعـــي لِذكْـــرى لَـــهُ مـــائِرُ

ومَـــنْ أعْـــرِفُ الـــودَّ فـــي وجْهِـــهِ ويعـــرِفُ وُدّي لَـــهُ الناظِـــرُ[2]

وقال أيضاً:

(الطويل)

لقـــد حَبَّبـــتْ نُعْـــمٌ إلـــيَّ بِوَجْهِهـــا مَســـافَةَ مـــا بَـــيْنَ الوتـــائرِ فـــالنقعِ[3] [4]

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 147.

[2] م.ن، ص 136.

[3] م. ن، ص 221.

[4] الوتائر: مكان ما بين مكّة والطّائف. النقع: موضع قرب مكّة في جنبات الطّائف.

المبحث الرابع:- لغة العيون:

تتعدّد معاني الألفاظ تبعاً للسياق والمقام الذي ترد فيه، وكذلك يستطيع الإنسان أن يحصل على العديد من الدلالات الموحية من تلك النظرات التي تنطلق من العينين أكثر من عضو آخر، كما أنّه يستطيع نقل الكثير من المعاني والإيماءات عبرها للطرف الآخر، تبعاً للمواقف التي يتعرض لها والتي تعكس انفعالاته وأحاسيسه الداخليّة، كما بإمكانه أن يُرسل عبْرها رسائل للآخرين عن قصد ليعبّر لهم عن شعوره اتجاههم، وأكبر شاهد على الدور الذي تؤديه العينان وتفصح عنه ما نقله الخِطاب القرآني عن حالة المنافقين في مواقف الشدة والقتال، فأثبتت عيونهم ذلك الخوف من المشاركة في القتال كأنهم في ساعة احتضار، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.[1] لهذا مُنحت العين أهمية كبيرة في عملية التّواصل الإنساني قديماً وحديثاً:

فابن قيّم الجوزية أول ما تناوله من علامات المحبّة التي يستدّل بها على من ابتلي بالعشق، العلامات الصادرة عن النظر فاعتبر "العين باب القلب، وهي المعبّرة عن سرائره و الكاشفة لأسراره، فهي أبلغ في ذلك من اللسان، لأنّ دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها، ودلالة اللسان لفظية تابعة لقصده".[2]

بالرغم من أنّ العين جزء من الوجه إلا أنّها من أكثر أجزاء الوجه تأثيراً في عملية التّواصل الإنسانيّ وأكد على ذلك هذا (إلورث) (ELLSWORTH) بقوله: "إن كثيراً من السلوك غير اللّفظي، مثل حركة الأقدام، وتعبير الوجه، وأوضاع الجسم، قد لا تدرك معناها لأول وهلة، لكن لا نملك إلا أن نلاحظ المعنى الذي تنقله العين المحملقة مباشرة، فعلى الرّغم من أن السلوك لا يصاحبه ضجة أو حركة واضحة فإنّه يسترعي الانتباه بشكل فعال حتى لو بعدت المسافة بين الشخصين".[3] والشاعر قيس بن الملوح رأى أنّ النظر منبئ عمّا تضمره صدور الوشاة من خداع، ومكر للمحبين، فقال:

(البسيط)

أمست وُشاتُك قد دبَّت عقاربُها ... وقد رَمَوكَ بعين الغِشّ وابتدَرُوا

تُريك أعيُنُهم ما في صدورِهمُ ... إنَّ الصدورَ يُؤدّي غَيْبَهَا النظرُ[4]

---

[1] سورة الأحزاب، آية 19.
[2] ابن الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص 262.
[3] برنت د. روبن، الاتصال والسلوك الإنساني، ص 188.
[4] ديوان مجنون ليلى، 135.

فلا شيء يخفى على الإنسان المتفرّس في العيون، المدرك لما يدور فيها، فهو يستطيع الاستدلال منها على الكثير من الأسرار دون الحاجة إلى لغة كلاميّة تنقض أو تؤكد ما تظهره حاسة البصر، فعبّرت ليلى العامريّة عمّا تكشفه العيون من أسرار:

(الوافر)

وأسرارُ المُلاحَظِ ليسَ تخفى ... وقد تُغْرِى بِذي اللحْظِ الظُّنُونُ

وكيف يفوت هذا الناس شيءٌ ... وما في الناس تظهرُه العيونُ[1]

لقد عرف شعراء الغزل أهميّة هذا العضو في الكشف عن أحاسيسهم وعواطفهم المضمرة في قلوبهم وعبّروا بصدق عن دور حاسة البصر في التعبير عمّا يجول في خفايا نفوسهم، فالشاعر كُثيّر عزّة ربط بين ما تظهره العينان وما يخفيه القلب، باعتبار العين مرآة القلب، فهي تستمدّ بصيرتها ممّا يمليه عليها القلب، فقال:

(الطويل)

يُزْهدُني في حُبّ عزّةَ مَعْشَرٌ ... قُلوبُهُم فيها مُخالفةٌ قلبي

فقُلتُ دعوا قلبي وما اختار وارتضى ... فبالقلبِ لا بالعَين يُبْصِرُ ذو اللُّبِ

وما تبصر العينانِ في موضعِ الهوى ... ولا تسمعُ الآذانُ إلا من القلبِ

وما الحُسن إلا كلّ حسنٍ دعا الصّبا ... وألّفَ بينَ العشقِ والعاشق الصّبِ[2]

فجعل الشاعر المحبّ له حليفاً داعماً على صدق حبّه للمحبوبة، إذ ما عجز لسانه عن التعبير والتصريح عن تلك المشاعر التي حملها في جسدها فكان هذا الحليف بصره، فصرّح بهذا عمر بن أبي ربيعة قائلاً:

(البسيط)

سَمْعي وَطَرْفي حليفاها على جَسَدي ... فَكيْفَ أصْبِرُ عن سَمعي وعَنْ بَصَري

لَوْ تابعاني على أَنْ لا أُكلّمَها ... إذا لَقَضّيتُ من أوْطارِها وَطَري[3]

دَلّ الفؤادَ عليها بَعْضُ نِسوتِها ... وَنَظْرَةُ عَرَضَتْ كانَتْ مَن القَدَر[4]

---

(1) ديوان مجنون ليلى، ص29.
(2) شرح ديوان كثير عزّة، ص 41-42.
(3) وَطَري: الحاجة.
(4) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 137-138.

فكانت العين آلةَ الشاعر العاشق التي تصاحبه في إتباع نظره نحو من أحبّها قلبه، فَتُحَقِّقُ هذه الآلة سعادة الشاعر ومتعته، كلما رمق المحبوبة بها، إذا ما حيل بين لقائهما، وحظر التّ

كلم معها، ففي هذه الحالة لا مجال أمامه سوى إطالة النظر في المحبوبة، مستمتعاً برؤيتها: وهذا ما حصل مع الشاعر جميل، لمّا حان فراق محبوبته بثينة له، فلم يكن أمامه من وسيلة للتواصل معها، سوى حاسة البصر التي أبدت إعجابه وشدّة تعلقه بها في أصعب اللحظات، لحظات فراق بثينة له رغماً عنها، فقال:

(الطويل)

جُزِعْتُ غُداةَ البَيْنِ لمّا تَحَمَّلُوا وما كان مِثْلي يا بثينةُ يجزعُ

تمتّعتُ منها يوم بانُوا بنظرةٍ وهل عاشقٌ من نظرةٍ يتمتَّعُ[1]

إنّ نظرة الحبيب سلاح فاتك لا يمكن الانفكاك من قبضته دون إحداثها وقعاً عميقاً في نفس المحبّ، وتعليقها بشباك هوى المحبوب، فكم من عاشق علّقَته نظرة الحبيب، لأنّه لم يستطع كبح جماح بصره عن إمتاع النظر بجماله، بل زاد من تشبثه بحبائل حبّه، فوجد شاعر الغزل لذّة الحبّ ومتعته في إطالة النظر في ذلك الحبيب. فقال عمر (من الشعر المنسوب إليه):

(البسيط)

إني امرُؤٌ مولَعٌ بالحُسْنِ أَتْبَعُهُ لا حَظَّ لي فيه إلاّ لَذَّةُ النَّظَرِ[2]

النظرات تؤثر في النفس أكثر من الكلام، فعندما يرمق أحدهم شخصاً على سلوك غير مرغوب فيه، نجده قد تأثر من هذه النظرة، وأخذ ينكمش في نفسه محاولاً أن يُعدّل من تصرّفه بعض الشيء بشكل غير إرادي. وما بالك بنظرة الحبيب فإنّ تأثيرها على المحبّ أشدّ وقعاً عليه من السيف الفاتك، بل كأنّها سهام تُقْذَفْ عليه، فَتُصيبُ قلبه. قال عمر:

(الخفيف)

فَجَوارٍ مُسْتَقْتِلاتٍ إلى اللَّهْ وِ حِسانٍ كنَاضِرِ الأغصَانِ

قُتُلٍ للرِّجَالِ يَرْشُقْنَ بالطَّر ف، حِسانٍ كخُذَّل[3] الغِزلان[4]

---

(1) ديوان جميل، ص 119.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 201.
(3) جمع خاذل، وهو الظبي الذي يرعى وحيداً فكأنه يخذل.
(4) م.ن، ص 399.

وهذا ما أكده أيضاً (العرجي)، بأنّ نظرة من المحبوبة تهلك العاشق، وتُضْعِفُهُ ما لم يضع حدّاً لشهوة الإبصار، ويكبح جماح عينه عن ملاحقة كلّ ما يفتنها من إغراء، وإلا أصبح خاضعاً لرغائبها التي لا تحدّها حدود في اتّباع مطالبها، فقال:

(الطويل)

إذا ضَرَبتْ بالبُرْدِ من دون وجْهِها تَلالا أحمُّ المُقلتين أَسِيلُ

على جِيدِ أدْماءٍ من الوَحْش حُرّةٍ لها نَظَرٌ يُبْلي المشُوقَ كليلُ[1] [2]

إنّ اتباع البصر للمرأة الفاتنة هو بلية تصيب ضعيف الإيمان ويعلّقه بها، لذلك تعمى بصيرته فلا ترى سواها، ولا يستطيع مقاومة حبّه لها، بل يشتدّ انجذابه نحوها، فتغلق أبواب قلبه عليها، فلا يهتدي إلى غيرها من النساء، وتعمى بصريته، فلا يرى سواها، وهذا الابتلاء جوّزه بعض العشّاق إذا ما كان قائماً على العذريّة والإخلاص لا الفحش والفساد، وإن هلك دونها هذا العاشق. قال عبد الله ابن الدمينة:

(الطويل)

يقولون: لا تَنْظُرْ، وتِلْكَ بَلِيَّةٌ ألا كُلُّ ذِي عينين، لا بُدَّ، ناظِرُ

وليس اكتِحَالُ العَينِ بالعَيْنِ رِيبَةً إذا عفَّ، فيما بَيْنَهُنَّ، الضّمائِرُ[3]

وقال الأحوص:

(الطويل)

وقد شَاقَها مِن نَظْرَةٍ طَرَّحَتْ بها ومِنْ دُونِها بِرْكُ الغُمادِ[4] **فعُلْيَبُ***[5]

وقال الشاعر العرجيّ في هذا المعنى أيضاً معبراً عن مدى تأثير الحبّ فيه، فأصبح مريضاً منه، حينما أفصح لمحبوبته عن سبب تأخره عليها، التي أخذت تعاتبه على عدم اهتمامه بها والسؤال عنها لشدّة مرضها بسبب عشقها له هي الأخرى، فهذا مصير كلّ عاشق. فقال العرجي:

(المتقارب)

فقلتُ لهنْدٍ وتِرْبٍ لها دَعَاني، وَغَيري بهذا فَرُوضا

فَدَيتُكِ من كاعِبٍ ناعمٍ تُقلِّبُ للدَّلِّ طَرْفاً غَضِيضا

---

(1) أدماء: الظبية.

(2) ديوان العرجي، ص 298.

(3) ديوان ابن الدمينة، ص 201.

(4) برك الغُماد: موضع وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البر. * فعُليب: موضع بتهام.

(5) شعر الأحوص الأنصاري، ص 74.

تقُـــولُ: مَرِضـــتُ فمـــا عُـــدْتَني؟! وكَيْـــفَ يَعُـــودُ مَـــريضُ مَريضـــا؟[1]

شاعر الغزل الذي خاض غمار العشق من خلال العينين، كان عالماً ومتفرساً بطبيعة نظرة الحبّ واتجاه شعاعها القاتل. فنظرة الحبّ تكون من آخر طرف العين لا أوّلها، أي نظرة جانبيـة خاطفة مختلسة. فقال جميل معبراً عنها:

(الطويل)

وبـــالنَّظْرِةِ العَجْلَـــى، و بـــالحَوْلِ تَنقضِـــي أواخِـــرُه لا نـــَلْتَقـــي وأوائِلُـــهْ[2]

وقال ابن الملوح أيضاً:

(الخفيف)

وأمنحهـــا أقصـــى هـــواي وإنَّنـــي علـــى ثِقَـــةٍ مِـــنْ أنَّ حَظِّـــي صُـــدُودُهَا[3]

إنّ حاسة النظر عامل محرك لتلك المشاعر العاطفيّة بين المحبين، بحيث تثير تفاعلاً كبيراً بينهما، فتقرب الواحد من الآخر، وإن بعدت بينهما المسافات. قال عمر:

(الحفيف)

قرَّبَتْنـــي إلـــى قُرَيْبَـــةَ عَيْنـــي يَـــوْمَ ذي الشَّـــرْي والهـــوى المُسْـــتَعَارُ[4]

وصف الشاعر (كثيّر عزّة) بدقة طبيعة نظرة النساء اللّواتي تعلّقن بأحاديث الهوى، إذا مـا جمعهنّ نفس المجلس مع من عُرف بالهوى، وتعلّق بحبّ امرأة ما، فشاع أمره تماماً كمـا حصـل معه، فأخذْن يرمينه بنظرات إعجاب، فنقلت أعينهنّ له رسائل تنمّ عن ذلك الحبّ الغريزيّ، فتكلّمت أعينهنّ، وهن سكوت، فقال:

(الطويل)

نظـــرتُ إليهـــا وهـــي تُحـــدى عشـــيّةً فـــأتبعْتُهم طرْفـــيَّ حتـــى تتمّمـــا
وكنـــت إذا مـــا جئـــتُ أجللـــنَ مجلسـي وأبـــدينَ منـــي هيبَـــةً لا تجهُّمـــا
يُحـــاذِرْنَ منّـــي غيـــرةً قـــدْ علِمْنهـــا قـــديماً فمـــا يضْـــحكنَ إلا تبسُّمـــا
يكلّلْـــنَ حـــدَّ الطّـــرفِ عـــن ذي مهابـــةٍ أبـــانَ أُولاتِ الـــدّلِّ لمّـــا توسّمـــا

---

[1] ديوان العرجي، ص 253.
[2] ديوان جميل، ص 169، * البيت لقيس بن الملوح، ديوان مجنون ليلى، ص 225.
[3] ديوان مجنون ليلى، ص 107.
[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 151.

تـــــراهُنَّ إلاّ أنْ يـــــؤدّين نظـــــــرةً بمُـــؤْخِرِ عـــينٍ أو يُقلّـــبْن مِعْصَمـــا
كـــــواظمَ لا يَـــــنْطِقْنَ إلا مَحُـــــورَةً رَجيعـــةَ قـــولٍ بعـــد أن يتفَهّمـــا[1]

وهذا ما فعلته أيضاً إحدى المعجبات بعمر بن أبي ربيعة، فسبته عينها، فقال:

(الكامل)

نظـــرتْ إليـــك بعَـــيْن جَازِئَـــةٍ كَحْـــلاءَ وَسْـــطَ جَـــاذِرٍ خُـــنسِ
فَسَـــبَتْ فُـــؤادَكَ عِنْـــد نَظْرَتِهـــا بِمَلاحَـــةِ الأَنْيـــابِ والأُنْـــسِ[2]

علامات الصبابة البادية في النظر في مواقف الحبّ تتميّز عن غيرها من العلامات التـي يظهرها النظر في مواقف مختلفة. فلا تخفى على الشاعر عمر بن أبي ربيعة هذه العلامات فهـي تتميّز عن غيرها. قال عمر:

(الكامل)

وَنَظَـــرْتُ نَظْـــرَةَ عاشِـــقٍ دَنِـــفٍ بـــادي الصَّـــبابةِ عـــازمٍ نَظَـــرُهْ
فَرَأَيْـــتُ رِئْمـــا فـــي مَجَاسِدِهـــا وسْـــطَ الحـــدائق مُشـــرِقاً بَشَـــرُهْ[3]

لقد وجد شاعر الغزل في التّواصل مع من هواها عبر حاسة البصر حفظاً لسـرّها مـن أن يشيع فتفضح، فكان حريصاً على سمعتها لهذا امتنع عن مبادلتها أحاديث الهوى عبر اللسـان. فمـن الشعر المنسوب إلى عمر:

(المتقارب)

تـــذكّرتِ الـــنّفسُ مـــا قَـــدْ مَضَـــى وَهَاجَـــتْ علـــى العـــين عُوَّارَهـــا
لِتَمْـــنَحَ رامـــةَ مِنَّـــا الهَـــوَى وَتَرْعَـــى لِرَامَـــةَ أسْرارَهـــا[4]

أَجْبَرَتْ الكثير من المواقف العشّاق على التّواصل بلغة العيون في مواقف تبادل الغرام حيث إنهم وجدوا فيها حفظ الأسرار، واستمرار اللقاء بينهم وعدم الانقطاع، وكما أنّها كانت وسيلة ناجعة في التنفيس عن العواطف المكبوتة لدى البعض، وأدّت دوراً فعّالا في تعبير العشّاق عـن حـزنهم لفراق المحبوبة، لمّا حرموا من لقائها، ووداعها عن قرب بسبب تلك الحواجز التي فرضتها عليهم

---

(1) شرح ديوان كثير عزة، ص 132.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 204.
(3) م.ن، ص 187.
(4) م.ن، ص 200.

العادات والتقاليد الاجتماعيّة، وكشفت حاسة البصر عن بعض الانفعالات الطبيعيّة التي قد تتعرض لها المرأة، ولاسيّما شدّة الخوف من الفضيحة، فكان للعين دور بارز في التستر على المحبوبة، وذلك من خلال تحويل الحبيب اتّجاه نظره إلى غيرها. فتلك النظرات المتبادلة بين طرفيّ العشق أصبحت شاهداً واضحاً على وجود رابطة عاطفيّة قويّة بينهما، توحي للمتفرّس في لغة العيون بوجود تواصل عاطفيّ غير لفظيّ تتراسله أعين العشّاق بصمت.

لقد أوقفنا شعر الغزل على المواقف التي دفعت بالعشاق إلى التّواصل بلغة العيون كلغة بديلة عن لغة اللسان، والدوافع وراء ذلك، وسوف نعرضها من خلال ما لهجت بها ألسنة شعراء الغزل العذريّ والإباحيّ.

أ – تبادل العشق:

أشرنا إلى أنّ بداية العشق تكون عن طريق النظرة، فهي البوابة التي تقود إلى تفاعل بقية أعضاء الجسد مع هذا الحب العاطفي روحاً وجسداً، ونظراً لشدّة أثر النظرة العاطفيّة في نفس الذي ابتلي بها فقد أصبح منقاداً للمعشوق. وإنّ أثرها عليه أشبه بالجرح العميق، إن ترك صاحبه ينزف من دون تقديم العلاج له، فسيكون حتماً مصيره الموت، وإن تمّ تقديم العلاج له، فإنّه حتماً سيكون في ذلك إنقاذ لحياته، وكذلك من ابتلي بالحبّ العاطفيّ من أول نظرة، فإما تحييه نظرة الحبيب بتواصله معه، وإمّا أن تفتك به إذا ما امتنع ذلك الحبيب عن مبادلته العشق، وحرمه من نظرات الحبّ التي هي بمثابة الشفاء العاجل لهذا المبتلى. وقد عبّر شعراء الحبّ عن هذه اللحظات العاطفيّة. قال ابن الملوح:

(الوافر)

لهـا فـي طَرْفِهـا لَحَظـاتُ حَتْـفٍ تُمِيـتُ بهـا وتُحيِـي مَـنْ تُريـدُ[1]

وقال عمر:

(الطويل)

فَـأَتْبَعْتُهُنّ الطَّـرفَ مُتَّبِـلَ الهَـوى كَـأَنّي يُعـانِيني مـن الجِـنّ خـاطِفُ

دعـاهُ إلـى هِنْـدٍ تَصَـابٍ ونَظْـرَةٌ تـدُلُّ علـى أشـياءَ فيهـا مَتَالِـفُ[2] [3]

---

[1] ديوان مجنون ليلى، ص 103.

[2] متالف: مهالك.

[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 242.

وقد لا تكفي ذلك المحبّ إعادة النظر في عيون الحبيب، بل يطمع في المزيد لإشباع نظره منه، لكن الرغائب العاطفيّة لا حدّ لها إذ ما انجرّ الإنسان وراءها. قال عمر:

(الرمل)

قـــادت العـــيْنُ إليهـــا قَلْبَـــهُ عَقِـــبَ التَّشْـــرِيق مِـــنْ يـــومِ الأَضـــاحْ
نظـــرةٌ بـــالعَينْ أدّتْ سَقَمـــاً نَظْـــرَةٌ يومـــاً وصَـــحبي بالصِّـــفاحْ
أَحْـــدَثَتْ رَدْعـــاً ورَجْعـــاً بَعْـــدما طمـــع العائـــد منّـــا بالسِّـــراحْ[1]

ويظهر لنا من تواصل العشّاق بلغة العيون، أنّهم اعتمدوها لغة يتواصلون بها مع الحبيب، فجعلوا من بعض إيماءات أعينهم وإشاراتها علامات في حدّ ذاتها تحمل كلّ إيماءة أو حركة تنبع من عواطفهم دلالةً موحية بين طرفيّ الحبّ، الأمر الذي سهّل عليهما التّواصل بحاسة البصر من خلال الاستعانة بهذه الإيماءات والإشارات البصريّة المتفق عليها تعبيراً عن أمر ما، أو توصيل فكرة أو شعور معيّن للطرف الآخر. قال ابن الملوح:

(الطويل)

قـــال جعلنـــا علامـــات المـــودَّةِ بيننـــا تشـــابكَ لحـــظٍ هُـــنّ أخفـــى مـــن السِّـــحر
فـــأعرف منهـــا الـــودّ مـــن لـــين طَرْفِهـــا وأعرف منها الهَجْر بـــالنظر الشَّـــزرِ[2] [3]

لقد أبدع (عبد الله ابن الدّمينة) عندما جعل لغة العيون بديلا مخبراً، ومعبّراً عمّا في القلوب في حال عجز اللسان عن النطق حينما قال:

(الطويل)

إذا كبِـــدانا خافَتـــا صَـــرْفَ نيّـــةٍ وعاجِـــلَ بـــين ظَلَّتـــا تَجِبـــانِ
يُخبِّـــرُ طَرْفانـــا بمـــا فـــي قُلوبِنـــا إذا اسْـــتَعْجَمَتْ بـــالمَنْطِقِ الشَّـــفتانِ[4]

وقال الأحوص في هذا المعنى:

(الطويل)

يَقَـــرُّ بِعَيْنِـــي مـــا يَقَـــرُّ بِعَيْنِهـــا وَأَحْسَنُ شَـــيءٍ مـــا بـــهِ العَـــيْنُ قَـــرَّتِ[5]

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 89.
[2] الشّزر: نظرة الغضب بمؤخرة العين (النظر على اليمين والشمال).
[3] ديوان مجنون ليلى، ص 163
[4] ديوان ابن الدمينة، ص198 – 199.
[5] شعر الأحوص الأنصاري، ص 88.

قال ابن الملوح:

(الطويل)

وأحببتهـــا حبّـــا يَقَـــرُّ بعينهـــا وحُبِّـــي إذا أحْبَبْـــتُ لا يُشـــبه الحبَّـــا[1]

فإنّ ردّة فعل أحد طرفي العشق تتوقف على ما تَقِرُّ به عين الطَّرَف الآخر (المُستقبِل) من استجابة. قال العرجي:

(الطويل)

خليلـــيّ عُوجـــا حَيِّيـــا اليَـــوْمَ زَيْنَبَـــا ولا تَتْرُكـــاني، صـــاحِبِيّ وتَـــذْهَبا

إذا مـــا قَضَـــيْنا ذاتَ نفـــسٍ مَريضَـــةٍ إليهـــا وقَـــرَّتْ بـــالهوى العـــينُ فارْكَبَـــا[2]

ب- الإفصاح عن الحبّ المكبوت:

حاول شاعر الحبّ كتمان ما يحمله قلبه من أحزان جرّاء هذا الحبّ الممنوع، فلم يعد الجسد يطيق ما أثقل به من معاناة الحبّ، فأُجبر أصغرُ جزء من أعضائه، وهي العين بأن تفصح عن هذا الحبّ المكبوت، وتبديه في لمحاتها، لتُعلم بالحالة التي وصل إليها الحبيب، حينما أصرّ أهل محبوبة (جميل) على الرحيل، حاول جميل كتمان حبّه لحظة هذا الفراق إلا أنّه لـــم يســـتطع، لأن عينيـــه أظهرتْ ما عجز عن كتمانه لأنّه أصبح فوق طاقة هذا المحبّ، وأثبتت الدّموع ما همست به العينان من حبّ مكبوت، فقال جميل:

(الطويل)

ولَمّـــا أَجَـــدَّ الحـــيُّ بيْنـــاً – ولـــم يكـــن درى أحَـــدٌ مَـــنْ بَـــيْنُ بثنـــةَ فـــاجعُ

أَبَـــتْ مُقلتـــي كتمـــانَ مـــا بـــي وبيَّنَـــتْ مكانَ الـــذي أُخفـــى، وفـــاض المَـــدامعُ[3]

فلذلك كانت المحبوبة تتحاشى الالتقاء بعشيقها في النّهار، خشية أن تكشف العين عمّا بهمـــا من عشق، لأنّ هذا الغرام العاطفيّ سيكون بادياً في العين، حيث يصعب إخفاؤه عن العيون التـــي تتبعهم، فوجدَت في الليل ستراً عن أعين الناس، وهذا ما أرادته محبوبة عمر بـــن أبـــي ربيعـــة، لصعوبة الموقف عليها عندما تلتقي عيناها بعينيه فلا تحتمل ذلك فيُعرف ما بها. عبّر عمر عـــن ذلك قائلاً:

(الكامل)

قالـــت مُوَكَّلَـــةٌ بِحِفْـــظِ كَلامِهـــا لِمُعَلَّـــمٍ حـــاطَ النَّعـــيمَ شَـــبابُهُ

---

[1] ديوان مجنون ليلي، ص 82.

[2] ديوان العرجي، ص 168. * قصيدة هذا البيت لعمر بن أبي ربيعة أيضاً في ديوانه، ص 45-46.

[3] ديوان جميل، ص 116.

أخشـــى عَلَيْـــهِ العَـــيْنَ إن بَصُـــرَتْ بـــه وتَـــــرَى صَـــــبابَتَنا بِـــــهِ فَتَهابُـــــهُ
إنَّ النَّهـــــار وَذَاك حَـــــقٌّ واضِـــــحٌ والليـــلُ يَخْفَـــى بـــالظَلامِ رِكابُـــهُ[1]

وقال عمر أيضاً في هذا المعنى، مبيّناً كيف أنّ عينه فضحتْ عشقه لمحبوبته عندما أتبع بصـره نحوها.

(مجزوء الوافر)

تبِعـتُـــــــهُمُ بطَـــــــرْفِ العيـــــــ ـــــــنِ حتّـــى قيـــل لـــي افْتَضَحـــا
يُـــــوَدِّعُ بعضُـــــنا بَعْضَـــــاً وكـــــلٌّ بالهَـــــوى صَرَحـــــا[2]

وعادة لا تصرّح المرأة الشرقيّة بذلك الحبّ الذي يختلج به فؤادها من باب الحياء والخجل، فيضطرّ فؤادها تبصير العين به. فتقوم عين المحبوبة بتدوينه في صفحتها المكشوفة، ليتمكن مـن قراءته حبيب قلبها، فيطالع ما في عينيها، فيعرف من ماء عينيها حُباب شوقها له. قال عمر:

(الرمل)

قـــد خَلَوْنـــا فَتَمَنَّـــيْنَ بِنـــا إِذْ خَلَوْنـــا اليَـــوْمَ نُبْـــدي مـــا نُسِـــرْ
فَعَـــرَفْنَ الشَـــوْقَ فـــي مُقْلَتِهـــا وَحَبَـــابُ الشَـــوْقِ يُبْدِيـــهِ النَّظَـــرْ[3]

وقال أيضاً عندما قرأ ما في عيون عشيقته (أثيلة):

(الكامل)

لا شـــيء أحْسَـــنَ مـــن أُثَيْلَـــةَ، إذْ بَـــدَتْ وَقَـــدِ احْزَأَلَّـــتْ عِيرُهـــا لِتَفَـــرُّقِ
وإذا رَنَـــتْ، نَظَـــرَ النّزِيـــفِ بعينهـــا فَعَرفـــتُ حاجتَهـــا، وإن لـــم تنطـــق[4] [5]

وصرّح بصر محبوبة الشاعر (يزيد ابن الطّثريّة) عن رغباتها العاطفيّة اتجاهه، فقال يزيد:

(الطويل)

فلمـــا تنازعنـــا ســـــقاطَ حـــديثهـــا غِشاشـــاً فـــلان الطـــرفُ منهـــا فأطمعـــا
علـــى إثـــرِ هجـــرانٍ وســـاعةِ خَلْـــوةٍ مـــن النّـــاس غُـــيّبـــاً أن يتطلعـــا[6]

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 46.
[2] م.ن، ص 87.
[3] م.ن، ص 168.
[4] م.ن، ص 254.
[5] نظر النزيف بعينها: استنزفت قوته وضعف فبدا كالمحموم أو السكران.
[6] شعر يزيد بن الطثرية، ص88.

وكان المحبّ يؤكد شدّة حبّه لمحبوبته، الذي يخفيه في أحشائه إذ ما نفت أنّه يحبّها بصدق، فكان يطلب منها أن تبصر ما في عينيه، فهي دليل ماديّ على ما أَلَّمَ به من لوعة حبّها الذي يكابده في قلبه. فقال (ابن الدمينة) معبراً عن هذا الموقف:

(الطويل)

أبَيْـــتِ بـــألا تَرْثـــئ لـــي فكيـــف لـــي بأن تنظُري بـــين الحشـــا والجوانِـــحِ[1]

فتخبِـــرَكِ العينـــان عـــن قلبـــي الـــذي مَلِلْـــتُ بـــه لا كـــالقُلوب الصّحائـــحِ[2]

وتظهر عينا الأحوص ما به من عشق، تكتمه أحشاؤه وعظامه، فقال:

(الطويل)

فأبـــدتْ كثيـــراً نَظْرَتِـــي مِـــنْ صَـــبابَتي وأكثـــرُ منهـــا مـــا تُجِـــنُّ الأضَـــالِعُ[3]

وقد يكون من النّظر ما هو اختلاس من طرف واحد مبدياً إعجابه بالطرف الآخر، فتأتي النظـرة سريعة لا تكاد تُلْمح. يقول عمر:

(مجزوء الوافر)

ولـــــن أنســـــى بِخَيْـــــفِ مِنـــــى تَسَـــــارُقَ زيـــــنبَ النّـــظـــــرا

إلـــــيَّ بمُـــقْلَتـــــي رئَـــــمٍ تَـــرى فـــي طَرْفِـــه حَـــوَرا[4]

فكان المحبّون يتبادلون النظرات السريعة حتى لا يُشْعِروا مَن حولهم بما يدور بينهم، فتأتي النظرات خاطفة لا تكاد تلاحظ من قبل المحيطين بهم. يقول العرجيّ في هذا:

(البسيط)

القلـــبُ رَهْـــنٌ لـــدى أســـماءَ مأْســـورُ قـــد أوثَقَتْـــهُ فـــلُبُّ القلـــبِ مَقْمـــورُ[5]

مِـــنْ نَظْـــرةٍ غَشِـــيَتْني إذ رَفَعْـــتُ لهـــا طَرْفـــي ومـــا شَـــعرَتْ جِـــدّا سَـــمَادِيرُ[6]

إلا التماحـــاً وبَعْـــضُ الوَجْـــهِ مُنْكَشِـــفٌ والبُردُ دُونـــي علـــى أسْـــماءَ مَسْـــتُورُ[7]

---

[1] ترثئ: ترثي. الجوانح: الأضلاع مما يلي الصدر.
[2] ديوان ابن الدمينة، ص 35 – 36.
[3] شعر الاحوص الأنصاري، ص 146.
[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص185.
[5] مقمور: المسلوب.
[6] سمادير: ضعف النظر واسترخاء العينين.
[7] ديوان العرجي، ص 225 – 226.

ومن النظر ما يُرْسَلُ اتّجاه الطَّرَف الآخر عن عمد، ليشعره بحبّه له، وشدّة تعلّقه به، فإحدى المعجبات بالعرجيّ أخذت تميل ببصرها نحوه، ليس لأنّها حولاء العين بل دفعها الجانب العاطفيّ إلى هذا السّلوك. فقال العرجي:

(الكامل)

مررّت علينا بالبِلاط وطَرْفُها ... من غير ما حَوَلٍ إلينا أَعْوجُ[1]

وفي موقف آخر أخذ (العرجي) يميل ببصره نحو المحبوبة، فجعل اتّجاه نظره صوبها دون غيرها. فقال:

(الطويل)

فقلتُ وقد ضاقتْ بلادي برُحْبِها ... عليّ لِمَا قد قِيلَ، والعَيْنُ تَهْمِلُ
سأجتنِبُ الدّارَ الّتي أنتمُ بِها ... ولكنّ طَرْفي نَحْوها سوف يَعمَلُ
أرى مُسْتَقيمَ الطَّرْفِ ما الطّرْفُ أمّكُم ... وإنْ أَمَّ طَرْفي غَيْرَكُمْ فهو أَحْوَلُ[2]

وبتوجيه العاشق نظره إلى الحبيب، فهو على علم بدور هذه الحاسة في إثارة الطرف الآخر منتظراً منه مبادلته نفس الشعور والاهتمام، وعكس ذلك قد يحصل، وقد لا يستجيب الطرف الآخر ولا يبدي تفاعلاً مع الطرف المُرْسِلُ لسبب ما. وقد اعتبر الشاعر (ابن الدمينة) أنّ لا فائدة في أن يمنح ما اختارها قلبه النّظر، إذا ما رأى منها الجفوة والصدّ. فقال:

(البسيط)

زوروا بنا اليومَ سَلمى أيُّها النَّفَرُ ... ونَحْنُ لمّا يُفَرّق بينا القَدَرُ
نَنْظُرْ سُلَيْمى فإنْ ضَنَّتْ بنائِلِها ... عنّا انْصَرَفْنا وماذا يَنْفَعُ النّظَرُ[3]

ج- لحظة الفراق والوداع:

مكّنت العين المحبّ من وداع محبوبته في مواقف الفراق والرّحيل إلى مكان آخر باصطحاب أهلها، الذين وقفوا في وجه حبّهما وحرموهم من الاتصال.

فرغم القيود التي حالت بين اجتماع (قيس بن الملوح) بمحبوبته (ليلى) إلاّ أنّ عيونهما تحدّت هذه القيود، فأفصحت عن علامات الحزن لهذا الفراق وذلك بسكب الدّموع، فلم يكن أمامهم من وسيلة يودّعان بها بعضهما سوى تبادل النّظرات الدّامعة، فقال قيس بن الملوح:

---

(1) ديوان العرجي، ص 188.
(2) م. ن، ص 294.
(3) ديوان ابن الدمينة، ص 66 – 67.

(الطويل)

مُنِعْـتُ عن التـــسليم يـــوم وَدَاعهـــا فودَّعتُهـــا بـــالطّرفِ والعـــينُ تـــدمعُ

وأُخْرِسْـتُ عـــن ردِّ الجـــوابِ فمـــن رأى مُحِبّـــا بـــدمع العـــين قَلْبـــا يُـــوَدِّعُ[1]

ومحبوبة جميل التفتتْ إليه بنظرة حزن غداة رحيلها، والدمع يُذرَفْ من عينيها، وهو أيضاً أبدت محاجره (عيونه) نفس الحزن، فسال الدّمع منها، فتبادلا نفس المشاعر من خلال ما دار فـــي العيون. فقال:

(الطويل)

ومما شـــجاني أنّهـــا يـــوم ودَّعَـــتْ تولّتْ، ومـــاءُ العَـيْنِ فـــي الجفـــنِ حـــائرُ

فلمـــا أعـــادتْ مـــن بعيـــدٍ بنظـــرةٍ إلـــيّ التفاتـــاً، أسْـــلَمَتْهُ المحـــاجرُ[2] [3]

وقال عمر في هذا المعنى:

(الطويل)

تكـــادُ غـــداةَ البـــينِ، تَنْطِـــقُ عَيْنُـــهُ بِعَبْرَتِـــه، لـــو كانْـــتِ العَـــيْنُ تَنْطِـــقُ[4]

د- الخوف من الرقباء والأقارب:

وكذلك الأمر في حال وجود الأهل والأقارب وغيرهم من الرّقباء، فلا يســتطيع المحبـــان البوح بسرّهما أمامهم إلا خلسة، فكانت العيون أمكن وسيلة للتعبير عمّا في قلوب العشّاق في هـــذه المواقف. حيث اضّطرّ (قيس بن الملوح) ومحبوبته إلى اعتماد لغة العيون كوسيلة للإفصاح، بـــدلاً من اللسان لكثرة الرّقباء من حولهم. فالتّواصل بهذه الطريقة يجعل المحبين على اتصـــال مســـتمرّ بتبادل العشق متغلبين على تلك القيود التي تحيط بهم. فقال (ابن الملوح) معبراً عن هذه اللحظة:

(الوافر)

إذا خفنـــــا مـــــن الرُّقبـــــاءِ عينـــــاً تكلمـــــت العيـــــونُ عـــــن القلـــــوب

وفـــــي غمـــــر الجـــــوانح مُســـــتراحٌ لحاجـــاتِ المحـــبِّ إلـــى الحبيـــبِ[5]

---

[1] ديوان مجنون ليلى، ص 189.
[2] ديوان جميل، ص 82.
[3] المحاجر: العيون.
[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 259.
[5] ديوان مجنون ليلى، ص 81.

وقال أيضاً:

(الطويل)

إذا نظـــرتْ نحـــوي تكلّـــم طرفُهـــا وجاوبهـــا طرفـــي ونحـــن ســـكوتُ

فواحـــدةٌ منهـــا تُبشّـــرُ باللِّقـــا وأُخرى لهـا نفسـي تكـــاد تمـوتُ[1]

يكتم العاشقان حبّهما خوفاً من أن يُعْرف، ويفضح، بينما كانت العيون تتراسل التعبيـرات العاطفيّة، فتفصح عن تلك المعاني العاطفيّة الملجومة عن الكلام، فكانت تجمع بين الشوق، والعشق، والخوف من اللّقاء، فحاولا مجتهدين الاتّقاء عن الأعين المتربصة بهما، فعبّر عن هذا الموقف عمر بن أبي ربيعة، قائلاً:

(الطويل)

فرُحنـا بقصـر نتّقـي العـينَ والرِّيـا[2] وقـول العـدو الكاشـح المتنمِّـم

وفـي العـين مرجـوّ، وآخـر يُتّقـى، فيالـك أمْـراً، بـين بُـؤسٍ وأنعُـمِ[3]

وفي موقف آخر طلبت عيون إحدى محبوبات عمر منه ألا يتعجّل بالرّحيل إلى أن يحـين الليل لكي يودّعا بعضهما، لمّا تنام أعين الكاشحين، والمتربصين بهما. قال عمر:

(الكامل)

وعشـيةً حَبَسَـتْ[4] فلـم تَفْـتَح فمـا بِكلامِهـا مـن كاشـح يَتَـنَمَّمُ

نَظَـرتْ إليـك، وذو شِـبامٍ[5] دونهـا نظـراً يَكـادُ بِسـرِّها يَتَكَلَّـمُ

فَأَبـانَ رَجْـعُ الطَّـرْفِ أن لا تَـرْحَلَنْ حَتّـى يُجِـنُّ النّـاسَ ليـلٌ مُظْلِـمُ[6]

إنّ خوف المحبوبة من إظهار عشقها أمام الأهل، دفعها إلى الإيماء والإشارة بعينيها، فنقلت للشاعر رسالة توحي بالتّرحيب به، وبما يحمله من مشاعر عاطفيّة اتّجاهها، فبادلها الشّاعر عمر بن أبي ربيعة التّحية بالمثل، قائلاً:

(الطويل)

ولَمّـا التَقَيْنـا بالثَّنِيَّـة، أَوْمَضَـتْ مَخَافَـةَ عيْـنِ الكاشِـحِ المتـنمّمِ

---

(1) ديوان مجنون ليلى، ص 84.

(2) الرِّيا: نجعل بيننا وبين عيون الناس والظهور رقابة وستراً.

(3) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 324.

(4) حَبَست: تعذر عليها الكلام.

(5) ذو شبام: اسم جبل أو هو الجدي الذي يوضح في فمه عود كي لا يرضع من أمه.

(6) م.ن، ص 343- 344.

أَشَـــارتْ بِطـــرْفِ العَـــيْن، خِيفَـــةَ أَهْلِهـــا إشـــــارَةَ مَحْـــــزونٍ، ولَـــــمْ تَـــــتَكَلَّمِ
فأيقنـــتُ أنّ الطّـــرفَ قـــد قـــال مَرْحَبـــاً وأهـــــلاً وسَـــــهْلاً بالحَبيـــــبِ المُتَـــيَّمِ
فـــأَبْرَدْتُ طَرْفـــي نَحْوهـــا بِتحيَّـــةٍ، وَقُلْتُ لها قَوْلَ امـــرئٍ غَيْـــرِ مُفْحَـــمِ[1] [2]

وإنّ تلك الحواجز التي حالت دون تواصل (ابن الدمينة) مع محبوبته، حتّمت عليهما التّقاطع والانصرام، فما كان من المحبوبة إلا أن ترمي بنظرها اتّجاه الشّاعر فكان وقع هذه النّظرة شـديداً عليه. قال ابن الدمينة:

(الطويل)

فَلَمّـــــا رَأَتْ أَنْ لا جـــــوابَ وَأَنَّمـــــا مدى الصَّـــرْمِ مَضْـــروبٌ عَلينـــا سُـــرادِقُهُ
رَمَتْنـــي بِطَـــرْفٍ لـــو كَمِيَّـــاً رَمَـــتْ بـــه لَبُـــلَّ نَجيعـــاً نَحْـــــرُهُ وَبَنائِقُـــهُ[3]
بِنـــورٍ بـــدا مِـــنْ حاجِبَيْهـــا كَأَنَّـــهُ بُـــروقُ الحيـــا تُهـــدَى لِنَجْـــدٍ شَـــقائِقُهُ
مَنَحْـــتُ صَـــرِيحَ الـــوُدِّ لَيْلـــى كَرامـــةً لِلَيلـــى ولكنّـــي لغيـــرك ماذِقُـــــهُ[4]

وأومأت محبوبة (ابن الدمينة) بعينها له حفاظاً على سرّهما من أن يفضح، فعبر عن ذلك قائلاً:

(البسيط)

كانَـــتْ لِماحـــاً وَتَوْمِيّـــاً مُحَافَظَـــةً عَلـــى الّـــذي بينَنـــا أنْ يُظْهِـــرَ الرِّيبـــا
مِـــنْ عِلْـــمِ أنَّـــا متـــى يَظْهَـــرْ مُكَتَّمُنـــا فَيُخْبِـــر القَـــوْمَ عـــن أسـرارِنا الغُيبـــا[5]

وكذلك محبوبة الشاعر (جميل) أومأت بجفن عينيها لجميل، مخافة أنْ يحسَّ بهـا أهلهـا و قومها الّذين تصدّوا لحبّهما، ومنعوهم من الإلتقاء، مفصحة عبرهما عن شدّة شوقها له. فقال جميل:

(الطويل)

غـــداةَ لقيناهـــا علـــى غيـــر موعِـــد بأَســـفل خـــيمٍ، والمطـــيُّ خواضـــعُ
فراجعهـــا القـــومُ الصـــحاحُ صُـــدورُهم وأعرضـــتُ عـــن وجـــدٍ بهـــا لا أُراجـــعُ

---

(1) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 326. والأبيات 2، 3، في ديوان مجنون ليلى، ص255.
(2) غير مفحم: غير عاجز عن الإبانة عما في نفسه.
(3) بنائِقُهُ: جمع بنِيَقة، وهي طوق الثوب الذي يضم النحر وما حوله.
(4) ديوان عبد الله ابن الدمينة، ص53 – 54. والأبيات 1، 2، 3، موجودة في شعر يزيد بن الطثريّة، ص91، وقد وردت على النحو الآتي:

فلمـــا رأت الأوصـــال وأنّـــه مـدى الصـرم مضـروب علينـا سـرادقه
رمتنـي بطـرف لـو كميّـاً رمـت بـه لبـــلّ نجيعـــاً نحـــره وبنائقـــه
ولمـــع بعينيهـــا كـــأنّ وميضـــه ومـيض الحيـا تهـدي لنجـد شـقائقه

(5) م.ن، ص 127 – 128.

وأومَـتْ بجفـن العـين و احتـار دمعهـا لتقتُلَنـي مملوحـةُ الـدَّلِّ مـانعُ
كَمـتْ دمعَهـا عـينُ الصـحيح، وبيّنـتْ مكـان ذوي الشـوق العيـونُ الـدّوامعُ[1]

يتّضح لنا من شعر الغزل بأنّ الإيماءة من خلال العين، كانـت الوسـيلة الأسـهل علـى العاشقات للتّواصل بها مع الجنس الآخر في المواقف العاطفيّة. فمحبوبة (عمر) لم تستطع التّعبيـر بالكلام عن رغبتها في إبقاء (عمر) إلى أن يَجْنِ اللّيل، فأومأت له بعينها. فالعين قامت هنـا مقـام اللسان في توصيل رسالة لعمر بن أبي ربيعة، بأن يبقى إلى أن يحل الليل، فعبّر عن هذا الموقـف قائلاً:

(البسيط)
أرادت، فلـم تَسْـطِعْ كلامـاً، فأَوْمـأَتْ إلـيّ، ولَـمْ تَـأْمَنْ رَسـولاً فَتُرسْـلا
بأنْ بِتْ عسـى أن يَسْـتُر الليـلُ مَجْلِسـاً لنـا، أو تنـامَ العيـنُ عَنَّـا فَتَغْفَـلا[2]

وكذلك عبر الشاعر (العرجي) عن مثل هذا الموقف حينما لجأت محبوبته إلى الإيماءة بعينها خوفاً من أنْ ينفضح سرّها في حال إفصاحها عن عواطفها بالكلام:

(السريع)
مِـنْ حَـيِّكُمْ بِنْـتُمْ ولـم يَنْصَـرِمْ وَجْـدُ فـؤادِ الهـائِمِ المُنْضَـجِ
فَعاجَـتِ الـدَّهْمَاءُ بـي خيفَـةً أَنْ تَسْـمَعَ القَـوْلَ ولَـم تُعْـنجِ
فمـا اسْـتطاعَتْ غَيْـرَ أنْ أَومـأَتْ نَحـوي بِعَينـي شـادِنٍ أَدْعَـجِ[3]

وإيماءة المحبوبة (عزّة) بعينها لعشيقها (كثيّر) كإشارة منها له، بأن لا يـتكلّم لأنّ العيـون ترقبهم، فلولا هذه اللغة غير اللّفظية التي أزالت الحرج عنهما لنفضح خبرها. فقال (كثيّر) معبـراً عن هذا الموقف:

(الطويل)
فأَقْسَـمْتُ لا أنسـى لعـزَّةَ نظـرةً لها كدتُ أُبـدي الوجـدَ منّـي المُجَمْجَمـا
عشـيَّة أومـتْ، والعيـونُ حواضـرٌ إلـيَّ برَجْـعِ الكـفِّ أن لا تكَـلَّما
فأعْرَضْـتُ عنهـا والفـؤادُ كأنّمـا يـرى لـو تناديـهِ بـذلك مَغْنَمـا[4]

---

[1] ديوان جميل، ص116.
[2] ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 293.
[3] ديوان العرجي، ص 189.
[4] ديوان كثير عزة، ص 204.

وبعض عشيقات (عمر) كنّ يومئِنْ له بأعينهن في أشدّ الأوقات قدسيّة، وذلك في أوقات الحجّ والعمرة، فمن الأبيات المنسوبة إليه:

(السريع)

أَوْمَتْ بِعَيْنَيها من الهَودَجِ ... لَوْلاك في ذا العامِ لَمْ أَحْجُجِ
أَنْتَ إلى مكَّةَ أَخْرَجَتْني ... ولَوْ تَرَكْتَ الحَجَّ لَمْ أَخْرُجِ[1]

وفي موقف آخر حاولت المُعْجَبة (بعمر بن أبي ربيعة) إفساد طوافه، وإغواءه بالغمز بواسطة العين، فلم يستجب عمر لهذه الحركة المغرية، قال معبراً عن هذه اللّحظة:

(المنسرح)

ما زال طرفي يَحارُ إذ نظرتْ ... حتّى التقينا ليلا على قَدَرِ
أبصرتُها ليلةً ونِسْوتَها ... يمشين بين المَقام والحجر
قالت لتُرْبٍ لها مُلاطفةً ... لَتُفسِدِنّ الطّواف في عمر
قالت تصدَّي له ليُبصِرَنا ... ثمّ اغمزيه يا أختِ في خَفَرَ[2]
قالت لها قد غمزْتُه فأبى ... ثمّ اسْبَطَرّتْ تسعى على أثري[3]

وعيون النّواعم التي رآها (العرجي) مُرْسَلَةَ نحوه في الحج، لم ير فيها ذلك الإيمان الذي يلائم قدسيّة المكان، بل رأى نظرة عاطفيّة قاتلة مقصودة من قبل هؤلاء النسوة، لمّا رأى إيماءة إحداهنّ لرفيقتها تشير إليها، بأنّها عرفته، فقال:

(الطويل)

مِنْ اللاّءِ لَمْ يَحْجِجْنَ يَبْغينَ حِسْبَةً ... ولكنْ لَيقْتُلْن البريء المُغَفَّلا
وتَرْمي بِعَيْنَيْها القُلوبَ إذا بَدَتْ ... لها فِقْرَةٌ لَمْ تُخْطِ مِنْهُنَّ مَقْتَلا
فقالتْ وَأَوْمَتْ نَحْوها: قَدْ عَرَفْتُهُ ... ثَكَلْتُ إذَنْ بَيْضاءَ أُمِّي ونَوْفَلا[4]

فالشاعر (عمر بن أبي ربيعة) انتظر إشارة من عشيقته، ليتم بينهما المرسال إذا أمنت الأعين، فكانت الإيماضة بالعين، الوسيلة الأسهل والآمن في عملية التّواصل مع الحبيب عن بعد،

---

(1) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 85.
(2) خفر: شديدة الحياء.
(3) م.ن، ص 163.
(4) ديوان العرجي، ص 286.

ليترتب بناء عليها اللقاء مع رسول (عمر بن أبي ربيعة) كي ينقل الرسائل الكلاميّة بين الطـرفين. فقال:

(الكامل)

فَعَطَفْـــتُ رَاحِلَتَـــي وقُلْـــتُ لصـــاحِبِي ... أُنْظُـــرْ بِعَمْـــرِك نحـــوَها أن تُومِضـــا
قـــال الجـــريّ قـــد أومَضَـــتْ قُلْـــتُ ائتِهـــا ... واحـــذرْ حَويـــذَ مَقالِهـــا أن يُعْرِضـــا
قالـــتْ لَـــهُ بـــاللهِ ربِّـــكَ قُـــلْ لـــه ... قـــولاً يُحرِّكُـــه عســـى أن يَمْعَضـــا[1]

وكان من الإيماءة بجفن العين ما يعبّرُ عن الرّضا والسّرور والإغراء والحبّ للطرف الآخر. فقال الشاعر عمر:

(مجزوء الرجز)

فابتســـمتْ عـــن واضـــحٍ ... غَـــرِّ الثنـــايا يَنْـــطِـــفُ[2]
وأومَضَـــتْ عـــن طرْفِهـــا ... يـــا حُسْـــنَها إذْ تَطْـــرِفُ
وأرســـلتْ فجـــاءني ... بَنانُهـــا المُطـــرَّفُ
أنْ بـــتِ لدَيْنـــا ليلـــةً ... نُحْيـــي بهـــا ونُـــلْطِـــفُ[3]

وقال (كثيّر عزّة):

(الطويل)

كمـــا أَوْمَضَـــتْ بـــالعَينِ ثُـــمَّ تبسّـــمَتْ ... خَريـــعٌ بـــدا منهـــا جبـــينٌ وحاجـــبُ[4]

وكما كان لحواجب العين نصيب في هذه اللّغة غير اللّفظية التي استخدمها المحبّون للتعبيـر عمّـا يجول في قلوبهم من شوق عاطفيّ، فعبر عن ذلك (ابن الدمينة) بقوله:

(الكامل)

ونَظَـــلُّ نُظْهِـــرُ بالحَواجِـــبِ بَيْنَنَـــا ... مـــا فـــي النُّفـــوسِ ونَحْـــنُ لا نَـــتَكلَّمُ[5]

---

(1) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 212-213.
(2) يَنْطِف: يسيل رضابها.
(3) م.ن، ص 239-240.
(4) ديوان كثيّر عزة، ص 22.
(5) ديوان ابن الدمينة، ص 211.

هـ – التمويه بالصد والإعراض:

لم يعد تواصل المحبين بلغة العيون مباشرة أمراً سهلاً، حيث أصبح بإمكان من يُهمّه معرفة ما يدور في خلد المحبين، قراءة ما توحيه عيونهم من إيماءات يتواصلون بها، فأحسّ طرفا الحبّ بخطورة التّواصل بلغة العيون كلّما التقيا، فسرعان ما ينتشر خبرهما إذا ما لمحتهم الأبصار يتبادلان العشق بالعيون. فصرّح شاعر الغزل بأنّ العشق البادي في العين، سَيُفْضَح ما لم يأخذ المحبّان الحيطة والحذر من تلك العيون التي ترقبهما. قال عمر:

(البسيط)

السِّرُّ يكتُمُه الاثنان بينهُما وكلُّ سِرّ عدا الاثنين منتَشِرُ
والمرء إن هو لم يَرْقُبْ بصبوَتِهِ لَمْحَ العيون بسوء الظنّ يَشتهِرُ[1]

فكان أحد طرفيّ الحبّ يوجّه الطرف الآخر إلى كيفية التّواصل بلغة العيون لإبعاد الشبهة عنهما. قال عمر:

(الطويل)

فقلتُ لها، يا سُكنَ، إنّي لسائلٌ سُؤالَ كريمٍ ما سألْتُ جميلا[2]
سألتُ بأنْ تَعْصي بِنا قَوْلَ كاشِحٍ وإنْ كانَ ذا قُرْبى لَكُم، وَدَخِيلا
وأن تَحْفَظي بالغَيْبِ سِرّي وتَمْتَحي جَليسَكِ طَرْفاً في المَلامِ كَليلا[3]

حيث أرشد (عمر) محبوبته إلى كيفية النّظر إلى من يلومها في حبّها العاطفيّ، بأن تمنحه نظرة فاترة كعلامة دالة على النّفور من لومه من غير أنْ تصرّحَ بلسانها عن رفضها لما يقوله هذا اللائم في شأن حبّها لعمر وهكذا يُحْفظُ سرّهما.

لقد حرص الشاعر المتيّم الذي شاع خبر حبّه لامرأة بعينها من دون النساء على سمعتها، وأن لا ينالها ضرر إثر تعلّقه بها. فعلم أنّه يصعب عليه التّحكم بعينيه التي تظهر ذلك الشوق والحبّ العاطفيّ لهذه المرأة، كلّما وقعت عيناه عليها، وخشية أن يُعرف هواه لها إذا ما صوّب نظره نحوها، فما من وسيلة أمامه سوى تغيير اتّجاه طرفه إلى واحدة أخرى ممّن تصطحبهنّ، فيحسب الناظر إلى هذا العاشق أنّ هواه حيث ما ينظر، وهكذا يجنّب محبوبته الإحراج، وهذا ما فعله جميل عندما وجّه نظره إلى نسوة حسبن أنه يريدهنّ لمّا تتبعن مسلك نظره المصوّب إليهنّ، ولكنّه في

---

(1) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص134
(2) سُكن: مرخم سُكنه، تصغير سُكينه.
(3) م.ن، ص 298.

قرارة نفسه يخفي ما هو خلاف ذلك. والشاعر (جميل) نقل صورة معبرة عن موقف غير لفظيّ، حينما غيّر اتّجاه نظره لغيرها من النساء، فكان في حركة توزيع نظره بينهنّ تمويه، وتظاهر بالصدّ عن المحبوبة وذلك للحفاظ على سمعتها، وتجنيبها الإحراج. فقال جميل:

(الطويل)

وَيَحْسَبُ نِسْوانٌ من الجَهْل أَنَّني إذا جِئْتُ، إيّاهُنّ كنتُ أُريدُ
فأَقْسِمُ طَرْفَ العين أن يُعْرَف الهوى وفي النَّفس بَوْنٌ بينهنَّ بعيدُ[1]

وفي رواية أخرى:

فأَقْسَم طرفي بينهنّ فيستوي وفي الصَدْرِ بون بينهن بعيد[2]

وكانت المحبوبة بدورها تطلب من حبيبها بأنْ يتظاهر بالإعراض والصدّ عنها، وذلك من خلال منح بصره لغيرها من النساء حتى لا ينكشف أمرهما من قبل الرقباء والوشاة الذين يتتبعون اتجاه نظر المحبّ لإثبات صحة ما ينقلونه للناس عمّا يدور بينها وبين (جميل) من مشاعر غراميّة، فيقوم هؤلاء الوشاة بلفت انتباه من معهم من الناس لاتّجاه نظر الحبيب الذي صوّب نظره نحو الحبيبة، فقال:

(الطويل)

عَشِيَّةَ قالت: لا تُضِيعنّ سِرّنا إذا غِبْتَ عنّا وارْعَهُ حين تُدْبِرُ
وطرْفَك إمّا جئتَنا فاحْفَظَنّه فزيْغُ الهوى بادٍ لمنْ يَتَبَصّرُ
وأَعْرِضْ إذا لاقيْتَ عينا تخافُها وظاهِرْ ببُغْضٍ إنّ ذلك أسْتُرُ
فإنّك إن عرّضتْ بي في مقالةٍ يَزِدْ الذي قلتَ واشٍ مُكثِّرُ
وينشُر سرّا في الصديق وغيرهِ يعزُّ علينا نَشْرُه حين يُنْشَرُ
وما زلتَ في إعمال طَرْفِكَ نحونا إذا جئت حتى كاد حُبُّك يظهرُ
لأهلي حتى لامني كلُّ ناصحٍ شفيقٍ له قُرْبَى لدينا وأيْصرُ
وقطّعني فيك الصديقُ ملامةً وإنّي لأعصِي نَهْيَهم حين أُزْجَرُ
وما قلت هذا فاعلمنّ تجنّياً لصرْم ولا هذا بنا عنك يُقصرُ
ولكنّني- أهلي فداؤك – أتقي عليك عيونَ الكاشحين وأحْذَرُ[3]

---

[1] ديوان جميل، ص 64.
[2] م. ن، ص 64.
[3] م.ن، ص 90 – 91.

ومع ذلك لم يستطع هذا الشاعر المحبّ السيطرة على نظره وإجباره على تغيير اتجاهه إلى غير المحبوبة، بل بقي بصره صوبها، الأمر الذي فضح سرّهما، وعرّض المحبوبة للمعاتبة من قبل النّصحاء والأصدقاء الذين لاحظوا ذلك الهوى في عيني (جميل) عندما منحها حبّه بطرف عينيه، والذي صَعُبَ عليه إخفاؤه، فلامته على فعلته هذه، فيسمع (جميل) عتاب الحبيبة الموجه له، وما لحق بها من مضرّة على إثر سلوك عينيه اتجاهها الذي نقل رسالة حبّهما للوشاة، وعرّف الأهل باستمرار حبّه لها، فأكّد (جميل) لمحبوبته (بثينة) أنه سيلتزم بوصيتها، وسيمنح طرفه غيرها، كعادة المحبين الذين يمنحون هواهم إلى غير الحبيبة، متظاهرين ببغضها:

فَقُلْتُ لها: يا بَثْنُ أوصيتِ حافظاً ... وكلُّ امرئٍ لم يرعهُ الله مُعْوَرُ[1]

فإن تكُ أُمُّ الجهم تشكي ملامةً ... إليّ فما أُلفِى من اللوم أكثرُ

سأمنحُ طرْفي حين ألقاكِ غَيْرَكُم ... لكيما يروا أنّ الهوى حيثُ أنظُرُ

وأكنى بأسماءٍ سواك، و أتّقي ... زيارَتَكم، والحبُّ لا يتغيّرُ

فكم قد رأينا واجِداً بحبيبه ... إذا خاف يُبْدي بُغْضَهُ حين يظهرُ[2]

وهذا السلوك غير اللّفظي قام به أيضاً المجنون (قيس بن الملوح)، فهو الآخر تظاهر بالإعراض عن محبوبته، إذا ما وقعت عيناه عليها، وهي وسط صواحبها فلم يصوّب بصره نحوها كي لا ينكشف سرّهما، ولكن حالما ما تعود إليه نظرة الهوى بعد هذا الصدود. قال ابن الملوح:

(الطويل)

إذا جئتها وسْط النساءِ منحتُها ... صدوداً كأنْ النَّفَسَ ليستْ تُريدها

ولي نظرةٌ بعد الصدود من الهوى ... كنظرةِ ثكلى قد أصيب وحيدها[3]

ولم يكتف العاشقان بتجنّب كلّ واحد منهما توجيه نظره صوب الآخر إذا ما التقيا في نفس المكان، بل تظاهر كلّ طرف ببغض الطَّرَف الآخر، على حين أن ما يكمن في عيونهما عكس ما بدا منهما من إعراض وبغض، فجاء على لسان ليلى محبوبة قيس بن الملوح:

(الوافر)

كلانا مُظْهِرٌ للناس بُغْضاً ... وكلٌّ عند صاحبه مكينُ

تُخبِّرُنا العُيون بما أرَدْنا ... وفي القَلْبَين ثَمّ هوى دفينُ[4]

---

[1] مُعوَر: مكشوفةٌ عيونها.
[2] ديوان جميل، ص 92.
[3] ديوان مجنون ليلى، ص 107.
[4] م.ن، ص 239.

وعبّر عن التجربة نفسها الشاعر عمر بن أبي ربيعة لمّا أقبل على محبوبته، فلم يمنحها حبّه بل أخذ يرسل بنظره إلى غيرها، ليؤكد للمتحدثين والناقلين لأخبارهما انقطاع علاقته بهـا، وبهـذا السلوك الذي تظاهر به (عمر) أمام المتربصين بهما، أسكت الأفواه التي رمت حبيبتـه بالسـوء، وكُذِّبت ألسنة أولئك الرقباء من قبل آخرين، حينما تبيّن لهم من هذا الإعراض عن المعشوقة، عدم صحة الأنباء التي وصلت إليهم حول وجود علاقة عاطفيّة بين (عمر) وهذه التي شـاع أمرهـا، فراح الناس يقولون إنّهم كذبوا عليها. قال عمر:

(الكامل)

ولَقَـدْ دَخَلْـتُ البيـتَ يُخْشَـى أهْلُـه ... بعـد الهُـدوء وبعـدما سَـقَط النَـدى
فوجـدتُ فيـه حُـرّة قـد زُيّنـتْ ... بـالحَلْي تحسَـبُه بهـا جَمْـرَ الغَضَـا
لمّـا دخلـتُ مَنَحْـتُ طَرْفـي غيرَهـا ... عمْـدا مخافـةَ أن يُـرى رَيْـعُ الهـوى
كـي مـا يقـول مُحَـدِّثٌ لِجَليسـه ... كَـذَبُوا عليهـا والـذي سَـمَكَ العُلَـى[1]

ومثل ما طالبت محبوبة (جميل) بأن يمنح نظره لغيرها إذا ما قصدها، كي يتبـع الرقبـاء حركة نظره، لكي يُدركوا أنّ عشقه حيث نَظَرَ، وليس للتي شاع حبّه لها، وطلبت كـذلك عشـيقة (عمر بن أبي ربيعة) منه أن يُتْبِع بصره إلى غيرها ليبعد عنها هذه الشبهة. فقال عمر:

(الطويل)

فلّمـا أَجَزْنـا سـاحَةَ الحَـيِّ قُلْـنَ لـي ... أَلَـم تَتَّـق الأعـداء والليـلُ مُقْمِـرُ
وقُلْـنَ أهـذا دأبُـكَ الـدَّهْرَ سـادِراً[2] ... أمـا تَسْـتَحي أو تَرْعَـوى أو تُفَكّـرُ
إذا جِئْـتَ فـامْنَح طَـرْف عينيْـكَ غَيْرَنـا ... لكي يحسِبُوا أنّ الهوى حَيْـثُ تنظُـرُ[3]

وأشدّ ما يثير المحبوبة غضباً أن ترى نظرات عشيقها تتجه صوب غيرها من النسـاء مـن بـاب الإعجاب بهنّ، واستحسانهن عن قصد ورغبة منه، عكس ما تعمّده في المواقف التي فرضت عليه توجيه بصره إلى غيرها من باب التمويه، والحفاظ على سرّها، قال عمر:

(الخفيف)

غَضِـبَتْ أنْ نَظَـرْتُ نحـو نِسـاءٍ ... لـيس يَعْرِفْنَنـي مَـرَرْنَ الطَّريقـا
وأرى بينهـا وبـين نِسـاءٍ ... كُنْـتُ أَهْـدي بِهِـنّ بَوْنـا سَـحِيقا[4]

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة،ص 25.
[2] سادراً: الذي يهتم ولا يُبالي بما يصنع.
[3] م. ن.، ص 124
[4] م.ن، ص 256.

المبحث الخامس:- لغة الدموع:

إنّ الدموع من التّعبيرات غير اللّفظية الملموسة، والدّالة على معان كثيرة، فلا يمكن إخفاؤها عن الآخرين، قد تكون دموع فرح أو دموع حزن وغير ذلك ممّا يعبّر عن مواقف الشوق والعشق والكبت، فهي تنفيس لصاحبها، كما يصعب التّحكم بها كونها صادرة عن عضو حساس من أهم أعضاء الوجه النّاقلة لكثير من الرّسائل غير اللّفظية، وسنجد أنّ الدموع سلاح العشاق في التعبير والتنفيس عن تلك اللّحظات العاطفية المكبوتة التي يمرون بها، فهي أسرع من التعبير اللّفظي إيحاءً إلى الطَّرَف الآخر بما يشعر به ذارفها اتّجاهه. فعبر عن هذا قيس بن الملوح، قائلاً:

(الطويل)

ولي كَبِدٌ حَرَّى وقَلْبٌ مُعَذَّبٌ ... ودَمْعٌ حَثِيثٌ في الهوى غَيْرُ جامِدِ

وآيةُ وَجْدِ الصَّبِّ تَهْطالُ دَمْعِهِ ... ودمعُ الشَّجيّ الصَّبّ أَعدلُ شاهِدِ

على ما انْطَوى مِنْ وجْدِه في ضَميرِهِ ... على الآنِساتِ النّاعِماتِ الخرائِد[1] [2]

ودموع العشّاق جمعت بين تلك المشاعر العاطفيّة المحبوسة في أحشاء ذلك الجسد المرهف ومشاعر الشوق والحنين لرؤية الحبيب الغائب عن العينين، والإحساس بالفرح عند لقائه، والإحساس بالألم لفراقه.

1. شاهد على مشاعر الحبّ المكبوتة:

وفي ظلّ الحواجز التي فرضت على (جميل) وحبيبته (بثينة)منعاً من أن يلتقيا ليودّع أحدهم الآخر، لمّا قرّر أهلها الرّحيل، فلم يكن أمامهما من طريقة سوى دموع العين، التي عبّرت عمّا يحبسه كلٌّ منهما من حبّ اتّجاه الطَّرَف الآخر، قال جميل:

(الطويل)

ولمّا أجدَّ الحيُّ بَيْناً - و لم يكن ... درى أحدٌ مَنْ بينُ بثنةَ فاجعُ

أبتْ مقلتي كتمان ما بي وبيَّنت ... مكان الذي أُخفي وفاض المدامعُ

غداةَ لقيناها على غير موعد ... بأسفل خيمٍ، والمطيُّ خواضعُ

فراجعها القومُ الصحاحُ صدورُهم ... وأعرضتُ عن وجد بها لا أراجعُ

وأومَتْ بجفن العين واحتار دَمْعُها ... لتقتُلَني مملوحةُ الدَّلّ مانعُ

---

[1] الخرائد: جمع خريدة، وهي البكر.

[2] ديوان مجنون ليلى، ص 109.

كمتْ دمعَهــا عــينُ الصــحيح، وبيَّنَــتْ مكــان ذوي الشَّــوق العيــونُ الــدّوامعُ[1]

إنّ الدّموع من العلامات التي جعلها العشاق العذريّون دليلاً واضحاً على ما يكتمونه مــن هوى مكبوت، فاعتبروها شاهداً صادقاً يؤكد للآخرين حجم المعاناة التي يعانونها من هــذا الحــبّ الذي حرّمه مجتمعهم، فقال جميل:

(الطويل)

خَلِيلــيّ مــا أُخفــي مــن الوَجْــدِ ظــاهِرٌ فــدَمْعي بمــا أُخفــي الغَــداة شَــهيدُ[2]

وباتت الدّموع تلازم الشّاعر العذريّ أينما حلّ، تشاركه همّه وتنقل رسالته لمن حوله سواء أكان صامتاً أو متكلّماً، (فقيس بن الملوح) جعلها شاهداً على معاناته التي عاناها من ذلــك الوجــد الذي نال منه، ولم تستطع مقلتاه إخفاءه. فقال:

(الطويل)

وَشَــاهِدُ وَجْــدِي دَمْــعُ عَيْنــي وحُبُّهــا برَى اللَّحمَ عن أَحْنَاء عَظْمــي وَمَنْكبــي[3]

وقال أيضاً:

(الطويل)

ألا إنّ دَمْــعَ الصــبِّ عَمّــا يُجِنُّــهُ[4] وإنْ لــم يَفُــهْ يَومــاً بــه مُــتكلِّمُ
لساني عَيــيٌّ فــي الهَــوى وهــو نــاطِقٌ ودَمْعي فَصيحٌ فــي الهَــوى وهــو أعجــمُ
وكيــف يُطيــقُ الصــبُّ كِتْمــان سِــرِّهِ وهل يَكْتُمُ الوَجدَ أمْــرُؤٌ وَهــو مُغــرَمُ[5]

ذهب قيس بن الملوح إلى ليلى وقد أحسّوا بأمره، فرأته ليلى، فلم تستطع الذهاب لملاقاته، فعبّــرت عن شوقها له بالبكاء، فأنشأ يقول:

(الطويل)

أيــا ليــلُ بُكِّــي لــي بعينيــك رحمــةً مــن الوجــد، ممــا تعلمــين وأعلَــمُ
ألــيس عَجيبــا أن نَكــون ببلــدة كلانــا بهــا يَشْــقَى ولا نَــتَكلَّمُ[6]

---

[1] ديوان جميل، ص 116.
[2] م.ن، 62.
[3] ديوان مجنون ليلى، ص 79.
[4] يُجِنُّهُ: يصيبه.
[5] م. ن.، ص 240.
[6] م. ن.، ص 242.

وكان يستنكر صاحبا (ابن الملوح) عليه كثرة البكاء، فجاء ردّه أنّه لا يستطيع منع نفسه من ذلك، وبالتالي السّيطرة على أمره، لأنّ عينيه مثقلة بما تخفيه أحشاؤه، فما من وسيلة للتنفيس عنها سوى ذرف الدّموع، والبكاء. فقال:

(الطويل)

خليلـــيّ لا تســـتنكرا دائـــم البُكـــا فلـــيس كثيـــراً أنْ أُديـــم بُكائيـــا

وكيف وما في العين مـــن مُضْـمَرِ الحشـا نُضـــمِّنُه الأحـــزانُ منهـــا مكاويـــا[1]

وأكّد (عمر بن أبي ربيعة) لعشيقته شدّة تعلّقه بها، وجعل دموعه دليلاً ملموساً على صحة ما يقوله، فعبّر قائلاً:

(الرمل)

يَشْـــهَدُ اللهُ علـــى حُبّـــي لكـــم وَدُمُـــوعي شَـــاهدٌ لـــي، وحَـــزَنْ[2]

يحاول العشّاق كتمان أسرارهم عن أعين المترصدين بهم، ولكنّ عيونهمتخبرهم عمّا يجول بكيانهم من حبّ عاطفيّ، وحجّتها عليهم ذلك الماء الذي يسقط من العيون، فـــلا يســـتطيع هـــؤلاء العشاق منعه، وحبسه من النزول أو السيطرة عليه في هذا المقام، فقال (العرجي) في هذا:

(الطويل)

إذا رُمْـــتَ كُتْمانـــا لِوجْـــدِكَ حَرّشَـــتْ عليـــكَ العِـــدى عـــينٌ بِســـرِّكَ تَنْطُـــقُ

لهـــا شـــاهدٌ مـــن دَمْعِهـــا كُلَّمـــا رَقَـــا جـــرى شـــاهدٌ مـــن دمعِهـــا مُترقْـــرِقُ[3]

2. الإفصاح عن الشوق والحنين

لم تكن الدموع فقط تنفيساً عمّا يكنّه المحبّ من مشاعر عاطفيّة مكبوتة في ظلّ الحرمان من لقاء المحبوبة، بل كانت علامة محبّة وتودّد بين المحبين، حينما يتواصلون سرّاً إذا ما غفلت عنهم العيون، عبّر الشاعر (جميل) عما وراء تلك الدموع المتجمعة في عينه وعين محبوبته،التي لا تكاد تلاحظ إلا من قبل من يعاني من نفس الشعور الذي يعانيه الطّرف الآخر لحظة التشوق للقاء بعـــد غياب، حيث تهمس دموعهما بمشاعر الحبّ والودّ العاطفيّ:

---

(1) ديوان مجنون ليلى، ص 298.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 388.
(3) ديوان العرجي، ص 275.

(الطويل)

وتَحْـــتَ مجـــارى الـــدّمعِ منّـــا مـــودّةٌ تلاحِـــظُ سِـــرّاً، لا يُنـــادي ولَيـــدُها[1]

وقال جميل أيضاً:

(الطويل)

كلانـــا بكـــى أو كـــاد يبكـــي صـــبابةً إلـــى إِلْفِـــهِ واســـتعجلتْ عَبـــرةً قَبْلـــي[2]

وابن الملوح الذي أحبّ (ليلى العامرية) حبّاً لا مثيل له كان يبكي فرحاً إذا رآها وظفر بلقائها:

(الوافر)

بكـــى فرحـــا بليلـــى إذ رآهـــا محـــبٌّ لا يـــرى حَسَـــنا سِـــواها

لقـــد ظَفِـــرتْ يـــداه و نـــال مُلْكـــا لَـــئِنْ كانَـــتْ تـــراه كمـــا يراهـــا[3]

أخذت إحدى محبوبات عمر تمويه رفيقاتها لمّا رأين ما عليه من وجد، وحب يكنّـه لهـا، فحاولتْ تكذيب ما يدّعيه من حبّ وشوق نحوها، ولكنّ الحالة التي هو عليها من لوعـة المحـبّ، وشدته عليه، فأخذن يصدّقنه، ولاسيّما لما رأين الدموع تُذْرَفُ من عينيه، الأمر الذي دفع المحبوبة إلى الاعتراف بأنّها دموع المشتاق المحب، فكانت دليلاً على مدى صدقه اتّجاهها، فتـركن لهمـا المكان فلم تستطع المحبوبة منع محاجر عينيها من النزول في هذه اللّحظة، عندما خلا لهما الأمر، فأخذت تُسْكَبُ بغزارة. فقال عمر:

(الطويل)

فلمّـــا التقينـــا واطمأنّـــتْ بنـــا النَّـــوى وغُيِّـــبَ عنّـــا مَـــنْ نَخـــافُ ونُشْفِـــقُ

أضـــخَذتُ بِكَفِّـــي كَفَّهـــا فَـــوَضَعْتُها علـــى كَبِـــدٍ، مـــن خَشْـــيَةِ البَـــيْنِ تَخفِـــقُ

فقالـــتْ لأَتْـــرابٍ لهـــا، حـــينَ أَيْقَنَـــت بمـــا قـــد أُلاقـــي، إنّ ذا لـــيس يَصْـــدُقُ

فقُلنَ: أَتَبْكِـــي عَـــينُ مـــن لـــيس موجِعـــا كَئِيبـــا ومـــن هـــو ســـاهرُ اللَّيـــل يـــأرَقُ

فقالـــت: أرى هـــذا اشـــتْياقاً وإنّمـــا دعـــا دَمْـــعَ ذي القلـــبِ الخلـــيِّ التشَـــوُّقُ

فقُلْـــن: شَـــهِدْنا أنّ ذا لـــيس كاذِبـــا ولكنّـــه فـــي مـــا يـــقول مُـــصَدَّقُ

فقُمـــنَ، لكـــي يُخلينَنـــا، فَتَرَقْرَقَـــتْ مَـــدَامِعُ عَيْنَيهـــا، فَظَلَّـــتْ تَـــدَفَّقُ[4]

---

[1] ديوان جميل، ص 70.
[2] م.ن، ص175.
[3] ديوان مجنون ليلى، ص 287.
[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 251 - 252.

3. فضح الوجدان العاطفيّ:

لم يستطع بعض العشاق السيطرة على مدامع الحبّ العاطفيّ و حبسها في العينين، فسرعان ما تسقط من أعينهم، ويلاحظها بعض من يحيط بهم، فيتذرّعون بأنّهم قد أَلَمّ بأعينهم شيء من القذى، فدمعت. قال ابن الملوح:

(الوافر)

فَقُلْـــنَ لقـــد بَكَيْـــتَ فَقُلْـــتُ كـــلا ... وهَـــلْ يَبْكـــي مِـــنْ الطَّـــرب الجَليـــدُ

ولَكِـــنْ قـــد أَصَـــابَ سَـــوادَ عينـــي ... عُوَيْـــدُ قـــذىً لـــه طَـــرْفٌ حَديـــدُ

فقُلْـــنَ فمـــا لِـــدَمْعِهما سَـــواء ... أَكلتـــا مُقْلَتَيْـــكَ أَصـــابَ عُـــود[1]

قال عمرُ معبراً عن الموقف نفسه حيث إنه سترى دمعه عن صحبه ببرد يلبسه، ولكن سرعان ما انكشف لدى أحدهم، فأنكر عمر عليه مارآه مبرراً ذلك بأنّه قد أَلَّمَ بعينه رَمَد، فَذَرَفَتْ بالتّدمع.

(الكامل)

فانْهَـــلَّ دَمْعـــي فـــي الـــرِّداء صَـــبابَةً ... فَسَـــتَرْتُه بالبُـــــرْدِ دون صِـــحابي

فـــرأى سَـــوابقَ عبـــرةٍ مُهْراقـــةٍ ... عمْـــرٌو فقـــال بكـــى أبـــو الخطّـــابِ

فمرَيْـــتُ نظْرَتَـــه وقُلْـــتُ أصـــابني ... رَمَـــدٌ فَهـــاجَ العَـــينُ بالتَّسْـــكَاب[2]

وقال ابن الدمينة في هذا المعنى:

(الطويل)

وقـــال زَمِيلـــي يـــوم ســـالِفَةِ النَّقـــا ... وعَيْنـــايَ مـــن فَـــرْطِ الهـــوى تَكِفَـــانِ

أمـــن أجـــل دارٍ بـــين لُـــوذان والنّقـــا ... غَـــداة اللِّـــوى عينـــاك تبتـــدران

فقلـــتُ: ألا، لا، بـــل قُـــذِيتُ وإنّمـــا ... قَـــذَى العـــين ممّـــا هيـــّجَ الطّلـــلان[3]

إنّ سلطان المحبوب على قلب المحبّ كبير، فلا يستطيع السيطرة على جوانحه الخارجية بمنعها من ظهور ما يخفيه من شوق وحبّ وعشق له، وخاصة مدامع العين فهـي تنسـكب لا شـعورياً إذا أبصرته عيناه. قال ابن الملوح:

---

(1) ديوان مجنون ليلى، ص 103.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 50.
(3) ديوان ابن الدمينة، ص 169.

(الكامل)

هـــو الحـــبُّ لا تخفـــى ســـواكِنُ جِـــدّه وكيف، ويُبدي الـــدمعُ مـــا كـــان خافيـــا[1]

وقال عمر:

(الطويل)

لقـــد عُجْـــتُ فـــي رسْـــمٍ أَجَـــدَّ زمَانُـــه لنـــا دارِسٍ مـــا كـــان غيْـــرُ التّوافُـــقِ
عشيَّـــــةَ قالـــت قـــد أَشـــــادَ بِسِـــرِّنا وسِـــرِكُم مجـــرى الـــدُّموع الـــذّوارِفِ[2]

وقال عمر أيضاً:

(الوافر)

وَيَسَّـــــرَها لنـــــا المَيْمُـــــونُ حتّـــــى لقيناهـــــا بِـــــبَطْنِ مِنَـــــى تَســـــيرُ
فَحَيَّـــــتْ واســـــتَهَلَّ الـــــدّمعُ منّـــــي لِعَبْرَتِهـــــا علـــــى خَـــــدٍّ يَمـــــورُ[3]

4. دموع التألّم والتوجّع:

يَذْرِفُ العشّاق دموعهم عادةً في مواقف العتاب، والتّشكيّ عندما يلتقـــي الطرفـــان، وعنـــد شعور أحد طرفيّ الحبّ بقسوة الطرف الآخر، وغيابه عنه طويلاً، أو انقطاعه عنه فتـــرة طويلـــة بسبب الوشاة، فيذرف دموعه تعبيراً عن مقدار الألم والوجع العاطفيّ الذي تركه الطرف الآخر في نفسه.

فأخذ كل من (جميل) ومحبوبته (بثينة) يراجعان ما كان بينهما من حبّ وعشق منذ الصغر بعدما قطعت (بثينة) العلاقة معه، وصدّها عنه بسبب مسعى الوشاة إلى قطع العلاقة بينهما، وفـــي هذه اللحظة جرى الدمع من عيني (بثينة) يخالطه ذلك الكحل الذي يزين عينيها.

(الطويل)

لقد فَـــرِحَ الواشـــون أنْ صـــرمَتْ حَبْلـــي بثينـــــةُ أو أَبْـــدَتْ لنـــــا جانـــــبَ البُخْـــــلِ
إذا مـــــا تراجعْنـــــا الـــــذي كـــــان بيننـــــا جرى الدَّمعُ من عَينـــي بثينـــةَ بالكُحـــلِ[4]

---

[1] ديوان مجنون ليلى، ص 330.
[2] م.ن، ص 245.
[3] م.ن، ص 181.
[4] ديوان جميل، ص 174- 175.

وتسكب محبوبة عمر بن أبي ربيعة الدّموع بغزارة تعبيراً عن شدّة ألمها، ممّا بَدَرَ من عمر من تغيّر حاله اتجاهها، وبالتالي صرمه لها لاستجابته لقول الحسّاد المبغضين لحبّهما، فقال معبـراً عن هذه:

(الخفيف)

مـن يَكُـنْ ناسـياً فَلَـمْ أَنْـسَ منهـا ... وهـي تُـذْري لـذاك دَمْعـا سِـجاما

يـوم قالـت، وَدَمْعُهـا يَغْسِـلُ الكُحْـ ... ـلَ: أرَدْت الغَـداةَ مِنَّـا انْصِـراما

حُلْـتَ عـن عهـدنا وَطاوَعْـتَ حُسـا ... دا قـدِيماً كـانوا عَلَيْـك رِغامـا[1] [2]

يبدو أنّ تأثير العشق يكون شديداً على صاحبه، فلا يستطيع التّصبّر والاحتمال على مفارقة الحبيب والبعد عنه، فما أن يراه حتى تبتدر عيناه بالدموع السّجام، تماماً كما حصل مع عمر لمّـا قابل عشيقته هند:

(الرمل)

ولَقَـدْ أَذْكُـرُ إذ قِيـلَ لَهَـا ... ودُمـوعي فـوق خَـدّي تَطَّـرِدْ

قُلْـتُ مَـنْ أَنْـتَ فَقَالـت أنـا مَـنْ ... شَـفَّهُ الوَجْـدُ وأَبْـلاه الكَمَـدْ

نَحـنُ أَهْـلُ الخَيْـفِ مِـنْ أهـل مِنـى ... مـا لمقتـول قتلنـاه قـود[3]

ولقد ألمّ الإعياء بجسد (الرّباب) لقلة صبرها عن محبوبها (عمر)، فعمدت إلى شقّ ردائهـا الذي تلبسه لمّا أكدت لها أختها الصغرى بيمين قاطع، بأنّه لن يظهر عليها مـدّة شـهر، فسـقطت الدموع منها لهول ما سمعته من أختها، فجزعت جزعاً شديداً، فقال عمر معبراً عن هذا المشهد:

(الكامل)

قالـت لهـا الصُّـغْرى وقـد حَلَفَـتْ ... بـاللهِ لا يأْتِيكُمـا شَـهْـرا

فَتَنَفَّسَـتْ صَـعَداً لِحِلْفَتِـها ... وهـوت فَشـقّت جيبهـا فَطْـرا

وَجَـرَت مآقيهـا بأَدْمُعهـا ... جَزَعـا وقالـتْ حُـبَّ مـن ذُكِـرا[4]

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 351.
[2] رغام: جمع راغم، وهو العدو الغاصب.
[3] م.ن، ص 102.
[4] م.ن، ص 174.

وهذا (العرجيّ) يخاطب محبوبته تحت فيض من الدموع التي أخذت تتردّد في عينيه موجّها لها تساؤله عن أسباب هجرها له، فهل هي ناتجة عن قولٍ كاذبٍ نقله الواشي، أم أنساها إيّاه البعد والفراق، أم تَعَمُّدها لهجره وصرمه، قال:

(الطويل)

فلمـــا بـــدا لـــي أنَّـــها مُستَفِـــزَّةٌ ... قـــد اضْـــرَمها الواشـــي علـــيّ وَأَوْقَـــدا
أَقـــولُ لهـــا والعَـــيْنُ قـــد فـــاضَ دَمْعُهـــا ... وقد كانَ فيهـــا دَمْعُـــهـــا قـــد تـــرَدَّدا
أسَـــلاّكِ عَنّـــي النَّـــأْيُ أم عاقَـــكِ العِـــدى ... بما اقتَرفوا أم جِئْـــتِ صَـــرْمي تعَمُّـــدا[1]

5- دموع البين والوداع:

يشتدّ الموقف صعوبة على العاشقين إذا ما فُرّق بينهما للأبد، برحيل المحبوبة، فلم يبق عند العاشق من سلاح يعبّر عن حزنه لهذا البين سوى هطل الدّمع، كما حصل مع (جميل بثينة). حـين قال:

(الطويل)

وآخـــرُ عَهـــدي مـــن بثينـــة نظـــرةٌ ... علـــى موقـــفٍ كـــادت مـــن البـــين تَقْتُـــلُ
فللّـــه عينـــاً مـــن رأى مثـــل حاجـــةٍ ... كَتَمْتُكهـــا والـــنفس منهـــا تَمَلْمَـــلُ
وإنّـــي لأســـتبكي إذا ذُكِـــرَ الهـــوى ... إليـــك وإنّـــي مـــن هـــواك لأَوْجَـــلُ
نظـــرت ببشْـــرٍ نَظْـــرةً ظَلْـــتُ أَمْتَـــري ... بهـــا عبـــرةً والعـــينُ بالـــدّمع تُكْحَـــلُ
إذا مـــا كـــررتُ الطَـــرْفِ نحـــوَك ردَّه ... من البعـــدِ فيّـــاضٌ مـــن الـــدمعِ يَهْمِـــلُ[2]

وكذلك عبّر عمر بن أبي ربيعة عن لحظة وداع المحبوبة بعـد لقـاء حافـل بالمشـاعر العاطفيّة، بأنّها لحظة شديدة عليهما، فكانت الدّموع تصطحب هذه اللحظة الشديدة الانفعـال، قـال عمر:

(الخفيف)

كِـــدْتُ يـــومَ الرَّحيـــل أَقْضـــي حَيـــاتي ... لَيْتَنـــي مِـــتُّ قبـــل يـــومِ الرَّحِيـــلِ
لا أُطيـــقُ الكـــلامَ مِـــنْ شِـــدَّةِ الوَجْـــدِ ... ودَمعـــي يَسْـــيلُ كُـــلَّ مُســـيلِ
ذَرَفَـــتْ عَيْنُهـــا، ففاضَـــتْ دُمُـــوعي، ... وكِلانـــا يَلْقـــى بِلُـــبٍّ أَصـــيلِ[3]

---

[1] ديوان العرجي، ص201.
[2] ديوان جميل، ص163.
[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص280.

عرض عمر صورة جليّة عن الحال التي آل إليها، حيث كشفت عنها عيناه، فكانت دليلاً صادقاً لرفقات المحبوبة التي لم تحسن التصرّف حياله بناءً على ما يكنّه لها من حبّ، فَوُصِفت من قبلهنّ بأنّها خرقاء، لهذا نصحنها بأنْ تتلطّف معه، لأنّ عَبْرَته كادت تتكلم من شدة الموقف والألم الذي انتابه لحظة البين والفراق، فقال عمر:

(الطويل)

لَعَمْري لو أَبْصَرتني يَومَ بنتُمُ ... وَعَيْني بجاري دَمْعِها تَتَرقْرقُ
فقالت لها إحداهما: هو مُحْسِنٌ ... وأنت به، في ما ترى العينُ، أَخْرَقُ[1]
وقالت لها الأُخرى: أَرْجِعِيهِ بما اشتهى، ... فإنَّ هواهُ بَيِّنٌ حِينَ يَنْطِقُ
شَفَعْنَ إليها، حِينَ أَبْصَرْنَ عَبْرَتي، ... وقَلْبي، حِذارَ العَيْنِ، مِنْهُنَّ مُشْفِقُ
تكادُ غداة البَينِ، تَنْطِقُ عَيْنُهُ ... بِعِبْرَتِهِ، لو كانتِ العَيْنُ تَنْطِقُ[2]

وقال أيضاً:

(الكامل)

حتّى إذا ما الصُّبحُ آنفنا ... وبدَتْ سواطِعُ من سَنا الفَجرِ
جَعَلَتْ تُحَدِّر ماءَ مُقْلَتِها ... وَتَقُولُ مالي عَنْكَ مِنْ صَبْرِ[3]

ورسم الشاعر (العرجي) لحظة وداعه للأحبّة، حيث تكّلمت الأعين بالدموع السواجم حينما امتنع اللسان عن وداعهنّ بالكلام:

(البسيط)

ودَّعْتُهُنَّ ولا شيءٌ يُرَاجِعُني ... إلا البَنانُ وإلاّ الأَعيُنُ السُّجُمُ
إذا أردنَ كَلامي عِندَهُ اعْتَرَضَتْ ... من دُونِهِ عَبَراتٌ فانثنى الكَلِمُ[4]

وأمام عزم الشاعر (الأحوص) على الرحيل، وَتَرْكِ أرض المحبوبة، تَنْهَمر دموع الحبيبة متوسّلة إليه بالبقاء، فقال معبراً عن هذه اللحظة الصعبة:

(البسيط)

وقد عَجِبْتُ لِمَا قالت بذي سَلَمَ ... ودَمْعُها بِسَحيق الكُحْلِ يَطَّرِدُ

---

(1) أخرق: لا تحسن التصرف حياله.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 258- 259.
(3) م. ن، ص 196.
(4) ديوان العرجي، ص 315.

قالــت: أقِــمْ لا تَــبِنْ مِنَّــا، فقلــتُ لهــا: إنّــي وإنْ كُنــتُ مَلعُوجــاً بــي الكَمَــدُ
لَتَــارِكٌ أَرْضَــكُمْ مِــنْ غيــر مَقْــلِيةٍ وزائــرٌ أَهْــلَ حُلْــوان وإنْ بَعُــدُوا[1]

وكما جُعِلتْ الدموع علامات دالة على الوفاء وحسن الجمال، (فقيس بن الملوح) أَخبَرَ مــن وجّه له الخطاب بعلامات تدلّه على وفاء محبوبته، وتتمثل في إظهار الحزن، وذرف الدّموع. فقال:

(الطويل)

وإنّــك لــو بلّغتَهــا قــولي اسْــلمى طــوتْ حَزَنــا وارفــضّ منهــا دموعُهــا
وبانَ الذي تُخفي مِنْ الشَّوق فــي الحشــى إذا هاجهــا منّــي حَــديثٌ يَرُوعهــا
وفاضــتْ فلم تَملك ســوى فَــيْضِ عَبْــرَةٍ وقلّ لبــاقي العيــش منهــا قُنُوعُهــا[2]

ورأى جميل أنّ الدموع الساقطة من عيني محبوبته تزيدها جمالا، وقال:

(الطويل)

فيــا حُسْــنَها إذ يَغْسُــلُ الــدّمعُ كُحْلَهــا وإذ هي تُــذرِي الــدّمعَ منهــا الأَنامــلُ[3]

---

(1) شعر الأحوص الأنصاري، ص 93.
(2) ديوان مجنون ليلى، ص 194.
(3) ديوان جميل، ص 159.

المبحث السادس:- لغة الشّم

تمكن الكائن البشريّ من التمييز بين مختلف الروائح المحيطة به، فكان ينجذب لبعضها، وينفر من الأخرى، وهذا كلّه بفضل حاسة الشمّ التي جعلته يشتدّ لما هو طيب العبق، ويتجنّب ما هو نتن الرائحة، وبهذا تكون حاسة الشّم أداة اتّصال غير مباشرة مهمّة في التعرّف على مختلف الروائح، فتدلنا على الدلالات التي تعبّر عن روائح الأشياء والأشخاص والأماكن، لأنّ الإحساس بالموضوع الخارجي فيها لا يكون عن طريق التماس به، كما هو الأمر في اللّمس والذوق بل يتأثر به عن بُعد[1]. فأخذ المرء يبحث عن كل ما يجمّله و يقرّبه من الآخرين عبر حاسة الشّم، فتعطّر منذ القدم بأطيب الروائح الزكيّة المنبعثة من العنبر والمسك والريحان وغير ذلك. فحاسة الشَّم هدت الإنسان إلى التعرف على ذوق الأشخاص في اختيار الرّوائح العطرية التي يرونها مناسبة لهم. فكان بعض الأفراد يُعْرَفون من نوع الطيب الذي ينبعث من ملابسهم قبل أن تبصرهم العين.

فالعرب قديماً عقلت الروائح فلم تضع أسماء لها، حتى لزم تعريفها بالإضافة، فيقال "ريح المسك، ريح العود"[2]. فشاهد على ذلك قول امرؤ القيس:

إذا قامتا تضّوع المسكُ منها نَسيمَ الصِّبا جاءت برّيا القَرَنْفُلِ[3]

وكذلك جاء في الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾.[4]

فإرسال يوسف قميصه مع إخوته إلى أبيه ما كان إلا لغاية وهي أن يشمّ الأب ريح ابنه يوسف الذي أودع قلبه من الحزن والشّوق فأذهب بصره، فما أن يشم أثر ريح يوسف في قميصه حالما تعود إليه روحه ويرجع إليه بصرهُ لأن (كل داء يداوى بضده)، فحاسة الشم دلت سيدنا يعقوب – عليه السلام – بقدرة الله تعالى على رائحة ابنه يوسف عليه السلام التي انبعثت من قميصه قبل أن يلمسه بيديه، فدبّت في قلبه الحياة.[5]

---

(1) محمد العربي بو عزيزي، نظرية المعرفة، ص339.
(2) أبو حامد الغزالي، المستصى من علم الأصول، ص323.
(3) برّيا القَرَنْفُل: رائحة القرنفل.
(4) سورة يوسف، آية 93 -94.
(5) ينظر السعدي، تفسير السعدي، ص413.

لقد نقل لنا شعر الغزل أهمية الدور الذي قامت به حاسة الشمّ في عمليـــة التّواصـــل بـــين المحبين، فكانت لغة بارزة من بين عدّة لغات غير لفظيّة، شدّت العاشـــق بمحبوبتـــه، فاستحضـــر صورتها من خلال رائحتها العطريّة التي تخصّها. صدق الشاعر الذي عبّر عن أهمية الدور الذي تقوم به هذه الحاسة الشميّة في نقل الكثير من المعاني، والدّلالات للإنسان من غير لفظ تماماً كالدّور الذي تقوم به العين والأذن فقال:

(البسيط)

والعـــينُ تَعْشَـــقُ مـــا تهـــوى وتُبصِـــرُه وكـــذاك تعشـــقُ فيـــك الأنْـــفُ والأذنُ[1]

وللروائح التي تنقل عبر حاسة الشمّ رسائل متباينة لا يمكن كتمها ومنعها من الانتشار عن الآخرين، كالإخبار عن حضور صاحب الرّائحة التي عمّت رائحته المكان الذي وجد فيه، على نحو ما عبّر عنه عمر:

(الكامل)

جـــاءَ البَشـــيرُ بأَنَّهـــا قَـــدْ أَقْبَلَـــتْ ريـــحٌ لهـــا أَرِجٌ[2] بِكُـــلِّ فَضَـــاءِ[3]

فمن اصطلى بنار العشق، زادته الرائحة المنبعثة من حبيبة القلب تعلقاً بها لسرعة انتقالها إليه عند ما يلتقي بها، فتبقى رائحة المحبوبة ملتصقة بملابسه لا تغادره، فعبّر عن هذا جميل:

(الطويل)

كـــأَنَّ فَتِيـــتَ المســـكِ خَـــالطَ نَشْـــرَها تُغَـــلُّ[4] بـــه أَردانُهـــا والمَرَافِـــقُ
تقـــوم إذا قامـــتْ بِـــه عـــن فراشـــها ويغـــدو بـــه مِـــنْ حُضْـــنها مَـــنْ تُعـــانِقُ[5]

وقال جميل أيضاً:

(الطويل)

تـــأرَّجُ بالمســـكِ الأحـــمِّ ثيابُهـــا إذا عَرِقَـــتْ فيهـــا وبـــالعنْبرِ الـــوردِ[6]

---

(1) ابن أبي حجلة المغربي، ديوان الصبابة، ص 64.
(2) أرج: فاحت رائحة طيبة.
(3) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة،ص 21.
(4) تُغَلُّ: مسح الرائحة بالأكمام وأدخلها فيه.
(5) ديوان جميل، ص 143.
(6) م.ن، ص 75.

والمعجبات بعمر بن أبي ربيعة سَعِدْنَ بقدوم عمر في وقت اشتداد ظلمة الليل مع تغيّب الوشاة، فَعَرَفْنَهُ من رائحة المسك التي تفوح من ثيابه، يقول عمر في هذا:

(الرمل)

قُلْنَ تَعْرِفنَ الفتى قُلْنَ نَعَمْ ... قَدْ عَرفْناه وَهَلْ يَخْفَى القَمَرْ

فأتانا حِينَ أَلْقَى بَرْكَهْ ... جَمَلُ اللّيلِ عَلَيهِ واسبَطَرْ[1]

ورُضابُ المِسْكِ من أثوابِهِ ... مَرْمَرَ الماءَ عليه فَنَضَرْ[2]

ويَجْذُبُ عَبيرُ المرأة الشاعر عمر بن أبي ربيعة، فَيَسْلُبُ قَلبَهُ جمالُ جِسمها المنبعثة منه رائحة العبير، فقال:

(الكامل)

وَذَكَرْتُ فاطمةَ الّتي عُلِّقْتُها ... غرَضاً فيا لَحَوادِثِ الدَّهْرِ

مَمْكُورَةٌ رَدْعُ العَبيرِ بها ... جُمُّ العِظامِ لَطيفَةُ الخَصْرِ[3]

فَسَبَتْ فُؤادي إذْ عَرَضْتُ لها ... يَوْمَ الرَّحيلِ بساحَةِ القَصْرِ

بُمزيَّنٍ ردْعُ العبيرِ بِهِ ... حَسَنِ التَّرائبِ[4] واضحِ النَّحْرِ[5]

وقال أيضاً:

(المتقارب)

فَحُورٍ كَمِثْلِ ظِباءِ الخريـ ... ـفِ أُخْرِجْنَ يَمْشينَ مشياً قطوفا

تضوَّعَ أردانُهُنّ العبيرَ ... والرّندَ خالطَ مِسْكا مَدوفا[6]

يهيّجن من بَرَداتٍ القلو ... بِ شَوْقا إذا ما ضَرَبْنَ الدُّفوفا[7]

ونجد أنّ (عمر بن أبي ربيعة) تواصل مع عشيقته بلغة الشمّ التي عبرت له عن أنواع الطيب التي كانت تستخدمها من مسك وكافور، وزنجبيل، وعبق التفاح، والعسل حيث أثّر في عواطفه، كاد يصاب بالمسّ لشدة وقع رائحته عليه. فقال:

---

(1) اسبَطر: اشتدّ ظلمُه.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 169.
(3) ممكورة: مستديرة السّاقين. جُمٌّ: كناية عن كثرة اللحم.
(4) التّرائب: أعلى الصدر.
(5) م.ن، ص 172.
(6) الرّند: نبات من البادية طيب الرائحة. مدوفاً: مخلوطاً.
(7) م. ن، ص 238.

(البسيط)

يـــا أُمّ نوفَـــلَ، فُكّـــي عانِيـــا[1] مَثَلَـــت ... بـــه قُرَيْبـــةُ، أو هـــو هالِـــكٌ عَجَـــلا

كمـــا دَعَـــوْتِ التـــي قامَـــتْ بِقَرْقَرِهـــا ... تَمْشـــي كَمَشْـــي ضَـــعيفٍ خـــرَّ، فانْخَـــذَلا

فَمَجَّـــتِ المِسْـــكَ بَحْتـــاً لـــيس يَخْلِطُـــهُ ... إلا سَـــحِيقٌ مِـــنْ الكـــافورِ قَـــدْ نُخِـــلا

والزّنجبيـــلُ مَـــعَ التُّفـــاحِ تَحسَـــبُهُ ... مِـــنْ طِيـــبِ رِيقَتِهـــا، قَـــدْ خـــالطَ العَسَـــلا

لـــو كـــان يخبِـــلُ طِيـــبُ النّشْـــر ذا بَشَـــرٍ ... لكنتُ مـــن طِيـــبِ رَيَّاهـــا الـــذي خُـــبِلا[2]

وعادة كانت المحبوبة تُعرف بالعطر الذي يخص ذوقها، فتتميّز عن غيرها من صـــواحبها من النساء بنشرها، فقال عمر في عشيقته التي دلّه عليها عبيرها، الذي عطّر المكان الـــذي مشـــت فيه:

(الكامل)

أَقْبَلْـــتُ أُخْفـــي مِشْـــيَتي مُتَقَنِّعـــاً ... وأَخـــو الخَفـــاءِ إذا مَشـــى يَتَقَنَّـــعُ

فأَتَيْـــتُ حـــينَ تَضَـــجَّعوا بعـــد الونـــا ... مـــن سَـــيرِهِمْ أو قَبْـــلَ أن يَتَضَـــجَّعوا

فـــإذا ثـــلاث بَيـــنَهُنَّ عقيلَـــةٌ ... مثـــل الغَمَامَـــةِ نشـــرُها يَتَضَـــوَّعُ

فَعَرَفْـــتُ صُـــورَتَها ولـــيس بُمْنكِـــرٍ ... أحـــدٌ شُـــعاعَ الشَّـــمْسِ ســـاعَةَ تَطْلُـــعُ[3]

هذا (العرجي) يتباهى بنشر صاحبته (زينب) الذي تعطّر به بطن نعمان رغم أنها واحدة من بـــين نسوة عطرات:

(الطويل)

تضـــوّعَ مســـكا بطـــن نَعمـــانَ أن مشـــتْ ... بـــه زينـــب فـــي نســـوةٍ عطـــراتِ[4]

أصبحت الروائح الزكيّة التي تفوح من الحبيبات على اختلاف أنواعها مصطلحات شـــعريّة متداولة بين المحبين، يستخدمونها في أشعارهم وقت خلوتهم، وانفرادهم مع أنفسهم. وهذا يؤكد مدى الأثر الذي تركته هذه الروائح في نفس المحبين عبر حاسة الشمّ، فلم يستطيعوا نسيانها، بل زادتهم جاذبية للمحبوبة، فجعلوها لغة توصلهم بالمحبوبة. يقول محمد كشّاش: "ارتقى المبدأ الشميّ حتّـــى

---

(1) عانياً: العاشق شديد المعاناة في عشقه.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 292.
(3) م. ن، ص 227.
(4) ديوان العرجي، ص 187، وينسب هذا لعبد الله بن نمير الثقفي.

أضحى متداولاً، ومركّباً تعبيريّاً معروفا، يلجأ إليه العاشقون، يصطلون بناره، وهم يعشــون فــي الفيافي بحثاً عن صويحباتهم".[1]

لقد اهتدى العرجي إلى محبوبته من خلال شمّه لريحها الأرج، الذي فاح منها في مكان يُسمّى "فلج" حيث واعدته بمقابلته فيه، قال:

(المنسرح)

يَــوْمَ يقــولُ الرّســولُ: قــد أذِنَــتْ فــأتِ علــى غَيْــرِ رِقبــةٍ فَلِــجِ
أقبلْــتُ أَهــوِي إلــى رِحَــالِهِم أُهَــدَى إليهــا بِرِيحَهــا الأَرجِ[2]

استحضر الشاعر (العرجي) صورة حبيبته (أسماء) عن طريق أريجها الذي هو من زهــر البقــل، فأُخِذ بسحر عبقه، فَظَلّت رائحتها عالقة بوجدانه. فقال:

(الطويل)

لأســماءَ إذْ قَلبــي بأَسْــماءَ مُغْــرَمٌ وفــي ذِكــرِ أســماءَ المَليحَــةِ مُهْجَــرُ
لهــا أرجٌ مــن زَاهِــر البقــلِ والثّــرى وبُــرْدٌ إذا مــا باشَــرَ الجِلْــدَ يَخْصَــرُ[3]

وصف الشاعر (ابن الدّمينة) المكوّنات التي تركّبت منها رائحة عطر حبيبته (أميمة) والتي أحيت وجدانه العاطفيّ، فهي رائحة طيبة مستحضرة من نبت يقال له (خُزامى)، وهو نبت طيــب الرائحة له زهرة كالبنفسج مخلوط بنبت الرّيحان، قال:

(الكامل)

وكــأنَّ رَيَّــا مــن خُزامــى خالطــتْ رَيْحــانَ روضِ قــرارةٍ مَوْبــولا
رَيَّــا أُمَيْمَــةَ كُلَّمــا أَهْــدى لنــا نَسْــمُ الرِّيــاح مــن الجنــوبِ أَصِــيلا[4]

وفي موقف آخر يتباهى ابن الدمينة ببياض ومحاسن عشيقته (أميميــة) بقولــه "رعبوبــة" وكذلك برائحة عبيرها، الذي هو أخلاطٌ من الطّيب تُجْمَعُ بالزعفران والتي التصقت بثوبها، فقال في ذلك:

---

[1] محمد كشّاش، اللغة والحواس، ص 125.
[2] ديوان العرجي، ص 193.
[3] م.ن، ص 224 – 225.
[4] ديوان ابن الدمينة، ص 47.

(الكامل)

رُعْبُوبـــةٍ نفْـــحُ العَبيـــر بِجَيْبِهـــا عَبَـــقٌ، ولا تَصِـــلُ المُحِـــبَّ بَطائِـــلِ[1]

فرائحة المحبوبة الخاصة بها أضحت تقوم مقام الإشارة والإيماءة في إخبـار المُحـب بوصـول المحبوبة وإرشاده بمكان وجودها، قال ابن الدمينة:

(الطويل)

وَأُعْـــرِضُ عـــن أُمِّ البخيـــلِ وأَتَّقـــي عُيـــونَ العِـــدَى حتّـــى كـــأنّي أُهينُهـــا
وفـــي القَلْـــبِ مـــن أُمِّ البَخيـــلِ ضَـــمانةٌ إذا ذُكِـــرَتْ كـــادَ الحنـــينُ يُبينُهـــا
أتتنـــا بِرَيّاهـــا جَنُـــوبٌ مُرِبَّـــةٌ لهـــا بَـــرْدُ أَنْفَـــاسِ الرِّيـــاحِ وَلِينُهـــا[2]

وقال أيضاً:

(الوافر)

وبـــيضٌ يَـــرْتَمينَ إذا التقينـــا قُلُـــوبَ القَـــومِ، أعيُـــنُهُنّ حُـــورُ
هِجـــانُ اللّـــونِ أبكـــارٌ وعـــونٌ علـــيهنَّ المجاسِـــدُ والحريـــرُ
إذا طَـــرَدَتْ فُنُـــونُ الـــرِّيحِ فيـــه تَوَشّـــى المِسْـــكُ يـــأْرَجُ والعبِيـــرُ[3]

فعشق الشاعر المحبذ تلك الرائحة المنبعثة من حبيبته، والمختلطة بأطيب الروائح المتكونة من المسك، ونبت الخزامى الطّيب النّشر، تماماً كما يعشق الشّارب الخمر، ويشتم ريحها عن بُعـد لشدة تعلّقه بها. قال الأحوص:

(الطويل)

كـــأنَّ ذكـــيّ المســـكِ منهـــا وقـــد بَـــدَتْ وريـــحَ الخُزَامَـــى عَرْفُـــهُ يَـــنْفَحُ النّـــدا[4]
وإنّـــي أهواهـــا وأهـــوى لقاءهـــا كما يَشْـــتَهي الصَّـــادي الشَّـــراب المُبَـــرَّدا

ارتبطت مشاعر العشّاق ارتباطاً وثيقا بحاسة الشمّ التي تذكرهم برائحة المحبوبة أينما حلّوا، وليس هذا فَحَسْب، بل وجدوا في هذه الحاسة ما يعيدهم إلى صورة الماضي، ذلك الماضـي الـذي يذكّرهم بالحبّ المكبوت عندما يمرّون بأطلال ديار المحبوبة التي ظعنت منها، فيكون الشمّ وسـيلة

---

(1) ديوان ابن الدمينة، ص 75.
(2) م.ن، ص 94.
(3) م.ن، ص 188.
(4) شعر الأحوص الأنصاري، ص 99.

تواصل معبرة حيث تبعث في نفس العاشق ذلك الطيب الذي كانت تستخدمه محبوبته في الأمـــاكن التي كانت تقيم فيها، فيقوم بتقبيلها ليستعيد رائحتها التي لا تفارق حاسة شمّه. قال جميل:

(الطويل)

ألا أيُّهـــا الرَّبْـــعُ الـــذي غَيَّـــر البِلَـــى عفا وخلا مـــن بعـــد مـــا كـــان لا يخلـــو

تَـــذاءَبُ رِيـــحُ المِسْـــكَ فيـــهِ وإنَّمـــا به المِسْكُ إذْ جَـــرَّتْ بـــه ذَيْلَهـــا جُمْـــلُ[1]

[1] ديوان جميل، ص 157.

المبحث السابع:- لغة الابتسامة:

إنّ الفم والعينين من أكثر أجزاء الوجه إفصاحاً عن الانفعالات الصادرة عن الإنسان، فالفم كالعين ينقل لنا دلالات مختلفة تبعاً للمواقف التي تعبّر عنها البسمة، يعتبر "آلن بيز": "إنّ الابتسام هو، ربما، واحد من أهم العناصر أو الأجزاء الأساسية في لغة الجسد التي نمتلكها. إن الابتسامات الصادرة عن القلب هي ما تتفرّد به الكائنات البشريّة".[1]

والابتسامة الصادرة عن الحبيب ليست كأي ابتسامة، فهي تثير فيه استجابات مختلفة بناء على ما أوحت به من دلالات غير لفظيّة، لذلك ابتسامة أحد طرفيّ الحبّ كانت تُحْمَل مَحْمَلُ الجِدّ.

1 تبسم المداعبة والمزاح والتغامز:

فلما دخل (جميل) بيت معشوقته متخفياً على غير ميعاد، هدّدته بأهلها إن لم يخرج حالاً، فخرج خوفاً عندما علم جدّيتها لحلفها اليمين، فلمّا أتبعت يمينها بابتسامة، عرف أنّها لم تكن جادة في يمينها فليس عليها إثم إن لم تَبِرّ بها، بل كانت تمازحه وتداعبه بدليل أنّها أخذت برأسه تلامسه بأصابعها المخضّبات الفرحات. فقال:

(الكامل)

فَدَنَوْتُ مُخْتَفِياً أُلِمُّ ببيتها ... حتّى وَلَجْتُ إلى خَفِيِّ المُوْلِجِ

قالت: وَعَيْشِ أخي وَنَعْمةِ والدي ... لأُبِّهِنَّ الحي إنْ لم تَخْرُجِ

فخرجتُ خوفَ يمينِها فتبسَّمتْ ... فَعَلِمْتُ أنّ يمينَها لم تحْرَجِ

فتناولتْ رأسي لتعرفَ مَسّهُ ... بمُخَضَّبِ الأُطرافِ غيرِ مُشَنّجِ[2]

وعادةً المرأة العربية لا تكن جادة في مواعيدها مع الحبيب من باب التظاهر بالتعالي، وعدم الاكتراث لمقابلته نزولاً عند رغبته، وهذا ما فعلته عشيقة عمر (هند) كلمّا طالبها بضرب موعد للقائها، كانت تبدر منها الضّحكة الأنثوية التي تعبّر له بأنّها تتلاعب بأعصابه لعدم إعطائه موعداً محدداً، ودلنا على ذلك بتنكيره كلمة (الغد) في قوله:

(الرمل)

كُلّما قُلْتُ متى ميعادُنا ... ضَحِكَتْ هندٌ وقالت بعد غَدْ[3]

---

[1] آلن بيز، لغة الجسد، ص169.

[2] ديوان جميل، ص 41- 42. * نسبت هذه الأبيات لعمر بن أبي ربيعة، ينظر ديوانه ص 84.

[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص103.

أشار (عمر) في قصيدة "ليت هنداً" إلى أن عشيقته (هنداً) خلعت بعض ملابسها التي ترتديها أمام جاراتها لتتبرّد من شدّة الحرّ، فأظهرت لهنّ بعض محاسنها، فسألتهنّ هل هي على قدر من الجمال والحُسن كما نعتها عشيقها عمر، فأخذن يتضاحكن بتغامز، معلّقات على قولها بأنّ المحبوب وإنْ لم يكن على قدر من الحسن والجمال، فهو جميل في عين من يودُّه، فلمس عمر من قولهّن وسلوكهن هذا حسداً، أبدته نفوسهّن اتجاهها. فقال:

(الرمل)

زَعَمُوهـــا سَـــأَلَتْ جاراتِهـــا ... وتَعَـــرَّتْ ذاتَ يـــومٍ تَبْتَـــرِدْ
أَكَمـــا يَنْعَتُنـــي تُبصِـــرُنَني ... عُمْـــرَكُنّ اللهِ أمْ لا يَقْتَصِـــدْ
فَتَضَـــاحَكْنَ وَقَـــدْ قُلْـــنَ لهـــا ... حَسَـــنٌ فـــي كـــلِّ عَـــينٍ مَـــنْ تَـــوَدْ
حَسَـــداً حُمِّلْنَـــهُ مـــن شَـــأْنِها ... وَقَـــديماً كـــان فـــي النّـــاسِ الحَسَـــدْ[1]

2-ابتسامة الاستنكار والتعجب:

استقبلت (بثينة) عشيقها (جميلاً) بعتاب شديد لتأخره عن لقائها محاولة استكشاف أسباب غيابه عنها بعرضها – باستخفاف – جملةً من الأعذار كإنجازه حاجة عرضت له، أو علّة ألمّت به، أو انشغاله بامرأة أخرى غيرها فجاء جوابه: بل مرض أصابه كاد يُميتـه. فاستضحكت مبدية استنكارها لما علّل به غيابه عنها، وهو علّة عشقها، فطالبته أنْ يكشف عن أعراض هذه العلّة، على حين يبدو صاحبها – من وجهة نظرها – أكثر تألّقاً وجمالاً. فقال جميل:

(البسيط)

قالـــت بثينـــةُ، لمـــا جئـــتُ زائرهـــا ... ســـبحانَ ربِّ العُلـــى، مـــا كـــان أوحاكـــا
وعـــدتنا أتْيـــةً فـــي خُلـــوةٍ عَجـــلا ... فمـــا انقضـــى يَوْمُنـــا حتـــى رَأَيْناكـــا
إن كنـــت ذا غـــرضٍ أو كنـــتَ ذا مـــرض ... أو كنـــت ذا خُلّـــةٍ غيـــري عذرنـــاكا
فقلـــت: بـــل مـــرضٌ قـــد كـــاد يُـــذهبُني ... فاستَضْحَكَتْ ثم قالـــت لـــي: أَبِـــنْ ذاكـــا
إنْ كنـــتَ ذا مـــرضٍ يـــزداد صـــاحبه ... حُسْنًا، فيا ليت بـــي أضـــعافَ شَـــكواكا[2]

لمّا رأت (قُريبة) جماعة يمتطون الخيل والإبل السريعة قاطعين الأرض ليلاً، ولمّا بدا من بينهم صاحبُها نحيلاً شاحباً لِمَا ألمَّ به من إعياء السّفر دون أخذ قسط من الإجمام والرّاحة، لأنّه كان على عُجالة للقائها، فضحكت بعجب لهيئته الجسميّة التي بات عليها، قال عمر في هذا الموقف:

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص101.
[2] م.ن، ص155.

(المتقارب)

ومـــــن عَجَـــــبٍ ضَـــــحِكَتْ إذ رأتْ ... قُرَيْبَـــــةُ بـــــالخيْفِ ركْبـــاً وُقُوفـــا
رَأَتْ رَجُـــــلاً شـــــاحِباً جِسْـــــمُهُ ... مُسَـــــارِي أَرْضٍ أَطَـــــالَ الوَجِيفـــا[1]
أخـــا سَـــفَرٍ لا يُجِـــمُّ المطـــيَّ ... بعـــــدَ الكلالَـــــةِ إلاّ خفوفـــــا
فإمّـــا تَرَيْنـــي كســـاني السِّـــفا ... رُ لَـــوْنَ السَّـــوادِ وجِسْـــماً نحيفـــا

سأل عمر عشيقته عن طريق جارية أرسلها لها – بأن تمنحه وُدّها وعطفها لأنّـــه كَلِـــفٌ، وولع بها، وإن هي لم تصله وتنوّله مراده، فسوف يقع صريع حبها، فقابلت هذا الطلب بابتسامة تنّمُّ عن تَعَجُبِها لعلمها بسجايا هذا العاشق، التي طبع عليها في الحبّ، فهو في نظرها مُتقلِّب الأهـــواء مولع بعشق جميع الحسناوات، فكيف بحبّ يقتله؟! فقال:

(الكامل)

فبعثـــتُ جـــاريتي، فقلـــت لهـــا: اذهبـــي ... فاشـــكي إليهـــا مـــا علِمـــت وســـلّمي
قـــولي، يقـــول: تحـــوّبي فـــي عاشـــق ... كَلِـــفٍ بكُـــم حتّـــى الممـــات مُتيّـــمِ
فُكّـــي رهينَتَـــه، فـــإنْ لـــم تفعلـــي ... فابكي علـــى قتـــل ابـــن عمّـــك واســـلمي
فتبسّـــمت عجبـــا، وقالـــت حقّـــه ... أن لا يُعلّمَنـــا بمـــا لـــم نعلـــمِ
عِلْمـــي بـــه، والله يغفـــر ذنبـــه، ... فيمـــا بـــدا لـــي ذو هـــوى متقسِّـــم[2]

وكان من الضَّحك ما يبعث على العجب والاستنكار لمّا ترى المحبوبة أنّ الشّيب أخذ يغزو رأس حبيبها، وهذا ما بدر من (أمّ نوفل) فضحكت بعجب عندما رأت أنّ جانبي رأس عمر ومقدمة شَعره اعتلاهما الشّيب. قال عمر واصفاً هذا الموقف:

(الخفيف)

ضَـــحِكَتْ أمُّ نَوْفَـــلٍ، إذْ رَأَتْنـــي ... وزُهَيْـــراً وَسَـــالِفِ بْـــنَ سِـــنانِ
عَجِبَـــتْ إذْ رأتْ لِـــداتي شـــابُوا، ... وَقَتِيـــراً مـــن المَشـــيبِ عَلانـــي[3] [4]

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 237.
[2] م.ن، ص 345.
[3] م. ن، ص 399.
[4] قتير: أول ما يظهر من الشيب.

3- الابتسامة السعيدة:

ومن قبيل اهتمام الحبيب بمحبوبه يرسم له ابتسامة على وجهه، مبعثها ذلك الشعور العاطفيّ الذي يحسّه اتّجاهه، ويدّل على مدى الحبّ الكامن في أحاسيسه الشاعريّة للطرف الآخر. قال ابن الملوح:

(الطويل)

فودّعتهم عند التفرّق ضاحكا إليها ولم أعلم بأنّ لا تلاقيا
ولو كنت أدري أنّهُ آخر اللقا بَكَيْتُ فأَبْكَيْتُ الحَبيبَ الموافيا[1]

فإذا شعرت المرأة بغلظة أو تغيّر من قبل من تهواه، فإنّها تقابله في بداية الأمر بعتابٍ شديدٍ، أو بالنفور والإعراض عنه، ثمّ ما تلبث أنْ تهدأ وتنفرج أساريرها، وتكشف لحبيبها عن ابتسامة مشرقة إذا قابلها باللّين واللّطف والتّغزل فيها، قال عمر:

(الرمل)

أَرْسَلَتْ أسماءَ في مَعْتَبَةٍ عتَبَتْها وهي أَهْوى مِنْ عَتَبْ
فأَجابَتْ رِقْبَتي[2] فابْتَسَمَتْ عن شَتيتِ اللّونِ صافٍ كالثَّغَبْ*[3]

وقال أيضاً:

(الطويل)

فَلَمَّا التَقَيْنَا سَلَّمَتْ وَتَبَسَّمَتْ وقالت كقولِ المُعْرِضِ المُتَجَنِّبِ
أَمِنْ أَجْلِ واشٍ كاشِحٍ بِنَميمةٍ مَشى بَيننا صَدَّقْتَهُ لم تُكَذِّبِ[4]

وقال أيضاً:

(الطويل)

لَعَمري لو أَبْصَرْتِني يَومَ بِنْتُمُ وعيني بجاري دَمْعِها تَتَرَقرَقُ
وكَيْفَ غَداةَ البَيْنِ وَجْدي، وكَيْفَ إذْ نَأَتْ دَارُكُمْ عَنْ شِدَّةِ الوَجْدِ آرِقُ
لأَيْقَنْتِ أنَّ القَلْبَ عانٍ بِذِكْرِكُمْ وأنِّي رَهينٌ في حِبالِكِ مُوثَقُ
فَصَدَّتْ صُدودَ الرِّئمِ، ثم تَبَسَّمَتْ وقالت لِتِرْبَيْها: اسْمَعا ليسَ يَرْفَقُ[5]

---

[1] ديوان مجنون ليلى، ص 330.
[2] رقبَتي: انتظاري. * كالثّغَب: بقية الماء العذب الصافي في الأرض.
[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 38.
[4] م. ن، ص 61.
[5] م. ن، ص 258 – 259.

قال (العرجي) معبّراً عن نفس ما تعرّض له عمر بن أبي ربيعة مع عشيقته:

(الخفيف)

قــد تجشّــمت مــا تــرينَ مــن الهــو ... لِ ومـــا جئـــتُ ههنـــا لخصـــامِ

فـــارعوتْ بعـــد نفـــرةٍ نفرتْهـــا ... بســـكُونٍ وهمْـــزةٍ وابتســـامِ[1]

ويشرق ويتهلّل وجه الحبيبة بالفرح والسعادة عندما تبصر عيناها الحبيب المشتاق، فترتسم البسمة على وجهها مفصحة عن مسرّة، وفرحة عاطفيّة بادية للمتفرّس في لغة العيون.

قال عمر:

(الطويل)

فلمّـــا التقينـــا رحّبـــت وتبسّـــمَتْ ... تَبَسُّـمَ مَسْـرورٍ وَمَـن يَـرْضَ يُسْـرَرِ[2]

قال أيضاً:

(الكامل)

حَيَّيْتُهـــا فَتَبَسَّـــمَتْ، فكأَنَّهـــا ... عنـــد التَبَسُّـــمِ مُزْنَـــةٌ تَتَبَسَّـــمُ

وَتَضَـــوَّعَتْ مِسْـــكاً وَسُـــرَ فُؤادُهـــا ... فَسُـــرورها بـــادٍ لِمَـــنْ يَتَوَسَّـــمُ[3]

وقال أيضاً:

(الطويل)

فَلَمَّـــا رَأَتْ عَيْنـــي عَلَيْهـــا، تَهَلَّلَـــتْ ... مَخَافَـــةَ أنْ تَنْهَـــلَّ كُرْهـــاً – تَبَسُّـــما

وقالـــت لأُخْتَيهـــا: اذْهَبـــا، فـــي حَفيظَـــةٍ، ... فَـــزورا أبـــا الخطَّـــابِ سِـــرّاً، وسَـــلِّما[4]

---

(1) ديوان العرجي، ص.326.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 129.
(3) م. ن، ص 344.
(4) م. ن، ص 334.

المبحث الثامن:- لغة الشيب

وشعر الرأس لم يكن هو الآخر في منأى عن حمل رسائل غير لفظيّة موحيـــة للطّـــرَف المستقبل، بل يُعْتَبرُ جزءاً ماديّاً مهماً في رأس الإنسان الذي يضمّ معظم حـــواس الإنســـان، فهـــو الأعلى موقعاً بالنسبة لجميع الحواس. فلونه الطبيعيّ وتبدله إلى لون آخر (البياض) نتيجة تقلبـــات حياة الإنسان الانفعاليّة، يوحي بدلالات مختلفة عند الناس كالتقدم بالعُمر، فقال تعالى علـــى لســـان زكريا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾[1].

لم يستطع شاعر الغزل تجاهل ما ألمَّ برأسه من بياض أمام المرأة التي عشـــقها، فأصـــبح الشـــيب علامة توحي بدلالات متباينة على نحو:

1- ذهاب الشباب

لقد عبّر شاعر الغزل العذري (جميل بثينة) عن هذا التغير الذي طرأ على شـــعر رأســـه، محاولاً إخفاءه بصبغه بلون آخر، الأمر الذي يُلفت نظر محبوبته، فعيرته قائلة له لقد تقدّمت بالسنّ. قال جميل في هذا:

(المتقارب)

تقـــــــولُ بثينـــــــةُ لمـــــــا رأَتْ قُتُـــــوّا مـــــن الشَّـــــعَرِ الأَحْمِـــــرِ

كَبِـــــرْتَ جَميـــــلُ وأَودى الشَّـــــبابُ! فقلـــــت: بُثـــــينَ ألا فاقْصـــــري[2]

فأخذتْ النساء يَعْرِضْنَ عن الشّاعر عمر بن أبي ربيعة لمّا رأين الشيب يعلو رأسه دلالـــة على كبره، وتقدّمه في السنّ، فقد كنّ قبل أن يغزو الشيب رأسه يسعين إليه سعياً جـــادّاً، ويَـــذْرِفن الدّموع لشدّة ولههنّ به، فمن الشعر المنسوب إلى عمر:

(الطويل)

رأيـــنَ الغَـــواني الشَّـــيْبَ لاح بِعارِضـــي فأَعْرَضْـــنَ عنّـــي بالخُـــدُود النَّواضِـــرِ

وكُـــنَّ إذا أبْصَـــرْنَني أو سَـــمِعْنَني سَـــعَيْنَ فَـــرَقَّعْنَ الكُـــوَى بالمَحَـــاجِرِ[3]

يتحسّر (عمر) على شبابه الذي انقضى سريعاً، و لم يتمتع به، فسرعان ما انتشرت علامة التقدم في السن والمتمثلة في انتشار الشيب في رأسه، فلم يرحب بحلوله، متمنياً لو أنّ الشباب مكث عنده مدّة أطول، فقال:

---

[1] سورة مريم، آية 4.

[2] ديوان جميل بثينة، ص106.

[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 201.

(البسيط)

أَمْسَــى شِــبابُكَ عَنّــا الغَــضُّ قَــدْ رَحَــلا ... ولاحَ فــي الــرّأسِ شَــيْبٌ حَــلَّ فاشْــتَعلا

إنّ الشَّــبابَ، الــذي كُنّــا نُــزَنُّ بــه ... ولَّــى، ولــم نَقْــضِ مِــنْ لَذَّاتــه أَمَــلا

ولَّــى الشَّــبابُ حَميــداً غَيْــرَ مُرْتجَــعٍ ... واسْتَبْدلَ الــرَّأْسُ مِنِّــي شَــرَّ مــا بَــدَلا

شَــيْبٌ تَفَــرَّعَ أبْكــاني مَواضِــحُهُ ... أَضْــحى، وَحــالَ سَــوادُ الــرَّأسِ فــانْتَقَلا

لَيْــتَ الشَّــبابَ بنــا حَلَّــتْ رَواحِلُــهُ ... وأَصْــبَحَ الشَّــيْبُ عَنّــا اليــوم مُنْــتَقِلا

أَوْدى الشَّــبابُ وَأَمْســى المَــوْتُ يَخْلُفُــهُ ... لا مَرْحَبــاً بِمَحَــلِّ الشَّــيبِ إذْ نَــزَلا[1]

وعبّر (العرجي) عن الشعور نفسه الذي شعر به (عمر) اتّجاه انقضاء الشباب، وحلول المشيب، لأنّ الشيب يجبر صاحبه على التحلي بالوقار، ويحتّم عليه تجنّب عشق النساء والتعلّق بهنّ، كما أنّ النساء عادة يبغضن المشيب، فلا يحبّذن التعلّق بمن اشتعل رأسه شيباً، فحبيبته رابها ما رأت وما حلّ بشعر عشيقها من بياض. قال العرجي في هذا:

(الكامل)

قَــدْ رابَــهُ – وَلَمثْــلِ ذلــك رابَــهُ– ... وَقَــعَ البَيَــاضُ علــى السَّــوادِ فَشَــابَهُ

لَــوْنٌ حَسِــبْتُ إلــى النِّســاءِ مُــبغّضٌ ... عنــد النُّصُــولِ إذا يَحــينُ خِضَــابُهُ

إنّ الشَّــبابَ عَسَــا وَأَدْبَــرَ خَيْــرُهُ ... فَمَتَــى تَقــول: وَلات حِــين إيابُــهُ

أَفَبَعْــد ذَاك؟ وَبَعْــدَ مــا ذَهــب الّــذي ... يَــزَغُ الفــؤادَ عــن أن يُصــبَّ ذهابُــه

أذرى الــدّموع فلامــه أصــحابه ... إذ صــاح بــالبينِ المُشِــتَّ غُرَابُــه

مِــن آل عمــرةَ، والمُحِــبّ مُشــوّقٌ ... سِــربُ الــدّموعِ إذا نَــأى أحبابُــهُ[2]

وفي موقف آخر ارتاعت محبوبة الشاعر (العرجي) عندما رأته مصبوغ الشعر، بينما هي ترمي الجمرة الوسطى، فلمحت اللون الأبيض من بعض أجزاء شعره الذي لم تصله الصبغة، فدلّها وجود البياض في شعره على تغيّر حاله، ومفارقته سنّ الشباب. قال العرجي:

(الطويل)

رَأَتْني خَضيبَ الرّأْسِ شَــمَّرْتُ مِئْــزَري[3] ... وَقَــدْ عَهِــدَتْني أَسْــوَدَ الــرَّأْسِ مُسْــبِلا

صَريعَ هوىً ما يَبْــرَحُ العِشْــقُ قائــدِي ... لِغَــيٍّ فَلَــمْ أَعْــدِلْ عــن الغَــيِّ مَعْــدِلا

---

(1) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 303.

(2) ديوان العرجي، ص 173.

(3) مئزري: قصر الثوب.

لَدَى الجَمْـرةِ الوُسْـطى فَرِيعَـتْ وهلّلَـتْ ... وَمَنْ رِيعَ فـي حـجٍّ مِـن النّـاس هلّـلا
وقالـتْ لأُخـرى عِنْـدَها: تعرفِينَـه؟ ... ألـيس بـه؟ قالـتْ بَلَـى مـا تَبـدّلا
سِـوى أَنَّـهُ قـد حَالـتِ الشَّـمْسُ لَونَـهُ ... وفـارَق أَشْـيَاعَ الصِّـبا وتَبَـذّلا
ولَاحَ قَتيـرٌ فـي مَفَـارِق رَأْسِـهِ ... إذا غَفَلَـتْ عَنْـهُ الخَواضِـبُ أنْسَـلا[1]
وكـان الشَّـبابَ الغَـضّ كـالغَيْمِ خَيّلَـتْ ... سَـماءٌ بـه إذ هَبَّـتِ الـرّيحُ فـانْجلى[2]

وجّهت معشوقة الشاعر (العرجي) اللّوم له لارتدائه ملابس مصبوغة بلون أصفر لا تليق بسنه، على حين بدت عليه علامات التقدم بالسنّ ورحيل الشباب، كظهور الشيب وراء الأذن من جانبي الرأس، فقال العرجي في هذا:

(المنسرح)

ولَـمْ يُربْنِـي وَقَـدْ أُرَى فَطِنـاً ... أَعْقِـلُ مـا مِثْلَـهُ الفَتَـى عَقَـلا
مَقـالُ هِنْـدٍ لَمَّـا مَـرَرْتُ بهـا ... تُريـدُ صَـرْمي وَتَبْتَغـي العِلَـلا
قَـدْ لاحَ شَـيْبُ القَـذال فاشْـتَعَلا ... مِنْـكَ وَبَـانَ الشَّـبابُ فـاحْتَمَلا
حَتَّـى مَتَـى أَنْـتَ فـي مُعَصْـفَرَة ... علـى جَـوادٍ؟ وتَلْـبَسُ الحُلَـلا[3]

وأخذت امرأةُ العرجي تلومه باستهزاء على عودته إلى عهد التصابي مذكرة إيّاه بعلامة البياض تلك التي تؤكد تقدّمه في العمر، فلم يعد من اللائق في هذا العمر العودة إلى طيش الشباب وحبّ النساء، فقال:

(الخفيف)

تِلْـكَ عِرْسـي[4] تَلُـومُني فـي التَّصـابي ... مَـلَّ سَـمْعي ومـا تَمَـلُّ عِتْـابي
أهْجَـرَتْ فـي المَـلامِ تَـزْعَمُ أَنَّـي ... لاح شَـيْبي وَقَـدْ تَـوَلَّى شَـبابي
أنْ رَأَتْ رَوْعَـةً مِـنْ الشَّـيْبِ صَـارَتْ ... فـي قَـذالي مُبينَـة كالشَّـهابِ
تَحْـتَ لَيْـلٍ بِكَـفٍّ قـابِسِ نـارٍ ... إغْتَشَـاها بِعـارِضٍ مِـنْ سَـحابِ
قُلْـتُ: مَهْـلاً فَقَـدْ عَلِمْـتِ إبـائي ... مِنْـكِ هـذا وَقَـدْ عَلِمْـتِ جَـوابي
لَـيْسَ نـاهِيَّ عَـنْ طِـلابِ الغَـواني ... وَخْـطُ[5] شَـيبٍ بـدا ودِرْسُ خِضَـابِ[6]

---

(1) أنسلا: تساقط.
(2) ديوان العرجي، ص 283-285.
(3) م. ن، ص 287.
(4) عِرسي: امرأته.
(5) وخط، بداية الشيب.
(6) م. ن، ص 179.

وقد واجه الأحوص نفس الموقف الذي واجهه العرجي من نقد بعودته إلى التصابي والعشق على حين بدا قتير رأسه بالاشتعال. قال الأحوص:

(الوافر)

طَرِبْتَ، وكيف تطْرَبُ أم تَصَابى ورأسُكَ قد توشَّع بالقتير[1] [2]

2- الوصول لسن الرّشد والحلم:

أصبح الشيب في نظر المجتمع علامة وقار ورشد للإنسان الذي امتلأ رأسه به. فعمر بن أبي ربيعة لمّا رأى الشيب ظهر في مؤخرة رأسه أدرك أنّه وصل سنّ الرشد، الأمر الذي حتّم عليه تجنّب الهوى ووصال عشيقاته، كما كان يفعل في سنّ الشباب. قال عمر:

(الخفيف)

فَتَعَزَّيْتُ عن هواها لرُشْدي حِينَ لاحَ القَذالُ[3] مِنّي فَشابا

بَعَثَتْ للوِصال نَحْوي وقالتْ إنّ للّه دَرَّهُ كَيْفَ تابا[4]

لاحظت إحدى النساء ما حلّ برأس عمر من شيب دلالة على وصوله سنّ الحلم، فأحسّت منه الجفوة والتبدل في حبّه للغواني، فأخذ يخفي عواطفه، ويكتمها اتجاههنّ، لأنّه حسّ بضرورة لزومه الوقار والتشبث بالحلم، والابتعاد عن الطيش الشبابيّ أمام هذا الشيب الذي حتّم عليه هذا الشعور، قال عمر:

(الطويل)

تقولُ ابنةُ البَكْرَيْنِ يوم لَقِيَتنا لقد شَابَ هذا بَعْدنا وتَنَكّرا

فمثلُ الذّي عايَنْتُ شَيَّبَ لِمّتي[5] ومثلُ الذّي أُخْفي من الحُزْنِ نَكّرا

فكم فِيهمُ مِنْ سَيّدٍ قد رُزِئْتُهُ وذي شَيْبَةٍ كالبَدْرِ أَرْوَعَ أَزْهَرا[6]

---

(1) توشّع القتير: اعتلاه الشيب.
(2) شعر الأحوص الأنصاري، ص 134.
(3) القِذال: مؤخرة الرأس.
(4) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص47.
(5) لمّتي: بالكسر، شعر الرأس بجوار الأذن.
(6) م. ن، ص 194.

وهذا الأحوص يمتنع عن الطيش واللهو بعدما وصل سنّ الحلم، وبدأ الشيب ينتشر في رأسه. فقال:

(الخفيف)

إنْ تَرَيْنِـــي أقصَـــرْتُ عـــن تبَـــعِ الغـــيْ م ولاحـــتْ شيـــبْاً مَفَـــارِقُ راســـي[1]

استذكر الشاعر عمر بن أبي ربيعة أيام العشق وهو في سنّ الشباب، فعاوده الشوق إلى الماضـــي، ماضي أحبة قلبه على حين بدا الشيب يملأ رأسه. قال عمر:

(المتقارب)

صَـــحا القلْـــبُ عـــن ذِكْـــرِ أمّ البَنـــ ـــينَ بعد الـــذي قـــد مضـــى فـــي العُصُـــرْ

وأَصْـــبَحَ طـــاوعَ عُذّالـــه وأقْصَـــرَ بعْـــدَ الإبـــاء الصَّـــبرْ

أحِـــينَ وقـــدْ راعَـــه لائِـــحٌ مـــن الشّـــيب مَـــنْ يعْلُـــه يُزدجَـــرْ[2]

وقال عمر أيضاً:

(مجزوء الرمل)

إنَّمـــا أَلْـــوَتْ بِعَقْلـــي بَعْـــد حِلْـــمٍ واكتهـــالِ

حِـــينَ لاحَ الشَّـــيبُ منّـــي فـــي شَـــواتي وقَـــذالي[3]

وقال عمر أيضاً:

(مجزوء الوافر)

عَلِقْتُـــكِ ناشِـــئاً حتّـــى رَأَيْـــت الـــرَّأْسَ مبيضّـــاً[4]

وقال عمر:

(الخفيف)

ووَلِيـــدَيْنِ كـــان عُلِّقَهـــا القلْـــ ـــبُ إلـــى أن عَـــلا الـــرُّؤوسَ البَيَـــاضُ[5]

---

(1) شعر الأحوص الأنصاري، ص135.
(2) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 192.
(3) م. ن، ص 289 – 290.
(4) م.ن، ص 214.
(5) المكان نفسه.

استنجد عمر بابن عمّه طالباً منه النصح في أمر امرأة تدعى (سلامة)، وقد أخذت تسلب عقله، بعدما امتنع عن النساء، لمّا لاح الشيب في رأسه، الأمر الذي يحتّم عليه التعقّل أمامه. فقال:

(الطويل)

أَشِرْ يابن عَمّي في سَلامَةَ، ما ترى ... لنا؟ وتَبَدِّيها لتسلُبني عَقْلي

على حين لاح الشَّيْبُ واسْتُنْكِرَ الصِّبا ... وراجَعَني حِلمي وأَقْصَرْتُ عن جَهلي

وآلَتْ كَمَا آل المُجَرَّبُ، بعدما ... صحوتُ، ومَلَّ العاذِلاتُ من العَذلِ

وأبْدَيْتُ عِصْيانا لَهُنَّ سَبَبْنَني ... وَأَلقَيْنَ من يَأْسٍ على غاربي[1] حَبْلي[2]

---

[1] غاربي: البعير (ما بين العنق والسنام) أي تصرف كما تشاء.

[2] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص279.

المبحث التاسع:- لغة اللّمس (الإشارة بالأنامل واليد)

تمكّن الإنسان الذي فقد حاسة الإبصار من الاندماج في المحيط الذي يعيش فيه، مستعيناً بجوارحه على أداء حوائجه، وكما استطاع التمييز بين الأشياء الماديّة من خلال ملامستها بيده، وليس هذا فَحَسْب، بل مكنت أشخاصاً وصفوا بالبكم – الصّم بالإضافة إلى فقدانهم حاسة الإبصار من التعرّف على هويتهم الشخصيّة والمهنيّة وصفاتهم الأخلاقيّة أمثال "هيلين كيلر" (1880-1968)، حيث نشرت بحثاً كاملاً يسمّى "الانتشال من الظلام" تحدّثت فيه عن دور اليد – عضو الإدراك والفهم- التي قامت عندها بدور العينين والأذنين عند الأسوياء[1].

يقول البروفسور"هنري بورو": -المسئول عن قسم جراحة اليد في مستشفى تيمون في مرسيليا- "اليد، هي امتداد الدماغ، والجزء الوحيد في الجسم البشري الذي هو دوماً تحت العينين، والرابطة المميّزة مع العالم الخارجي".[2]

كما أنّ الأشخاص يعبّرون عن مواقف مختلفة باستخدام اليدين والأنامل في الفرح، والحزن، والتأشير، والبطش، وكثيرا ما تصاحب وتساند اليد والأنامل الكلام، فهي نعم الشاهد على أقوالنا، فكلّ حركة ناتجة عنها، تؤوّل وفق الموقف الذي ظهرت فيه.

والشواهد القرآنيّة التي اعتمدت على الصور الحسيّة والعلامات غير اللّفظية كثيرة، فكان لها وقع في إقامة الحجّة على العقول، وحملها على التفكّر، وتقديم صورة جليّة عن بعض المخاطبين، بما يتلاءم مع المواقف التي تتطلب استخدام مثل هذه الدلائل غير اللّفظية.

فالنبي زكريا عليه السلام دعا الله تعالى أن يرزقه ذرية طيبة على حين يأس من حصول ذلك، فبشّره الله تعالى بيحيى عليه السلام، رغم وجود مانعين كما تبيّن ذلك من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾،[3] ولكان نفذت مشيئة الله تعالى فلا يعجزه شيء، فامتلأ قلب زكريا بالفرح والسعادة، فدعا ربّه أن يجعل له علامة استبشار واطمئنان يهتدي به قلبه إلى رحمة الله تعالى رغم يقينه بمقدرته تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.[4]

---

[1] محمد كشّاش - اللغة و الحواس، ص84.
[2] ناتالي باكو، لغة الحركات، ص 42.
[3] سورة آل عمران، آية 40.
[4] سورة آل عمران، آية 41.

جاء امتناع زكريّا عليه السلام عن الكلام مع الناس خلال هذه المدة، انشغالا بالتسبيح وذكر الله سبحانه وتعالى، كونه لا يقدر على مخاطبة الناس، فكان تواصله معهم عن طريق الرمز والإشارة والإيماءة.

وعندما عادت مريم ابنة عمران عليها السلام إلى قومها بعيسى تحمله غير مبالية، فامتنعت عن مخاطبتهم والردّ على أسئلتهم حول ولادتها هذا الطفل، متهمين إيّاها بفعل الفاحشة كونها غير مرتبطة بزوج شرعيّ، فأشارت بيدها إلى الطفل ليجيبهم عن أسئلتهم ليكون دليلاً على براءتها. فقال تعالى: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً ۞ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ۞ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ۞ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ۞ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾.[1]

فمريم عليها السلام استعانت بوسيلة أخرى غير وسيلة اللّغة المنطوقة عندما امتنعت عن الكلام مع قومها، فأومأت بيدها نحو الطفل، ففهم قومها من إشارتها باليد نحو الطفل، أنّ الطفل سوف يجيبهم عن أسئلتهم. فإذن كانت الإشارة باليد لغة غير لفظيّة مفهومة لدى قوم مريم عليها السلام.

والسنة النبويّة الشريفة جاءت مكملة للقرآن الكريم، ومؤدية نفس الرّسالة التي دعا إليها الله تعالى النّاس، فكان – صلى الله عليه وسلم– قدوة لهم بلسانه و بدنه، فأوتي مجامع البيان، وفصاحة اللّسان، وعلى الرغم من هذا كان يستعين بحواسه في إيضاح بعض الأمور التي تحتاج إلى تعبيرات غير لفظيّة، مساندة للغة، وذلك زيادة في الإقناع، وقدرة على تصوّرها، فكان الصحابة رضوان الله عليهم يَروونَ كلّ شيء يَبْدُر منه سواء أكان ملفوظاً أو غير ملفوظ في مختلف المواقف، حرصاً منهم على إيصال رسالته عل وجهها الصحيح، ولتبقى حيّة في العقول والقلوب على مرّ الأزمان، ويستطيع الإنسان المؤمن بها، أن يستحضر شخصيّة رسوله محمد العظيم – عليه السلام – من خلال تلك العلامات غير اللّفظية التي رويت عنه عليه السلام.

فروي عنه عليه السلام، قوله: "أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا، وقال بإصبعيّه السبابة والوسطى".[2]

فأراد عليه السلام أن يقرّب للصحابة الكرام درجة قُرب مَنْ يَرعى اليتيم منه في الجنّة، فاستخدم أصبعيه السبابة والوسطى لقربهما الشديد من بعضهم كأنّهما متلاصقان، دلالة على عظمة العمل الذي يقوم به الإنسان الذي يرعى اليتيم، فهو أقرب العباد منه عليه السلام في الجنّة. فبهذه

---

[1] سورة مريم، آية 26 – 30.

[2] صحيح مسلم، 135/3.

العلامة غير اللّفظية استطاع – صلى الله عليه وسلم– أنّ يوضّح لهم تلك المسافة التي تقرّب منه كافل اليتيم.

ولقد كشف شعر العشّاق عن دور هذا العضو في نقل رسائل غير لفظيّة متعدّدة استجابة لتلك الانفعالات الطبيعيّة الصّادرة عن أحد طرفيّ العشق من فرح، وحزن، وغضب، ولحظة ندم وتحسّر، أي تبعاً للموقف الانفعاليّ الذي حتّم عليه الاستعانة بهذا العضو.

فالشاعر قيس بن ذريح عندما فارق زوجته لبنى رأى حاله، كحال لإنسان الذي أضاع شيئاً ثميناً فما كان منه إلا أن يعضّ على يديه من شدّة الغيظ والقهر على ما ضيعه من يديه، لأنّه لم يحرص عليه كلّ الحرص، فقال:

(الوافر)

فَوا كَبِدي وَعاوَدَني رُداعي ... وكان فِراقُ لُبْنى كالخِداعِ

تَكَنَّفَني الوُشاةُ فأزْعَجوني ... فيا للناسِ للواشي المُطاعِ

فأَصْبَحْتُ الغَداةَ أُلُومُ نَفْسي ... على شَيءٍ ولَيْسَ بِمُسْتَطاعِ

كَمَغْبُونٍ[1] يَعَضُّ على يَدَيْهِ ... تَبَيَّنَ غِبْنَهُ بَعْدَ البِياعِ[2]

استطاع عمر بن أبي ربيعة أن يحصل على موعد من عشيقته للقائها، فأبدت موافقتها للقائه مؤكدة ذلك من خلال حركة أصبعها، وعينها. فقال:

(الطويل)

فقلتُ لها إن كُنتِ أهل مودّةٍ ... فميعادُ ما بيني وبينكِ عَزورُ

فقالت فإنّا قد فعلنا وقد بدا ... لنا عند ما قالت بَنانٌ ومِحْجَرُ[3] [4]

ويمكننا تلخيص المواقف التي دفعت أحد طرفيّ الحبّ إلى الاستعانة بهذا العضو لنقل رسائل ذات دلالة إلى الطرف الآخر، والتي تتمثل فيما يلي:

1 -العض على الأنامل لشدّة الخوف من الفضيحة:

تَحرَص المرأة العربيّة على سمعتها وشرفها، فكانت تخشى الفضيحة في ظلّ مجتمعها العربيّ المحافظ، فإذا ما أحسّت بأمر قد يسيء لسمعتها، له علاقة بالجنس الآخر، لاشكّ أنّ أول فعل سوف يصدر عنها رفع يدها، ووضعها على الفم، وقد يصحبها العض عليها بالأسنان إذا ما

---

(1) مغبون: محزون.
(2) ديوان قيس لبنى، ص 61- 62.
(3) محجر: ما يقع عليه النقاب من الوجه.
(4) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص184.

تأزّم الأمر. وهذا ما كانت تقوم به المحبوبة في حال تفاجئها بمقدوم عشيقها في وقت ومكان غير مناسبين، فتكون ردّة فعلها العض على أناملها خوفاً من الفضيحة، وانكشاف سرّها. قال جميل:

(الطويل)

تَنَضَّيْتُ من وجدٍ إليهن بعدما ... كَربْنَ وأحشائي من الهَوْلِ تَخْفِقُ[1]

فَمِنْهُنَّ مَنْ عَضَّ الأَنامِلَ خِشْيَةً ... ومنهنَّ لَمَّا أَنْ رَأَتْني تَصْفِقُ[2]

وقال ابن الملوح في هذا:

(الطويل)

وفي الظَعْنِ بيضاءُ العَوارضِ طَفْلَةٌ ... مُنَعَّمَةٌ يَسْبي الحليمَ ابتسامُها

إذا سُمْتُها التقبيلَ صَدَّت وأَعْرَضَتْ ... صُدودَ شَمُوسِ الخيلِ صَلَّ لِجامُها

وَعَضَّتْ على إبهامها ثمَّ أومَأَت ... أَخافُ عُيوناً أنْ تَهُبَّ نيّامُها[3]

والشاعر عمر بن أبي ربيعة وضعنا في صورة حقيقية، لمّا وصف الطريقة التي دخل بها على حبيبته، والناس نيام، وذلك بتسلل وخفّة دونما أن يشعر به أحد تماماً كزحف الحيّة التي لا يحسّ بها أحد، وردّه فعل حبيبته حينما فاجأها بظهوره عليها في مضجعها، فبهتتْ، وكاد عقلها يذهب لدرجة أنّها كادت تجهر بردّها على تحيته، فما لبثت أن عضّتْ على أصابعها خوفاً من الفضيحة، فهي صورة حيّة كأنها شاخصة أمامنا. فقال:

(الطويل)

فلمّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وأُطْفِئَتْ ... مَصابيحُ شُبّتْ بالعشاءِ وأَنْوُرُ

وغاب قُمير كنتُ أهوى غُيُوبَه ... وروّحَ رُعيان ونَوّم سُمّرُ

وخُفِّضَ عنّي الصَّوتُ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الـ ... ـحُبابِ وَشَخْصي خَشْيَةَ الحَيَّ أَزْوَرُ

فَحَيّيتُ إذْ فاجأْتُها فَتَوَلَّهَتْ ... وكادَتْ بِمَخْفوضِ التَّحيَّةِ تَجْهَرُ

وقالت وَعَضَّتْ بالبَنانِ فَضَحتني ... وأنتَ امرؤٌ مَيْسورُ أَمْرِكَ أَعْسَرُ[4]

وفي موقف مشابه، تَهُبُّ المحبوبة من نومها بسرعة مستجيبة لذلك الصوت الخفي، إنّه صوت الحبيب الذي غافلها باقتحامه مضجعها، فعضّت إبهامها خوفاً عليه من أنْ يراه أحد عندها، فيتعرّض للأذى. فقال عمر:

---

[1] تنضيت: هزلت وتكون بمعنى أسرعت. كربن: دنون.
[2] ديوان جميل، ص149.
[3] ديوان مجنون ليلى، ص249.
[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص121.

(الطويل)

فلمّـــا مَضَـــتْ مـــن أَوَّل اللَّيـــلِ هَجْعَـــةٌ ... وأَيْقَنْـــتُ مِـــنْ جَـــسِّ العُيـــونِ غُفُـــولا
دَخَلْـــتُ علـــى خَـــوفٍ فأرَّقْـــتُ كاعبـــاً ... هَضـــيمَ الحَشـــا، ريَّـــا العِظـــامِ، كَســـولا
فَهَبَّتْ تُطيعُ الصَّوتَ نَشْـوى مـن الكَـرَى ... كَمُغْتَبِـــق الـــرّاحِ المُـــدامِ شَـــمولا
فَعَضَّـــتْ علـــى الإبهـــامِ مِنْهـــا، مخافَـــةَ ... علـــيّ، وقالـــت: قـــد عَجِلْـــتَ دُخـــولا
فَهَلَّـــا، إذا اسْـــتَيْقَنْتَ أنَّـــكَ دَاخِـــلٌ ... دَسَسْـــتَ إلينـــا، فـــي الخَـــلاءِ رَســـولا
فَنَقْصُـــرَ عَنَّـــا عَـــيْنَ مَـــنْ هـــو كاشِـــحٌ ... وتـــأتي، ولا نَخْشـــى عَلَيْـــكَ دَليـــلا[1]

وقال عمر:

(الطويل)

فلمّـــا تَقَضَّـــي اللَّيْـــلُ، قالـــت فَتاتُهـــا ... أرى قَبْـــلَ أَنْ يَسْـــتَيْقِظَ الحَـــيُّ أَرْفَـــقُ
وَعَضَّـــتْ علـــى إبهامِهـــا: وَتَنَكَّبَـــتْ ... قَريبـــاً، وقالـــت: إنَّ شَـــرَّكَ مُلْحَـــقُ[2]

2- العض على الأنامل لشدّة الغيظ والقهر:

يقوم بعض الأشخاص بأعمال مخالفة لما يريده الجانب الآخر، فلا تتوافق مع ما يصبو إليه، وقد تزيد هذه التصرّفات من غيظه وقهره إلى درجة الاستفزاز، فلا يمتلك سوى العضّ على الأنامل من شدّة الغيظ والقهر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾[3]. ومثال ذلك ما عبّر عنه جميل اتّجاه ردّة فعل مجموعة من النساء اللاتي وجدن في تمنّعه عنهنّ، وعدم استجابته لرغائبهنّ من باب الإخلاص لحبيبته (بثينة)، استفزازاً لهنّ، الأمر الذي أغاظهنّ، فما كان منهنّ إلا أن عضضن على أناملهنّ من جرّاء صنيع سلوكه هذا، فقال:

(الكامل)

حـــاوَلْنَني لأبُـــتَّ حَبْـــلَ وِصـــالِكم ... منّـــي، ولســـتُ وإنْ جَهَـــدْنَ بِفاعِـــلِ
فَـــرَدَدْتُهن وقـــد سَـــعينَ بِهجـــرِكُم ... لِمـــا سَـــعَيْنَ لـــه بـــأَفْوَقَ ناصِـــلِ
يَعْضَضْـــنَ مـــن غَـــيظٍ علـــيّ أنـــاملا ... وَوَدِدْتُ لـــو يَعْضَضْـــنَ صُـــمَّ جَنـــادلِ[4]

---

(1) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 297.
(2) م. ن، ص 258- 259.
(3) سورة آل عمران، آية 119.
(4) ديوان جميل، ص 180- 181.

لقد أدرك (جميل) شدةّ وقْع حبّه لبثينة على النسوة اللاّتي سعين سعياً جاداً بإفساد العلاقة بينهما بكل ما ملكت أيديهن، ولكنّه ازداد تمسكاً بحبه لها، فعلم شدّة غيظهن وانقهارهنّ منه، فتمنّى (جميل) لو عضضن على الحجارة الصّلبة بدلاً من العضّ على أناملهن، (فجميل) رسم صورة بلاغية تبيّن أثر وقع حبّه (لبثينة) على هؤلاء النسوة، تكاد تُدمى أسنانهنّ من شدّة غيظهن في حال عضّهن على ما هو أصلب من أناملهن.

وصاحب العشق يزيدُ الشّوقُ من حرقته وعدم اصطباره على فراق الحبيب، فما يكون منه إلا الشعور بالقهر، والعضّ على أنامله، وهذا حال الشاعر (يزيد بن الطثريّة) فلم يكن عضّه على أنامله أو إبهامه بل كان عضّه على يديه بدلالة على الحالة التي وصل إليها جرّاء الحواجز التي منعته من الوصول إلى الحبيبة لتلبية ما يصبو إليه من عشق ومتعة، فقال:

(الطويل)

ما وَجْدُ علويّ الهوى جُنّ واجتوى ... بوادي الشّرى والغور ماءً ومرتعا

تَشوقُ لمّا عضّه القيد واجتوى ... مراتِعُهُ من بين قَفٍ وأجزعا

ورام بعينيه جبالا مَنْيفَة ... وما لا يرى فيه أخو القيد مطمعا

إذا رام منها مطمعاً ردّ شأْوَهُ ... أمينُ القوى عضّ اليدين فأوجعا[1]

3. التعبير والإفصاح بالتأشير:

استعانت المحبوبة بأناملها للتواصل عبرها مع حبيب القلب بدلا من الكلام، لتنبيهه وتحذيره من بعض الأمور على حين خوف من المحيطين بهما من سماع صوتها، وبالتالي انكشاف أمرهما، وافتضاحهما، قال عمر:

(الطويل)

فلمّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إلاّ أَقَلَّهُ ... وكادَتْ تَوالي نَجمِهِ تَتضغوَّرُ[2]

أَشَارَتْ بأَنَّ الحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمُ ... هُبُوبٌ ولكنْ مَوعِدٌ مِنْكَ عَزْوَرُ[3][4]

وكانت تستعين العاشقة أحياناً بيدها مؤشرة بها على تساؤل يثيرها اتّجاه ذلك الحبّ الذي تملّك قلبها، مبدية هذا الاستفهام أمام رفيقاتها أو لحبيبها، قال عمر:

---

[1] شعر يزيد بن الطِثرية، ص86.

[2] تتضغوّر: تغيب.

[3] عزور: هي ثنية المدينتين مكة والمدينة.

[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 122.

(الخفيف)

وَأَشَـــارَتْ إلـــى نِســـاءٍ لَـــدَيْها لا تَـــرَى دونَهُـــنَّ للسِّـــرِّ سِـــتْرا
مـــا لِقَلْبـــي كأَنَّـــهُ لَـــيْسَ مِنِّـــي وَعِظـــامي أَخـــالُ فـــيهنّ فَتْـــرا[1]

وقال عمر:

(الخفيف)

فأشَـــارَتْ بـــأنَّ قَلْبـــي مَـــرِيضٌ مـــن هـــوَاكُمْ يُجِـــنُّ وجْـــداً رصِـــينا[2]

استعانت محبوبة (العرجي) بحركتين جسميتين، حيث أشارت بيدها لتخبر رفقاتها إلى وجوده قريباً منها، وفي نفس الموقف أومضت له بحركة عينها. فقال:

(الطويل)

وأَشَـــارَتْ لِتِرْبَيهـــا إِلـــيَّ وأومَضَـــتْ فأحْبِـــبْ بهـــا مـــن مُـــومِضٍ ومُشِـــير[3]

وكان الشاعر العاشق يتنبه لكلّ حركة تَصدر عن محبوبته، فأوقفنا في شعره على طريقة تحيتها له وقت حضوره، ولحظة رحيله، فكان هو الآخر يردّ على تحيتها بالمثل من خلال تلويح كلّ منهما بأصابع يده من غير اللّجوء إلى إلقاء التحية عبر اللسان خوفاً من المحيطين بهما، كما كانت المحبوبة تُلْفِتُ نَظر حبيبها برغبتها بتجدّد اللّقاء معه مرة ثانية، وذلك من خلال التأشير له بحركة من أناملها. قال عمر:

(الطويل)

أَشَـــارَتْ إلينـــا بالبَنـــانِ، تَحيَّـــةً فَـــرَدَّ عليهـــا مثـــل ذاك بَنـــانُ
فقالت، وَأَهْـلُ الخيْـفِ قـد حـان مـنهم خُفُـوفٌ، ومـا يُبـدي المَقَـالِ لِسـانُ[4]

وقال أيضاً:

(الكامل)

لَمَعَـــتْ بـــأَطْرافِ البَنـــانِ لَنَـــا إنّـــا نُحـــاذِرُ أعَـــيُنَ الرَّكْـــبِ
إرجِـــعْ وردِّدْ طَـــرفَ تابِعِنـــا حتّـــى يُجَـــدّدَ دارسُ الحُـــبِّ[5]

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص198.
[2] م.ن، ص409.
[3] ديوان العرجي، ص 238.
[4] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص377.
[5] م. ن، ص 32.

وقال ابن الملوح في هذا المعنى:

(الطويل)

لقــد عِشْــتُ مــن ليلــى زمانــاً أُحِبُّهــا ... أرى الموتَ منها فــي مَجيئــي وَمَــذْهبي
ولمّــــا رأتْ أنَّ التَّفَــــرُّقَ فَلْتَــــةٌ[1] ... وأنّــا متــى مــا نَفْتَــرقْ نَتَشَعَّــبِ
أشــــارَتْ بِمَوْشُــــومٍ كــــأنَّ بنانَــــهُ ... مــن اللّــين هُــدّابُ الــدِّمِقْسِ المُهَــذَّبِ[2]

وكما كان يودّع طرفا الحبّ بعضهما كلما أخذت بينهما المسافة بالتباعد بواسطة بنان كلّ منهمــا، فقال العرجي في هذا:

(البسيط)

ودّعــــتهنّ ولا شــــيءٌ يُراجعُنــــي ... إلاّ البَنــــانُ وإلاّ الأعْــــيُنُ السُّــــجمُ
إذا أردن كلامــــي عنــــده اعترضــــتْ ... مــن دونــه عَبَــراتٌ فــانْثَنى الكَلِــمُ[3]

وجماعة المترصدين للمحبين استعملوا أناملهم للتأشير بها على المحبّ الذي شاع أمر حبّه العاطفيّ، لينبه أحدهم الآخر بوجوده في ديار الحبيبة. قال الأحوص:

(الطويل)

أزورُ البيــــوتَ اللاصــــقات ببيتهــــا ... وقلبــــي إلــــى البَيــــتِ الــــذي لا أزُورُ
ومــــا كنــــتُ زَوّاراً ولكــــنّ ذا الهــــوى ... إذا لــــم يُــــزَرْ لابُــــدّ أنْ سيــــزورُ
أزور علــــى أَنْ لســــتُ أَنْفَــــكُّ كُلّمــــا ... أَتَيْــــتُ عــــدوّاً بالبَنــــانِ يُشيــــرُ[4]

قد يُفاجئ مَقْدم العاشق المَحبوبةَ ساعة الليل على غير موعد، لذلك اضطرّت أن تتّخذ مــن خادمتها حرساً لها على الباب، لتنبيهها من خلال التصفيق باليدين، إذا ما أحسّت بإقبال أحــد مــن أهلها عليها، من غير أن تنبس ببنت شفاة لها. قال العرجي معبراً عن هذا الموقف:

(الخفيف)

أعلــــى غَيْــــرِ مَوْعــــدٍ جِئْــــتَ تَسْــــري ... تَتَخَطَّــــــى إلــــى رؤوس النّيــــــامِ
عَــــــذَلَتني، فقلــــــتُ: لا تَعــــــذُليني ... ودَعــــي اللّــوم واقصــــدي فــي المــلامِ
قــد تَجَشَّــمْتُ مــا تَــرَيْنَ مــن الهــو ... لِ ومــــا جِئْــــتُ ههُنــــا لِخصــــامِ

---

[1] فلتة: اسم من افتلت، ومعناها مفاجأة..
[2] ديوان مجنون ليلى، ص80.
[3] ديوان العرجي، ص 315. نسبت هذه الأبيات للأحوص، ينظر: شرح ديوان الأحوص الأنصاري، شرح: مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي، 1424هـ / 2004،ص 248.
[4] شعر الأحوص الأنصاري، ص 125.

فـــــارْعَوتْ بَعـــــد نَفْـــــرَةٍ نَفَرَتْهـــــا بِسُـــــــكُونٍ وهَمْـــــــزَةٍ وابتســـــــامِ
وعلـــى البـــابِ ذي الشّـــفيقَةِ سُـــعْدى لا أرى مِثْلَهـــــا مـــــن الخُـــــدّامِ
كلّمـــــا صَـــــفَّقَتْ وثَـــــبْنَ إليهـــــا كقيـــــام الشُّـــــرْطِيّ عِنْـــــدَ الإِمـــــامِ[1]

[1] ديوان العرجي، ص 326.

المبحث العاشر:- لغة الحركة والانتقال (المشي)

إنّ المشي من العلامات الدّالة على هوية الإنسان، ففي أغلب الأحيان يمكننا التعرف على شخص ما من خلال حركاته أثناء المشي، فلِمشي الإنسان إيماءات كثيرة تعتمد على المواقف والتعبيرات الانفعاليّة التي يتعرض لها، فمنها التكبّر في المشي، والتأني، والمشية الرشيقة، والمشية الخلاّعه والأنثوية المغرية، ومشية الحرائر بحياء وخجل وحشمة وتستر ... الخ. قال تعالى: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.[1]

فاعتبرت (ناتالي باكو) أنّ: "لكلّ واحد منّا مشيته الخاصة به، وإيقاعه، وترجيح ذراعيه، وتوجيه قدميه، وطول خطواته. إنّ مشيتنا تؤلف جزءاً من هويّتنا. ومع ذلك، فقد تختلف من يوم إلى آخر، تبعاً للحالة النفسيّة التي نجد أنفسنا فيها. حزينون، أو مقطّبون، أو مشغولو البال، فنسير ببطء أكثر، العين مشدود إلى الرصيف، والحذاء يجرر على الأرض. سعداء في الحياة، أو مغرمون، أو تحت تأثير بشرى سعيدة، لا نحسّ بالأرض تحت قدمينا، فنسير برشاقة وخفّة، مرفوعي الرأس، يقظى الحواس. ولكن مزاجَنا ليس العنصر الوحيد الذي يمكن أن يعدّل مشيتنا، حتى أنّ للأرصاد الجوية تأثيراً فيها!".[2]

فكان العشّاق يلتفتون لكلّ حركة من حركات المعشوقة ولاسيّما مشيتها، لأنّ من المشي ما يعكس الصفات الجسميّة الأنثويّة للمرأة مما تثير الجنس الآخر.

- المشية الأنثوية المغرية:

يتوقف جمال النساء عند العرب بأن يكنّ ضامرات الخصر مكتنزات العجز (المؤخرة)، أي تهتزّ أثناء السّير، فهما صفتان مستحبّتان في المرأة. فقال ابن ذريح:

(الطويل)

إذا ما مَشَتْ شَبْراً من الأَرْضِ أَرْجَفَتْ ... من البُهْرِ حتّى ما تَزيدُ على شِبْرِ

لها كَفَلٌ يَرْتَجُّ منها إذا مَشَتْ ... وَمَتْنٌ كَغُصْنِ الْبَانِ مُضْطَمِرُ الخَصْرِ[3]

---

[1] سورة القصص: آية 25.

[2] نتالي باكو، لغة الحركات، ص 54.

[3] ديوان قيس لبنى، ص 47.

وقال ابن الملوح:

(الطويل)

مُنَّعَمَـــةِ الأَطْـــرافِ هِيـــــفٍ بطُونُهـــا كَواعِبَ تَمشي مِشْيةَ الخَيْلِ فـــي الوَحْـلِ[1]

وقال عمر:

(الكامل)

حتـــى إذا أُمِـــنَ الرَّقيـــبُ ونُوِّمَـــتْ عنّـــا عُيُـــونُ سَـــواهِرِ الأَعـــداءِ

خَرَجَـــتْ تَـــأَطَّرُ[2] فـــي ثـــلاثٍ كالـــدُّمى تَمْشـــي كَمَشْـــي الظَّبْيَـــةِ الأَدْمـــاءِ*[3]

- مشية التأوّد والتّهادي:

لقد نقل الشاعرُ المحبُّ دلالاتٍ مختلفة لمشية المرأة، فتكـون مشـية متنعمـة ومتراخيـة ومتكاسلة فيها من الفتور الجسمي، والإعياء الناتج عن التعلّق بالحبّ العاطفي والجنسي، ما يلفـت المتبصر والمتفرس نحو صاحبة المشية. فمن الشعر المنسوب إلى عمر:

(المنسرح)

تَمْشـــي الهوَيْنـــا إذا مَشَـــتْ فُضُـــلا مَشْـــيَ النَّزيـــفِ المَخْمـــورِ فـــي الصَّـــعَدِ

تَظَـــلُّ مـــن زَوْرِ بَيْـــتِ جارَتِهـــا واضِـــعَةً كَـــفَّها علـــى الكَبِـــدِ[4]

ولفت نظر الشاعر (عمر) مشية إحدى معشوقاته التي كانت ترتدي ثوباً واحداً موشّحاً، عندما كانت تسير برفق وتأوّد تماماً كمشية المخمور المتهاوي في السُّكر. فقال:

(البسيط)

حتـــى إذا اللَّيـــلُ ولّـــى قالتـــا زَمَـــراً قُومـــا بِعَيْشِكُمـــا قَـــدْ نَـــوَّرَ السَّـــحَرُ

فَقُمْـــتُ أَمْشِـــي وقامَـــتْ وهـــي فـــاتِرَةٌ كَشَـــارِبِ الخَمْـــرِ بَطَّـــي مَشْـــيَهُ السَّكَـــرُ

يَسْحَبْـــنَ خَلْفـــي ذُيـــولَ الخَـــزِّ آونَـــةً ونَاعِمَ العَصْـــبِ كـــي لا يُعْـــرفَ الأَثَـــرُ[5]

---

[1] ديوان مجنون ليلى، ص 230.

[2] تأطّر: تتأطّر: أي تتثنّى في مشيها. * الأدْماء: اللّون المشرّب سواداً أو بياضاً.

[3] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 21.

[4] م.ن، ص 116.

[5] م.ن، ص 136.

ينال عادةً السّهر الطويل من قَوام الإنسان، فَيُصاب بالفُتور والضّعف فلا يكاد يتمالك على المشي، وهذا ما حصل مع إحدى عشيقات عمر بن أبي ربيعة، حينما سهرت معه حتى بزوغ نور السَّحر، فقامت لتودّعه وهي فاترة، متثاقلة في مشيها كشارب الخمر. فقال عمر:

(الطويل)

وَظَلَّتْ تَهادَى ثُمَّ تَمْشي تَأَوُّداً ... وَتَشْكُو مِراراً مِن قوائمِها فَتَرا

إذا ما دَعَتْ بِالمِرْطِ كَيْما تَلُفَّهُ ... على الخَصْرِ أَبْدَتْ مِنْ رَوادِفِها فَخْرا[1]

نلاحظ استخدام (التأوّد) و(الهوينا) بكثرة في أشعار المتغزّلين بالمرأة دلالة على إعجابهم بحركاتها الجسميّة التي تصدرها أثناء مشيها من انعطاف وتمايل وتثنٍ، فقال عمر:

(الطويل)

وَأَقْبَلْنَ يَمْشينَ الهُوَيْنا عَشِيَّةً ... يُقَتِّلْنَ مَنْ يَرْمينَ بالحَدَقِ النُّجْلِ[2]

وقال أيضاً:

(السريع)

خَوْدٌ إذا قامَتْ إلى خِدْرِها ... قامَتْ قَطُوفُ المَشْيِ مِكْسالُهُ[3]

وقال العرجي في هذا المعنى:

(الطويل)

تَبَدَّتْ لنا يَوْمَ الرّحيل كأَنَّها ... أَحَمُّ المآقِي في نِعاجِ الرَّبائِبِ

تَكَفَّا وَيَمْشينَ الهُوَيْنا تَأَوُّدا ... كما انْآد غُصْنٌ بَلَّهُ ضَرْبُ هاضِبِ[4]

وقال أيضاً:

(الطويل)

فلمَّا بَلَغْنا جانِبَ المَوْعِدِ الذي ... وُعِدْتُ بِهِ أَقْلَلْتُ أن أتَلَدَّدَا

مَكَثْتُ قليلاً ثُمَّ أوشَكْتُ أَنْ أرَى ... - وما أَطْوَلَ المُكْثِ- الغُلامِ المُوَلَّدا

فأَرْجا فأَنْبا بالذي كُنْتُ أَهْلَهُ ... سُرِرْتُ بِهِ مِنْهُ ولاقَيْتُ أَسْعُدا

ومِنْ خَلْفِهِ صَفْراءُ غَرْثٌ وِشاحُها ... تَأَوَّدُ في المَمْشى القَريبِ تَأَوُّدا

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 146.
[2] م.ن، ص 279.
[3] م.ن، ص 318.
[4] ديوان العرجي، ص 185.

تَمــورُ كمــا مــارَتْ مهــاةٌ بــذي الغَضــا تُزَجّـــي بِبَطْحـــاءِ القَسِـــيَّةِ فَرْقَـــدا
فلمّـــا التَقَيْنَـــا رَحَّبَـــتْ وتَهَلَّلَـــتْ كلانـــا إلـــى ذي وُدِّهِ كـــان أَقْـــوَدا[1]

وقال ابن الدمينة:

(الوافر)

وَتَمْشـــي حـــينَ تَـــأتي جارتَيْهـــا تـــأوَّدُ مِشْـــيَةَ الوَحِـــلِ الـــوَهِيصِ[2]

-مشية التَّبختُر والخُيلاء:

ومن حركات المشي التي خُصّتْ بها المرأة المنعمة المتباهية بأنوثتها، التبختر والتهادي والتخايل أثناء المشي، كأنْ لا ترى سوى سواها على هذه البسيطة، فعبّر عن ذلك عمر بقوله:

(الخفيف)

فارْجَحَنَّـــتْ فـــي حُسْـــنِ خَلْـــقٍ عَمـــيمٍ تَتَهـــادَى فـــي مَشْـــيها كالحُبـــابِ[3]

وقال أيضاً:

(الخفيف)

قُلْـــتُ إذْ أَقْبَلَـــتْ وَزُهْـــرٌ تَهـــادَى كَنِعـــاجِ المَـــلا تَعَسَّـــفْنَ[4] رَمْـــلا[5]

-مشية المعشوق الخائف المترقِّب:

وتبيّن للشاعر من صور مشي المرأة ما يرشد إلى ارتباكها وخوفها إذا ما تبادر منها سلوكاً لا يتماشى مع ما تربّت عليه المرأة من الحشمة، والتّرفع عن الزّلاّت العاطفية، ولاسيّما في مجتمع محافظ كالمجتمع العربيّ، قال عمر:

(المتقارب)

فقامَـــتْ فَقُلْـــتُ بَـــدَتْ صـــورَةٌ مِـــنَ الشَّـــمْسِ شَـــيَّعها الأَسْـــعُدُ
فَجـــاءَتْ تَهـــادى علـــى رِقْبَـــةٍ مِـــنَ الخَـــوْفِ أَحْشـــاؤُها تُرْعَـــدُ
وكَفَّـــتْ سَـــوابِقَ مِـــنْ عَبْـــرَةٍ علـــى الخَـــدِّ جَـــالَ بهـــا الإِثْمِـــدُ
تَقـــولُ وتَظْهِـــر وجْـــداً بنـــا ووَجـــدي وإن أَظْهَـــرَتْ أَوْجَـــدُ[6]

---

(1) ديوان العرجي، ص 203.
(2) ديوان ابن الدمينة، ص 65.
(3) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 64.
(4) تعسّفن: يسرن على غير هداية.
(5) م.س، ص 320.
(6) م.ن، ص 94.

وقال العرجي:

(الطويل)

فجـاءَتْ بهـا تَمْشـي عِشـاءً وَسـامَحَتْ كمـا انْقـادَ بالحَبْـلِ الجَـوادُ المُجَلَّـلُ
تُحـذِّرُها- فـي مَشْـيها- الأَعْـيُنَ الّتـي بها إِنْ رَأَتْهـا عِنْـدَ ذي الضَّـغْنِ تَجْمُـلُ
فَتُسْـرِعُ أَحيانـاً، إذا هـي لـم تَخَـفْ وَتَخْشـى عُيونـاً حَوْلَهـا، فَتَمَيّـلُ[1]

لاحظ (الأحوص) آثار الحيرة والدهشة البادية على محبوبته من خلال مشيها، فكانت بطيئة ومتقاربة الخطى إذا سارت، وأحياناً تسرح ذهنياً فيكون في مشيها خرقٌ، "أي تحيُّر"، فقال الأحوص:

(مجزوء الوافر)

قطـوف المشـى إذ تمشـي تـرى فـي مشـيها خرقـا[2]
وتثقلهـا عجيزتهـا إذا ولّـت لتنطلقـا[3]

-مشية المصاب بنار العشق:

ومشية المحبّ الذي أعمى الهوى بصيرته، ونال من جسده، فسرعان ما تكشف هذه المشية عمّا اعتراه من مصاب الهوى وعدم قدرته السيطرة على عواطفه، تماماً كالمريض الذي لا يتمالك على المشي. قال ابن الملوح:

(الطويل)

إذا أَقبَلَـتْ تَمْشـي تُقـارِبُ خَطْوَهـا إلـى الأَقْـرَبِ الأَدْنـى تَقَسَّـمَها البُهْـرُ[4]
مَريضَـةُ أَثْنـاءِ التَّعَطُّـفِ إنّهـا تَخَافُ على الأَرْدافِ يَثْلُمُهـا الخَصْـرُ[5] [6]

وقال العرجي:

(الطويل)

كَعـابٌ إذا قامَـتْ قَلـيلاً تـأَوَّدَتْ كَمَشْيِ الحَسيرُ[7] مُكْرَهاً وهـو مُزْحَـفُ[8]

---

[1] ديوان العرجي، ص304.
[2] قطوف المشى: بطيئة الخطى متقاربة، أصله للدّواب.
[3] شعر الأحوص الأنصاريّ، ص 162.
[4] البُهر: انقطاع النَفس من شدّة الإعياء.
[5] يَثْلُمُها الخصر: يحدث في خللاً.
[6] ديوان مجنون ليلى، ص 128.
[7] مشي الحسير: المتعب المضني. مُزحف: الشدّيد التّعب.
[8] ديوان العرجي، ص 263.

المبحث الحادي عشر:- الدّلالات غير اللّفظية التي تُنقل عبر النُّصْبَة:

اهتم الجاحظ بهذا اللون من ألوان البيان، الذي لا يمكن تجاهله أو إلغاؤه من وسائل البيان (النُّصْبَة)، فهي دليل واضح على صدق تلك الدّلالات التي تبثّها الأشياء الجامدة، ويستقبلها العقل الإنسانيّ، إذا ما أراد محاورتها فتجيبه اعتباراً، فتحرك فيه الشعور نحوها، فيأتي ردّه عليها بأخذ العبر منها، فكأنّه يحصل بينهما تبادل وتواصل روحي وحسيّ، فالصوامت مخبرة عن نفسها بالهيئة والحالة الظاهرة، وتضفي عليها مشاعر الإنسان من الدلالات ما يفوق تلك الألفاظ التي يتلفظ بها لسانه، "ومتى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه، وإن كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكتاً".[1]

فمتى تحقّقت المعاني من الأشياء الجامدة، وحصل الفهم منها، فهي مشاركة للإنسان في نقل المعنى للآخرين. "فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه، وداعية إليه، ومنبهة عليه، فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحيّ الناطق".[2]

فالنُّصْبَة كما وردت في لسان العرب هي السارية. والنُّصُبُ: كلّ ما نُصِبَ، فجُعل علماً، وقيل: النُّصُب جمع نصيبة، والنُّصُبُ جماعة النصيبة، وهي علامة تُنْصَب للقوم. والنَّصْبُ والنُّصُبُ: العلم المنصوب. وكذلك: كلّ ما عبد من دون الله تعالى. لا يكون النَّصْبُ إلا بالقيام. هو نُصْبُ عيني، هذا في الشيء القائم الذي لا يخفى عليّ، وإن كان مُلقى، يعني بالقائم، في هذه الأخيرة الشيء الظاهر. جعلته نُصْبَ عيني، بالضم، ولا تقل نَصْبَ عيني.[3]

وفي عصرنا الحديث اعتبر الباحثون المكان المتمثل في مجال حركة الشخص، والبيئة الطبيعيّة من مصادر الرسائل غير اللّفظية التي لها دلالات معينة[4]، فكل علامة صامتة قد تبعث دلالة ما في نفس الناظر.

يقول بيار غيرو: "كان الناس إلى أمد بعيد، يجهلون ترقيم المنازل، فكانت الشارات تحدد هوية الأبنية التجاريّة. فالشارات (كما الشعارات) هي "ناطقة " بشكل عام أي أيقونية: كأن يشار بشارة الحذاء إلى صانع الأحذية"[5].

فكان للأماكن والأطلال التي جمعت بين المحبين دلالات تذكّر العاشق الذي حرم من محبوبه بتلك اللحظات الجميلة، فهي أشبه بالعلامات الطبيعيّة التي تخبر الإنسان بشيء ما، ونجد

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، 81/1 – 82.
(2) الجاحظ ، الحيوان ، 35/1.
(3) لسان العرب، مادة: نصب.
(4) ينظر، برنت د. روبن، الاتصال والسلوك الإنساني، ص 186.
(5) بيار غيرو، السيمياء، ص 115.

أنّها كانت تؤثر في شعراء العشق إلى درجة التّحاور معها، فالشاعر العاشق كان يرى في الآثـــار والرسوم ماضيه الذي يذكره بتلك الأيام التي وجد فيها سروره وأمانيه مع محبوبته، فعبّر عنها:

(الطويل)

أَلَـــمْ تَســـأل الـــدّار القديمـــةَ هـــل لهـــا بـــأُمِّ جُسَـــيْرٍ بعـــد عهـــدكَ مـــن عهـــدُ[1]

وقال أيضاً:

(الوافر)

أَلـــــمْ تَرْبَـــــع فَتُخْبِـــــرَك الطُّلُـــــولُ وقـــد ســـاءلَت لـــو نُفِـــعَ السَّـــؤولُ[2]

وقال أيضاً:

(الطويل)

أَلـــمْ تَســـأل الرّبْـــعَ القَـــوَاءَ[3] فينْطِـــقُ وهل تُخْبِرَنْك اليـــومَ بيْـــداء سَـــمْلَقُ[4] [5]

فجعل شاعر الغزل الأطلال دليلاً حيّاً تستجوب حول طبيعة تلك العلاقة العاطفية مع الحبيبة التـــي رحلت عنها، وتركب فيها الذكريات الجميلة التي دارت بينها وبين عاشقها. قال عمر:

(المتقارب)

ألـــــم تســـــأل المنـــــزل المقفـــــرا بيانـــــــا فيبخـــــــل أو يخبـــــــرا
ذكَـــرتْ بـــه بعـــض مـــا قـــد مضَـــى وحُـــقّ لِـــذي الشَّـــجو أن يـــذكُرا[6]

وقال أيضاً:

(الطويل)

أَلَـــمْ تَســـأَلْ الأطـــلالَ والمَنْـــزلَ الخَلَـــقْ بِبُرْقَـــةَ أعـــواءٍ، فَيُخْبِـــرَ إن نَطَـــقْ
ذَكَـــرْتُ بـــه هِنْـــداً، وظِلْـــتُ كـــأَنّني أخـــو نَشْـــوَةٍ لاقـــى الحَوانيـــتَ فـــاغْتَبَقْ
وَمَوْقفَهـــا وَهْنـــا عَلينـــا، وَدَمْعُهـــا سَـــرِيعٌ، إذا كفّـــتْ تَحَـــدُّرهُ، اتّســـقْ
وَمَوقِـــفَ أتـــرابٍ لهـــا، إذْ رأَيْتَنـــي، بكَـــيْنَ وأَبْـــدَينَ المعاصِـــمَ والحـــدقْ

---

(1) ديوان جميل، ص 76.
(2) م. ن، ص 163.
(3) القواء: الخالية.
(4) سملق: التي تنبت شيئاً، أو السهلة المستوية.
(5) م. ن، ص 145.
(6) م. ن، ص 191.

رَأيْــنَ لهــا شَــجْواً، فَعُجْــنَ لِشَــجْوِها جَميعــا، وأَقْلَــتْن التَّنــازُع والنَّــزَقْ[1]

وقال أيضاً:

(الكامل)

فِــيم الوُقــوفُ بِمَنْــزلٍ خَلَــقِ أو مــا سُــؤالُ جنــادِلٍ خُــرْسِ
عُجْــتُ المطِــيَّ أُســائِلُه أيــنَ اســتقرّتْ دارةُ الشَّــمسِ
فَعَجِبْــتُ منهــا إذْ تقــولُ لنــا يــا صــاحِ مــا هــذي مــن الإنــسِ[2]

وقال جميل:

(الوافر)

أهاجتْــك المنــازلُ والطلــولُ عفــون وخَــفَّ مــنهن الحُمــولُ
نعــم، وذكــرتَ دنيــا قــد تقضّــتْ وأيُّ نعــيم دنيــا لا يــزولُ
أُســائِلُ دار بثنــة: أَيْــنَ حلَّــتْ؟ كــأنَّ الــدّارَ تفهــم مــا أَقــولُ[3]

وقال العرجي:

(الطويل)

ألا أيّهــا الرّبــع الــذي خــفّ أهلُــه وأمســى خــلاء موحشــاً غيــر آهــلِ
هــل أنــت مُنبِّــي أيــن أهلُــك؟ ذا هــوى وأنــت خبيــر، لــو نطقــتْ لسائــلِ[4]

قال ابن الدمينة:

(البسيط)

عُجنــا علــى دارهــا نبكــي ونســألُها عنهــا ونُخبرُهــا عــن بيننــا خُطُبــاً[5]

---

[1] ديوان جميل، ص 262-263.
[2] م. ن.، ص 205.
[3] م.ن، ص 164.
[4] ديوان العرجي، ص 306.
[5] ديوان ابن الدمينة، ص 121-122.

فتوجيه شاعر الغزل خطابه لهذه الجوامد الخرس يدلّ على أنّه أدرك بحسّه المُرهف ذلك البيان الدّلالي غير اللّفظي الذي أوحتْ به، فهي أثّرت في ذلك المحبّ، وهيّجت أحزانه لمفارقة الحبيبة له، فعاجلته الدموع بالاستجابة تشوّقاً لتلك الذكريات. فقال جميل:

(الكامل)

إنَّ المنازلَ هَيَّجَتْ أَطرابي ... واسْتَعجمتْ آياتُها بِجوابي
فَقْرٌ تَلُوحُ بذي اللُّجَين كأَنّها ... أَنْضاءُ[1] وَشْمٍ أو سطورُ كتابِ
لمَّا وقفتُ بها القُلوصَ تَبادرتْ ... مني الدّموعُ لفُرقة الأَحبابِ[2]

وقال جميل:

(الكامل)

هاجتْ فؤادَكَ للحبيبةِ دارُ ... أَقْوَتْ وَغَيَّر أيها الأَمطارُ[3]

قال ابن الملوح:

(الطويل)

شَجَتْنَي وأَبلتني منازلُ دُرَّسُ ... أُسَائلها عمَّن عهِدْتُ و تخرَسُ[4]

وقال عمر:

(المنسرح)

هَلْ عِنْدَ رَسْمٍ برَامَةٍ خَبَرُ ... أمْ لا فأيُّ الأَشياءِ تَنْتَظِرُ
وقفتُ في رَسْمِها أُسائِلُهُ ... والدَّمْعُ مِثْلُ الجُمانِ مُنْحَدِرُ
لا يَرْجِعُ الرَّسْمُ بالبَيانِ وَهَلَ ... يُفْقَهُ رُجْعاهُ حينَ يَنْدثِرُ
قد ذكّرتْني الدِّيارُ إذْ دَرَسَتْ ... والشّوْقُ مما تَهيجُهُ الذِّكَرُ[5]

وقال أيضاً:

(الطويل)

أَمِنْ رَسْمِ دارٍ دَمْعُكَ المُتَرَقْرِقُ ... سَفاهاً وما استِنْطاقُ ما ليسَ يَنْطِقُ

---

[1] أنضاء: جمه نضو، وأصله البعيد مهزول، وهنا أطلق على ما تبقى من الوشم لقلته وانمحائه.
[2] ديوان جميل، ص 32.
[3] م. ن، ص 84.
[4] ديوان مجنون ليلى، ص173.
[5] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 160-161.

بحيثُ التَقَــى جَمْــعٌ، وأقصــى مُحَسِّــرٍ[1] معالِمُــهُ كــادَتْ علــى العَهْــدِ تخْلَــقُ
ذَكَرْتُ به مــا قَــدْ مضــى، وتَــذَكّرُ الــــ حبيــبِ ورَسْــمُ الــدّارِ ممــا يُشَــوّق[2]

جعل شاعر الغزل من هذه المعالم البالية أيضاً أدلة تشهد لصحبه بتجربته العاطفيــة مــع الحبيبة التي أمسى بدونها هائماً على وجهه متوجعاً، فلا يستطيع نسيانها، الأمر الذي كــان يثيــر اندهاش واستنكار صحبه لدوامه على هذه الحالة. فطلب الشاعر من رفاقه محاورة أطلال الحبيبة، لتسترجع لهم ذكرياته العاطفية التي دارت فيها، لتؤكّد لهم أثر ذلك الحبّ عليــه، فيشــعروا معــه ويواسوه. قال عمر:

(الكامل)

قُــلْ للمنــازِلِ مِــنْ أُثيلَــةَ تَنْطِــق بــالجزْعِ، جِــزْعِ القَــرْنِ، لمّــا تُخْلِــق
حُيِّيــتِ مــن طَلَــلٍ تَقــادَمَ عَهْــدُهُ وَسُــقِيتَ مِــنْ صَــوْبِ الرَّبيــعِ المُغْــدق
لِتَــذَكُّرِ الــزَّمَنِ الــذي قَــدْ فاتَنــا أَيّــام نَبْتَعِــثُ الرّسُــولَ ونَلْتَقــي[3]

وقال عمر:

(البسيط)

يــا صــاحَبّي قِفــا نَسْــتَخْبِرِ الطّلَــلا عن بعضِ مَنْ حلَّــهُ بــالأَمْسِ، مــا فَعَــلا
فقال لــي الرَّبْــعُ[4]، لَمّــا أنْ وَقَفْــتُ بــه إنَّ الخَلِــيطَ أجَــدَّ البَــيْنَ فــاحْتَملا[5]

وقال عمر:

(الخفيف)

سَــائِلا الرَّبْــع بــالبُلِيِّ وَقــولا هِجْــتَ شــوقا لنــا الغَــدَاة طــويلا
أيــن حــيٌّ، إذ أنــت محفــو فٌ بهــم: آهِــلاً أراك جمــيلا
قــال: ســاروا بــأجْمَعِ، فاسْــتَقَلُّوا، وَبِكُرهــي لــو اسْــتَطَعْتُ سَــبيلا[6]

---

[1] محسّر: اسم مكان بين المزدلفة ومِنى.
[2] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 259.
[3] م. ن، ص 253.
[4] الرّبع: المنزل. احتملا: رحل.
[5] م.ن، ص299
[6] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص 314-315.

وقال أيضاً:

(البسيط)

قُــلِ للمَنَــازِلِ بــالظَّهرانِ قَــدْ حانــا ... أن تَنْطِقِــي فَتُبينــي اليــومَ تِبيانــا

رُدّي علينــا بمــا قُلنــا تَحِيَّتَنــا ... وَحَــدِّثينا: متــى بــان الــذي بانــا

قالت: ومن أَنْتَ أُذكُــره؟ قــال: ذو شَــجنٍ ... قَــدْ هــاجَ منــهُ نَحيــبُ الحُــبِّ أَحْزانــا

قالــت: فأَنْــتَ الــذي أرســلتَ جاريــةً ... وهْنــاً إلــى الرَّكْــبِ تُــدعى أمّ سُــفْيانا[1]

قال العرجي:

(السريع)

عوجــا خليلــيّ علــى المحضَــر ... والرَّبــع مــن ســلّامة المُقْفــرِ

عوجــا بــه فاســتنطقاهُ فقــد ... ذكّرنــي مــا كنــت لــم أذكــرِ[2]*

قال ابن الملوح:

(الطويل)

خليلــيّ هــذا الرَّبْــعُ أَعْلَــمُ آيــهُ ... فبــاللهِ عُوجــا ســاعةً ثــمّ سَــلِّما[3]

قال ابن الدمينة:

(الكامل)

يــا صــاحبي قفــا علــى الأطــلال ... تبــدو معــالمهنّ كالأســمال

تســتخبرا لــي حاجــة وتُبيّنــا ... للنّــاس بعــض هــواجس البلْبــال[4]

قال الأحوص:

(الطويل)

ألا قف برســم الــدّار واســتنطق الرّســما ... فقــد هــاج أحزانــي وذكّرنــي نُعْمــاً[5]

---

[1] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 412.
[2] ديوان العرجي، ص 244. الأبيات للوليد بن يزيد في ديوانه، ص 39- 40.
[3] ديوان مجنون ليلى، ص 259.
[4] ديوان ابن الدمينة، ص 140.
[5] شرح الأحوص الأنصاري، ص 194.

وجاء استنطاق شعراء الغزل بعض أنواع الطيور تفريجاً عن كبتهم، فكانت هيئة هذه الطيور توحي لهم بدلالات مختلفة. فصورة الغراب توحي بالغربة والفراق والبؤس والشؤم لدى العرب، لذلك كانت مبعث تذكير الشاعر بالمحبوبة التي أُجبرت على الرّحيل، فبقي وحيداً، يعاني صراع هذا البين فزاد هذا الطائر من ألمه في ظل ابتعاد الحبيبة عنه. فعبر الشاعر جميل عمّا يوحي به الغراب قائلاً:

(الطويل)

ألا يا غرابَ البَيْنِ لَوْنُك شاحبٌ ... وأَنْتَ بِرَوْعاتِ الفِراق جَدير
فإن كان حقا ما تقول فأصبَحتْ ... همومُك شتَّى والجناحُ كَسِير[1]

قال ابن ذريح:

(الطويل)

ألا يا غرابَ البَيْنِ هل أنت مُخْبِري ... بِخَيْرٍ كما خَبَّرْتَ بالنَّأي والشَّرِّ
وَخَبَّرْتَ أنْ قَدْ جَدَّ بَيْنٌ وَقَرّبُوا ... جِمالاً لِبَيْنٍ مُثْقَلاتٍ مِنْ الغَدْرِ
وهِجْتَ قَذَى عَيْنٍ بِلُبْنَى مَرِيضةٍ ... إذا ذُكِرَتْ فاضَتْ مدامِعُها تَجْري[2]

وقال ابن الملوح:

(الطويل)

ألا يا غُرابَ البَيْنِ لونُك شاحبٌ ... وأنت بِلوْعاتِ الفُراق جديرُ
فَبَيَّن لنا ما قلتَ إذ أنت واقعٌ ... وبيِّن لنا ما قلت حينَ تطيرُ
فإنْ يك حقّاً ما تقول فأصبحتْ ... همومُك شتّى والجناحُ كسيرُ
ولا زلت مطروداً عديما لناصرٍ ... كما ليس لي من ظالِميِّ نصيرُ[3]

قال ابن الدمينة:

(الطويل)

ألا يا غُرابَ البَيْنِ مِمَّ تُليحُ لي ... كلامُكَ مَشْنِيٌّ وأَنْتَ صَريحُ
فإلاّ تَشُقْنا ذَاتَ يَومٍ فإنّهُ ... سَتُعْقِبُ خَطْباءُ[4] السَّراةِ صَدُوحُ[5]

---

[1] ديوان جميل، ص 94.
[2] ديوان ابن الذريح، ص 48.
[3] ديوان مجنون ليلى، ص 141.
[4] خطباء السّراة صدوح: أراد الحمامة.
[5] ديوان ابن الدمينة، ص 28.

ولم تكن هيئة طائر الغراب ولونه وحدها تذكر الشاعر بفراق الأحبة، بل اعْتُبِر نعيبه الذي هو متأصّل مع ما جُبل عليها من هيئة تدعو إلى الاشمئزاز والنفور، هو أيضاً مبعث إيحاء بالبين والفراق. فنجد أنّ اقتران البين والفراق بهيئة ونعيب الغراب أينما حلّ شكّل ظاهرة عند الشّعراء المحبين. قال قيس بن ذريح:

(الوافر)

لَقَدْ نادى الغُرابُ بِبْينِ لُبْنى ... فَطَارَ القَلْبُ مِنْ حَذَرِ الغُرابِ
وقال: غداً تَباعَدُ دَارُ لُبْنى ... وَتَنأى بَعْدَ وُدٍّ واقتِرابِ
فقلتُ: تَعِسْتَ وَيْحَكَ مِنْ غُرابٍ ... وَكانَ الدَّهْرَ سَعْيُكَ في تَبابِ
لقد أُولِعْتَ – لا لاقَيْتَ خَيْراً– ... بِتَفْريقِ المُحِبِّ عنِ الحُبابِ[1]

قال ابن ذريح:

(الطويل)

لَعَمْري لقَدْ صاحَ الغُرابُ بِبَيْنِهِمْ ... فأَوْجَعَ قَلْبي بالحديثِ الذي يُبدِي
فقلتُ له: أفصحْتَ، لا طِرْتَ بَعْدها ... بريشٍ! فهل للبَيْنِ وَيْحَكَ من رَدِّ[2]

قال ابن الملوح:

(الطويل)

ألا يا غراب البينِ هيّجتَ لوعتِي ... فويحكَ خبّرني بما أنتَ تصرُخُ
أبالْبين من ليلى: فإن كنت صادقا ... فلا زال عظم من جناحك يُفسَخُ[3]

قال ابن الدمينة:

(الطويل)

ألا يا غراب البين مهّ تُليح لي ... كلامُك مشنيّ وأنت صريحُ
فإلا تشقنا ذات يوم فإنّه ... سَتُعقِبُ خطباءُ السّراةِ صدُوحُ[4]

وفي المقابل لصورة الغراب، وجد شاعر الحب في الطيور الأخرى الحسنة الهيئة مبعث مواساة له في وحدته، فكان ينجذب إلى صورتها وترنمّها وشدّوها الذي يوحي بصوت الحبيبة

---

(1) ديوان ابن الذريح، ص 31-32.
(2) م. ن، ص 41.
(3) ديوان مجنون ليلى، ص 96.
(4) ديوان ابن الدمينة، ص 28.

وقربها منه. فابن الملوح يشكو إلى سرب من القطا كان يتطاير حوله ما حلّ به من لوعة الحـبّ، فقال:

(الطويل)

شَـكَوتُ إلـى القطـا إذ مَـرَرْنَ بـي ... فَقُلْـتُ ومثلـي بالبُكـاءِ جَـديرُ

أَسِـرْبَ القَطَـا هـل مـن مُعيـرٍ جَناحـهُ ... لَعَلّـي إلـى مَـنْ قـد هَوَيْـتُ أطيـرُ

فجـاوَبَني مـن فـوق غُصـنِ أراكـةٍ ... ألا كُلّنـا يـا مُسـتَعيرُ مُعيـرُ

وأيّ قَطـاةٍ لـم تُعِـرْكَ جناحهـا ... فعاشَـتْ بِضـرٍّ والجَنـاحُ كَسـيرُ[1]

كما هيّجت مشاعر الشاعر ابن الملوح قرب حمامة منه، فذكرته بمحبوبته. فقال:

(الطويل)

مُطَوَّقَـةٌ طَوْقـاً تـرى فـي خِطامِهـا ... أُصُـولَ سـوادٍ مُطْمَـئِنٍّ علـى النَّحْـرِ

أَرَنَّـتْ بـأعلى الصَّـوْتِ منهـا فَهَيَّجَـتْ ... فُـؤاداً مُعنّـى بِالمَليحَـةِ لـو تَـدري

فَقُلْـتُ لهـا عـودي فلمّـا تَرَنَّمَـتْ ... تَبَـادَرَتِ العَينـانِ سَـحّا علـى الصَّـدْرِ[2]

---

[1] ديوان مجنون ليلى، ص 137.

[2] م.ن، ص155.

الخاتمة

توصلّت من خلال هذه الدراسة إلى عدة أمور:
أولا:- إنّ التّواصل والاتّصال الإنساني لا ينحصر في اللّسان، بل اعْتُبر البيان في عدّة صور تكشف لنا عن دلالات الألفاظ، فبأي طريقة كان، ما دام حصل الفهم والإفهام منها، فهذه الرؤية التي يراها العلاّمة الجاحظ لا تختلف عن الرؤية التي راح يفصّل فيها المعاصرون _ولاسيّما الغربيين _من حيث تعدّد وسائل الاتّصال والتّواصل الإنسانيّ.

ثانياً:- كشف الموروث الشعريّ في باب الغزل العذريّ والإباحيّ عن صور التّواصل غير اللّفظي، والتي تتركز أغلبها قي لغة الجسد، والعين ودموعها، والوجه، والشمّ، والإشارة، والمشي، وهيئة الجسم، وبالإضافة إلى وجود مؤثرات خارجيّة حتّمتْ على المحبين تجنّب التّواصل اللّفظيّ مع الحبيب كظهور الرقيب، والكاشح، والواشي في حياة هؤلاء العشّاق، وكما لعبتّ بعض مظاهر الطبيعة (النُّصبَة) في إثارة مشاعر العاشق، فأخَذَ يحاكيها ويبادلها الأحاديث التي محورها ذلك الحبيب الغائب عن العين.

ثالثاً:- لقد طوّع العشّاق من شعراء الغزل العذريّ والإباحيّ بعض أعضاء الجسم الظاهرة في سبيل ذلك الحبّ العاطفيّ الكامن في أحشائهم، لنقل رسائل غير لفظيّة عبرها إلى الحبيب، حيث إنّه نتج عن كلّ واحد منها العديد من الدلالات والإيحاءات غير اللّفظيّة، التي تبادلها طرفا الحبّ لتصبح قاموساً دلاليّاً غير لفظيّ، كأنْ أصبحَ مصطلحاً عليه من قبل أهل العشق من كلا الجنسين، فتفرّس في دلالات هذا القاموس غير اللّفظيّ ذوو الخبرة في مجال الحبّ العاطفيّ، فسرعان ما تكشفُ بصيرتُهم النافذة عن تلك الدّلالات غير اللّفظية، فتبني تصوّرها حول طبيعة العلاقة المرتبطة بين المُرسِل والمُستقبِل. لذلك كان هؤلاء المتفرّسون عقبة في حياة العشّاق، زادت من معاناتهم، عرفوا بالرقباء والكاشحين والوشاة، فوجودهم أصبح في حدّ ذاته رسالة غير لفظيّة، تُخبِرُ كلا طرفي الحبّ بعدم التّواصل والالتقاء مادامت هذه الفئات ترصدهم و تتبعهم .

ويبقى الفضل لذلك اللّسان الذي عرّفنا بذلك البيان غير اللّفظيّ الذي تواصل به كلّ عاشق مع حبيبه المتمثل في لغة الجسد، بكلمات شعريّة منطوقة ومقروءة.

ونخلص إلى أهمية دور التّواصل بلغة الجسد والنُّصبَة في الحياة، والتي يمكن أن نُفعّلها في مختلف جوانب حياتنا هروباً من الضوضاء التي يحدثها اللسان إذ ما اكتظ المجلس بالناس، والصفّ

بالطلاب، وأراد كلّ واحد منهم أن يبدي رأيه أو أن يستفسر عن شيء ما، فما من وسيلة تنظم هذا التدافع في النقاش من قبل الحاضرين للسيطرة على الموقف في هذا المجلس أو ذاك، سوى لغة الجسد، اللغة المتفق علي دلالتها من قبل الجميع، كرفع اليد طلباً للسؤال، وهزّ الرأس من أعلى إلى أسفل تأكيداً على موافقة السامع لما يقوله من يدير هذا المجلس، وغيرها من صور التّواصل غير اللّفظي التي تحفظ الهدوء، ومن ثمّ تحقّق الفائدة المرجوة من هذا الاجتماع أو ذاك بهذه اللغة غير اللسانيّة، والتي بات استعمالها ضروريّاً في هذه الأيام مع أبناء جلدتنا و لاسيّما جماعة الصم – البكم، والتي أخذت تمارس حياتها بشكل طبيعيّ بين الأفراد الذين ينعمون بالنطق، فأصبحت لغتهم الإشاريّة لغة متكاملة على غرار اللغة اللسانيّة، الأمر الذي يحتّم علينا أن نتعلمها لنتواصل معهم بلغتهم، تماما كما يحتاج الإنسان إلى ضرورة تعلّم لغة قوم ناطقين لكي يتفاعل معهم بحال لسانهم الذي يختلف عن لسان قومه.

المصادر والمراجع:

المصادر والمراجع العربية:

-الأصفهاني، **الأغاني**، مج: 1، 2، 4، 6، 8، 9، 12، 17، 18، د. ط.، تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، تونس، الدار التونسية للنشر، 1983.

-أمبرتو إيكو، **السيميائية وفلسفة اللغة**، ترجمة أحمد الصمعي، ط1، بيروت، 2005.

-امرؤ القيس، **شرح ديوان امرؤ القيس**، ط 1، شرح وتحقيق: حجر عاصي، بيروت، دار الفكر، 1994.

-الأندلسي، ابن حزم، **طوق الحمامة في الألفة والأُلاف**، د.ط.، ضبط: سعيد محمود عقيّل، بيروت، دار الجيل، 1425هـ/ 2004.

-الأنصاري، الأحوص، **شرح ديوان الأحوص الأنصاري**، شرح: مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي، 1424هـ/ 2004.

-الأنصاريّ، الاحوص، **شعر الأحوص الأنصاري**، د. ط.، تحقيق: عادل سليمان جمال، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة، 1390 هـ/ 1970.

- إيكو، أمبرتو، **السيميائيّة وفلسفة اللغة**، ط1، ترجمة: أحمد الصمعي، بيروت، 2005.

-باكو، ناتالي، **لغة الحركات**، تعريب سمير شيخاني، ط1، بيروت، دار الجيل، 1415هـ/ 1995م.

-بالمر، **علم الدّلالة**، د.ط، ترجمة: صبري إبراهيم السيد، 1407هـ/ 1986م.

-برد، بشار، ديوان شعر بشار بن برد، ط1، تحقيق محمد بدر الدين العلوي، بيروت، دار الثقافة، 1983.

-البغدادي، عبد اللطيف، **مقالتان في الحواس**، دراسة وتحقيق بول غليونجي وسعيد عبده، د.ط، مطبعة حكومة الكويت، 1392هـ/ 1972م.

-أبو بكر، وليد، **لغة الجسد في المسرح**، د.ط، القدس، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، 1998.

-البلاذري، "**فتوح البلدان**"، د.ط، بيروت، دار الكتب العلمية، 1978.

-بوعزيزي، محمد العربيّ، "**نظرية المعرفة عند الرازي**"، ط 1، بيروت – دار الفكر العربي، 1999.

-بيز، آلن، **لغة الجسد**، تعريب سمير شيخاني، د.ط، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1417هـ/ 1997م.

-الجاحظ، **البيان والتبيـــين**، ج1، ط5، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1405/ 1985.

- الجاحظ، **الحيوان**، ج1، ج 2، ج3، ج4، د. ط.، تحقيق وشرح: عبد السلام محمـــد هـــارون، بيروت، دار الجيل، 1416/ 1996.

-الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، ج1، تحقيق عبد السلام محمد هارون، د.ط، القاهرة مكتبة الخـــانجي، 1979.

-جبور، جبرائيل، **عمر بن أبي ربيعة**، ج 3، ط 2، بيروت، دار العلم للملايين، 1979.

-الجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط1، بيروت، دار الكتـــب العلمية، 1422هـــ/ 2001م.

-جرير، **ديوان جرير**، د.ط.، بيروت، دار صادر، 1964.

-جميل بثينة، **ديوان جميل**، ط3، تحقيق: حسين نصار، دار مصر، 1980.

-جميل بثينة، **كثيّر عزّة**، العباس، **ديوان العذريّين**، شرح: يوسف عيد، ط1، بيروت، دار الجيل، 1413هـــ/ 1992.

-ابن جني، **الخصائص**، مج 1، ط2، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت، دار الهدى، د. ت.

-ابن الجوزيّ، أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ، **الأذكياء**، د.ط، بيروت، المكتب التجاري، د.ت.

-الجوزية، ابن قيم، **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، د. ط.، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

-الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح، تحقيق أحمد عيد الغفور عطّـــار، ط1، القـــاهرة، ط2، بيروت، دار العلم للملايين، 1399هـــ - 1979م.

-ابن حجلة المغربي، شهاب الدين أحمد، **ديوان الصبابة**، ط1، دار حمد ومحيو، 1972.

-حزام، عروة، **ديوان عروة بن حزام**، ط 1، تحقيق: أنطوان محسن القوّال، بيروت، دار الجيل، 1416/1995.

-حسين، طه، **حديث الأربعاء**، ح1، ط 9،- مصر- دار المعارف، 1975.

-الحموي، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادة حجاز، مج: 2، 4، د.ط، بيروت، دار صادر، دار بيروت، د. ت.

-خليل، حلمي، **دراسات في اللسانيات التطبيقيّة**، د. ط.، دار المعرفة الجامعيّة، 2003م.

-ابن الدمينة، **ديوان ابن الدمينة**، تحقيق: أحمد راتب النفاخ، د.ط.، القاهرة، مكتبة دار العروبة، د.ت.

-دي سوسير، فرديناند، **فصول في علم اللغة العـــام**، د.ط، ترجمـــة أحمـــد نعـــيم الكـــراعين، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1985.

-ديبوغراند، روبرت وآخرون، **مدخل إلى علم لغـــة الـــنّص**، ط1، مركـــز نـــابلس للطباعـــة، 1414هـــ/ 1992.

-الدينوري، ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، مج 2، ج 4، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

-الدينوريّ، عبد الله مسلم بن قتيبة، **عيون الأخبار**، مـــج 1، ج 2، د.ط.، بيـــروت، دار الكتـــب العلميّة، د.ت.

-ابن ذريح، قيس، **ديوان قيس لبنى**، د. ط.، تحقيق: أميل بديع يعقوب، بيـــروت – دار الكتـــاب العربي 1428هـــ/2007م.

-ابن ذريح، قيس، **شرح ديوان قيس لبنى**، ط1، شرح: الأسمر- راجي ، بيـــروت، دار الفكـــر العربي، 1997.

-الربايعة، **حسن محمد، السيمياء عند الجاحظ**، ط1، الكرك، مؤسسة رام للتكنولوجيا والكمبيوتر، 2007.

-ابن أبي ربيعة، عمر، **شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة**، ط 2، شرح: عبـــد. أ. علـــي مهنـــا، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1412هـــ/ 1992م.

-روبن، برنت. د.، **الاتصال والسلوك الإنسانيّ**، د. ط، ترجمة نخبة من أعضاء قســـم ووســـائل وتكنولوجيا التعليم – جامعة الملك سعود، معهد الإدارة العامة، 1412هـــ/ 1991.

-الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، ط1، بيروت، دار صادر، 1306هـــ.

-الزركلي، خير الدين، **الأعلام** – قـــاموس تـــراجم، ج 2، 5، 6، 9، ط 3، القـــاهرة، المطبعـــة الخيرية، 1886.

-زكريا، ميشال، **الألسنيّة**، د. ط، بيروت، 1980.

-السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تفسير السعدي**، د.ط، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.

-السعران، محمود، **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، د. ط.، بيروت، دار النهضة، د. ت.

-السيوطيّ، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر**، مج2، د.ط، دار الفكر، بيروت، د. ت.

-شداد، عنترة، **ديوان عنترة بن شداد**، ط1، تحقيق: بدر الدين حاضريّ، محمـــد حمـــامي، دار الشرق العربي، 1992/1412.

- شداد، عنترة، **ديوان عنترة بن شداد**، شرح حمـــدو طمّـــاس، ط 3، بيـــروت، دار المعرفـــة، 1428هـــ/ 2007م.

-شداد، عنترة، **شرح ديوان عنترة**، ط 2، شرح وتحقيق عباس إبراهيم، بيـــروت، دار الفكـــر، 1998.

-شقير، وليم نقولا، **العرجي وشعر الغزل في العصر الأموي**، ط1، بيروت، دار الآفـــاق، 1406 هـــ/ 1986.

-الشنقيطي، الشيخ أحمد الأمين، **شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها**، ط1، تحقيـــق محمـــد الفاضلي، بيروت، صيدا، 1418/ 1998.

-الشيخ، عبد الواحد حسن، **العلاقات الدلاليّة**، ط1، مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنيـــة، 1419هـــــ/ 1999م.

-الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج 2، ط 1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1419هـــ/1998م.

-أبو صالح، صالح خليل، **نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصـــر**، د.ط، عمـــان، دار آرام. 2000.

-أبو صواوين، راشد محمد، **تنمية مهارات التّواصل الشفويّ التحدث والاستماع**، ط 2، القاهرة، ابتراك، 2006.

-ضيف، شوقي، **العصر الإسلامي**، ط 6، مصر، دار المعارف، 1974.

-ضيف، شوقي، **العصر الجاهلي**، ط 8، دار العارف، 1960.

-ابن الطثريّة، يزيد، **شعر يزيد بن الطثرية**، ناصر الرشيد، د. ط، دمشق، دار الوثبة، د. ت.

-الطنوبي، محمد، **نظريات الاتصال**، ط1، الإسكندرية، مكتبة الإشعاع الفنية، 2001.

-طه، علي محمود، ديوان علي محمود طه، د.ط.، بيروت، دار العودة، 1982.

-عبّاس، راوية عبد المنعم، **جون لوك إمام الفلسفة التجريبيّة**، د.ط، الإسكندرية، دار المعرفـــة، 1987.

-العرجي، **ديوان العرجي**، ط1، تحقيق: سجيع جميل الجبيلي، بيروت، دار صادر، 1998.

-عزّة، كثيّر، **شرح ديوان كثيّر عزّة**، شرح وتحقيق: عكاوي- رحـــاب ، بيـــروت، دار الفكـــر العربي، ط1، 1996.

-العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج 10، ط1، لبنان، بيروت، 1410هـــ.

-أبو عياش، نضال، **الاتصال الإنسانيّ**، ط 1، العروب، كلية فلسطين التقنية، 2005.

-غاليم، محمد، **التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم**، ط1، الدار البيضـــاء، دار توبقـــال للنشـــر، 1987.

-الغزالي، أبو حامد، **المستصفى من علم الأصول**، ط1، القاهرة، مكتبة الجندي، 1970.

- غلوم، إبراهيم عبدا لله، وآخرون، **تقنيات تكوين الممثل المسرحيّ**، ج 2، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 2002.
-غيرو، بيار، **السيمياء**، ط1، ترجمة أنطوان أبي زيد، بيروت، باريس، 1984.
-غيرو، بيار، **علم الدلالة**، ط1، ترجمة: أنطوان أبو زيد، بيروت، باريس، 1986.
-فابر، بول. بايلون، كريستيان، **مدخل إلى الألسنيّة**، ط1، ترجمة: طلال وهبه، المركز الثقافي العربي، 1992.
-فيصل، شكري، **تطّورالغزل بين الجاهلية والإسلام**، ط 4، بيروت دار الملايين، 1959.
-قاسم، سيزا ونصر حامد، **مدخل إلى السيميوطقيا** "أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة"، د.ط.، دار الياس العصريّة، 1987.
-قباني، نزار، **الأعمال السياسية الكاملة**، ج 6، ط1، بيروت – منشورات نزار قباني، 1993.
-قنبر، أبي بشر عمرو بن عثمان، **كتاب سيبويه**، ج2، د.ط، تحقيق وشرح وشرح عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتب، د. ت.
-القيروانيّ، إبراهيم بن علي الحصريّ، **زهر الآداب**، ج 4، ط4، بيروت، دار الجيل، 1972.
-القيرواني، **حسن ابن رشيق، العمدة**، ج 1،ط 4، بيروت، دار الجيل، 1972.
-كشّاش، محمد، **اللغة و الحواس**، ط1، بيروت،المكتبة العصريّة،1422هـ/ 2001م.
-كشك، بهجت، **الاتصال ووسائله في الخدمة الاجتماعيّة**، د. ط.، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، د. ت.
-كللر، جوناثان وفردينان دوسوسر، **تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات**، د.ط، ترجمة وتقديم: محمود حمدي عبد الغنى، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.
كليام، سوزان، **لغة الجسد**، د.ط.، ترجمة إدوارد أبو حمرا، بيروت، دار الحكايات، 2008.
-كليتون، بيتر، **لغة الجسد**، ط1، نشر و ترجمة دار الفاروق، 2005.
-لبيب، طاهر، **سوسيولوجيّة الغزل العربيّ**، د. ط.، ترجمة: حافظ الجمالي، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1981.
-لوشن، نور الهدى لوشن، **علم الدّلالة**، د.ط، الأسكندرية، الأزاريطة، 2006.
-لويس، م. م.، **اللغة في المجتمع**، د. ط.، ترجمة تمام حسان، مراجعة إبراهيم أنيس، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 1959.
- مبارك، زكي، **العشاق الثلاثة**: جميل – كثيّر– العباس، د. ط.، صيدا، بيروت، المكتبة العصريّة، د. ت.

-المبرد، **الكامل**، ج2، د.ط.، تعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار النهضة، د.ت.
-محجوب، فاطمة، **دراسات في علم اللغة**، د. ط، القاهرة، دار النهضة العربية، 1976.
-مختار، أحمد، **علم الدلالة**، ط1، الكويت، دار العروبة، 1402هـ/ 1982.
-المسعودي، **مروج الذهب**، مج4، د. ط.، باريس، الاميريال، د. ت.
-ابن المعتزّ، **ديوان ابن المعتز**، شرح وتقديم ميشيل نعمان، د. ط.، بيروت، الشركة اللبنانيّة للكتاب، 1969.
-مكاوي، حسن. ليلى السيد، **الاتصال ونظرياته المعاصرة**، ط 1، الدار المصريّة اللبنانيّ، 1419هـ/ 1998م.
-ابن الملوح، قيس، **ديوان مجنون ليلى**، جمع وتحقيق: عبد الستار أحمد فراج، د. ط.، مكتبة مصر، د.ت.
-ابن منظور، **لسان العرب**، ط1، ط2، ط 3، بيروت، دار صادر، 1994.
-نظيف، محمد، **ما هي السيميولوجيا**، ط1، أفريقيا الشرق، 1994.
-النووي، **صحيح مسلم**، ج3، ط1، لبنان، بيروت، 1347هـ.
-النيسابوري، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم**، د. ط.، مكتبة الإيمان، د.ت.
-هجمان، روي. سي، **اللغة والحياة والطبيعة البشريّة**، ترجمة: داود حلمي السيد، ط2، القاهرة، عالم الكتب، 1420/ 2000.
-الهمذاني، عبد الرحمن بن عيسى (- 327هـ)، **ألفاظ الأشباه والنظائر**، د.ط.، تحقيق وضبط الدكتور البدراوي زهران، د.ت.
-وافي، علي عبد الواحد، **نشأة اللغة عند الإنسان والطفل**، د. ط، دار نهضة مصر، د. ت.
-ابن وهب الكاتب، إسحاق بن إبراهيم، **البرهان في وجوه البيان**، د.ط، تحقيق: جفني محمد شرف، مكتبة الشباب، د.ت.
-اليوسف، يوسف اليوسف، **الغزل العذري – دراسة في الحبّ المقموع**، ط 2، دار الحقائق، 1998.
-يول، جورج، **معرفة اللغة**، د. ط، ترجمة: محمود فراج عبد الحافظ، الإسكندرية، دار الوفاء، 1999.

المراجع الأجنبيّة:

- Cundiff, Merlyn, Kinesics, West Nyack, N.Y., Parker Publishing, Company, Inc. 1972.
- Feyereisen, Pierre, Gestures and speech: Psychologicag investigations, Pari, 1977.
- C.K. Ogden & I. A. Richards, The Meaning of Meaning, London, Routledge & kegan, paul, 1956.

الدوريات:

- صديق، لينا عمر، " **فاعلية برنامج مقترح لتنمية مهارات التّواصل غير اللّفظي لدى أطفال التوحد، وأثر ذلك على سلوكهم الاجتماعيّ** " مجلة الطفولة العربية، مج 9، العدد 33، 2007، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية.

الإنترنت:

- حمداوي، جميل، "مظاهر التّواصل غير اللّفظي" منبر دنيا الوطن، ص 3، http://pulpit.alwatanvoice.com.
- صالح، محمد سالم، "أصول النظرية السياقيّة الحديثة عند علماء العربية"، www.ta5atub.com.
- "لغة الإشارة بين الواقع و التطبيق"، . www.ae.gladiatus.com
- نظريات مناهج دراسة المعنى، www.angelfire.com.

فهرس الآيات

الرقم	الآية	رقمها	السورة	رقم الآية	الصفحة
.1	{قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ...}	2	آل عمران	40	160
.2	{قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ...}	2	آل عمران	41	160
.3	{وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ...}	2	آل عمران	119	164
.4	{إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ}	4	النساء	90	4
.5	{ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي ...}	12	يوسف	94 – 93	142
.6	{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ...}	14	إبراهيم	26	30
.7	{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ...}	14	إبراهيم	24	29
.8	{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً...}	16	النحل	59 –58	105
.9	{إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ...}	17	الإسراء	36	62
.10	{قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً...}	19	مريم	4	154
.11	{فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ...}	19	مريم	30 – 26	161
.12	{فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء...}	28	القصص	25	169
.13	{فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ...}	33	الأحزاب	19	110
.14	{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ...}	63	المنافقون	4	79
.15	{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ...}	88	الغاشية	20 –17	62

فهرس الأحاديث

الرقم	طرف الحديث	الصفحة
.1	"من أراد أن يطول عمره فاليصل رحمه"	6
.2	"أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا..."	161

فهرس القوافي

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
قافية الهمزة			
.1	أعان طرفي ..... على دائي	البسيط	11
.2	لها حبٌّ .... زُجِرَ انتهاء	الوافر	97
.3	صرمتْ حبلكَ .... ريبة أسمـــاءُ	الخفيف	88
.4	قالت لجارتِها .... راكِبُ الأدماء	الكامل	90
.5	حتى إذا .... سَواهِرِ الأَعداءِ	الكامل	170
.6	جاءَ البَشيرُ .... بِكُلِّ فَضَاءِ	الكامل	143
قافية الألف			
.7	ولَقَدْ دَخَلْتُ .... سَقَط النَدى	الكامل	131
قافية الباء			
.8	متى تكُ .... عن القلوبِ	الوافر	10
.9	لما رأيت .... شواهد الصّب	الكامل	11
.10	فقلت دعوا .... يبصر ذو اللّبِّ	الطويل	24
.11	وأول ما قاد .... يا بثين سباب	الطويل	72
.12	يُزْهدُني في .... مُخالفةٌ قلبي	الطويل	111
.13	وقد شَاقَها .... الغُمادِ فعُلْيَبُ	الطويل	113
.14	خليليّ عُوجا .... صاحِبيّ وتَذْهَبا	الطويل	118
.15	إذا خفنا .... عن القلوب	الوافر	122
.16	وأحببتها حبّا .... لا يُشبه الحبَّا	الطويل	118
.17	كانَتْ لِماحاً ... أنْ يُظْهِرَ الرِّيبا	البسيط	124
.18	كما أَوْمَضَتْ .... جبينٌ وحاجبٌ	الطويل	127
.19	قالت مُوَكَّلَةٌ .... النَّعيمَ شَبابُهُ	الكامل	118
.20	وَشَاهِدُ وَجْدِي .... عَظْمي وَمَنْكبي	الطويل	133
.21	فانْهَلَّ دَمْعي .... دون صِحابي	الكامل	136
.22	ومنّيتني حتّى .... للنَّاظِرين يريبُ	الطويل	100

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
	قافية الباء		
.23	فإن تكُ ليلى ..... من وشى وتكذّبا	الطويل	99
.24	أقول لواش .... حينا وأجلبا	الطويل	99
.25	لَمَعَتْ بأَطْرافِ .... أعَيُنَ الرَّكْبِ	الكامل	166
.26	لقد عِشْتُ .... مَجيئي وَمَذْهبي	الطويل	167
.27	إنّ المنازل هيّجتْ .... آياتها بجوابي	الكامل	177
.28	عُجنا على دارها .... عن بيننا خُطُباً	البسيط	176
.29	لقد نادى الغراب .... من حذر الغراب	الوافر	181
.30	يَكْتُمُ الناسَ ما .... مُبَيِّنٌ لِلّبيْبِ	الخفيف	79
.31	أليكَ عنّي فإنّي .... أودَى به العَطَبُ	البسيط	80
.32	وَقَدْ جَعَلَ الواشونَ .... يا أُمَيْمُ – نَصِيبُ	الطويل	84
.33	أحقّاً –عباد الله– .... عليّ رقيب	الطويل	86
.34	أرى أمَّ عبدِ اللهِ .... جنيْتُ لها ذنْبا	الطويل	87
.35	أقول لمّا التقينا .... يَقْرِضُ الكذبا	البسيط	87
.36	وآخر عهدي .... حولنا فترقّبا	الطويل	88
.37	رَاَعَ الفُؤادَ .... فَهاجَ لي أَطْرابي	الكامل	106
.38	وإنّي إذا ما.... عليَّ قَطُوبُ	الطويل	107
.39	قالت ثريا لأتراب .... الخطّاب من كثب	البسيط	91
.40	أَرْسَلَتْ أسماءَ .... أَهْوى منْ عَتَبْ	الرمل	152
.41	فَلَمَّا التَقَيْنَا .... المُعْرِضِ المُتَجَنِّبِ	الطويل	152
.42	فارْجَحَنَّتْ في .... مَشْيها كالحُبابِ	الخفيف	172
.43	تَبَدَّتْ لنا .... في نِعاجِ الرَّبائبِ	الطويل	171
.44	يرفلن في الرَّيط .... على الكُثُب	المنسرح	92
.45	تِلْكَ عِرْسي .... وما تَمَلُّ عِتْابي	الخفيف	156
.46	فَتَعَزَّيْتُ عن .... مِنّي فَشابا	الخفيف	157
.47	يَقَرُّ بِعَيْنِي ما .... بهِ العَيْنُ قَرَّتِ	الطويل	117

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
	قافية التاء		
48.	إذا نظرتْ نحوي .... ونحن سكوتُ	الطويل	123
49.	تضوّعَ مسكا بطن .... في نسوةٍ عطراتِ	الطويل	121
	قافية الجيم		
50.	مرّت علينا .... إلينا أَعْوجُ	الكامل	121
51.	مِنْ حَيِّكُمْ .... الهائِمِ المُنْضَجِ	السريع	125
52.	أَوْمَتْ بِعَيْنَيها .... لَمْ أَحْجُجِ	السريع	126
53.	تحُوذُ بالبُرْد .... ولم تُفْشَج	السريع	104
54.	مازلت أتبعهم .... على ربُيبة هودج	الكامل	91
55.	فَدَنَوْتُ مُخْتَفِيا .... إلى خَفيِّ المُوْلِجِ	الكامل	149
56.	يَوْمَ يقولُ الرّسولُ .... غَيْرِ رِقبةٍ فَلِجِ	المنسرح	146
	قافية الحاء		
57.	تبِعــتُــهُمُ بطَــرْفِ .... قيل لي افْتَضَحــا	مجزوء الوافر	119
58.	أَبَيْــتِ بألا تَرْثئ .... بين الحشــا والجوانِــحِ	الطويل	120
59.	قادت العيْنُ .... مِنْ يومِ الأَضاحْ	الرمل	117
60.	وقالت: عيونٌ .... من عدوِّك كُشَّحُ	الطويل	102
61.	فلما رأت جدّ .... أكذبتْ كلّ كاشح	الطويل	102
62.	ألا يا غراب البين .... وأنت صريحُ	الطويل	180
63.	سَقيمٌ لا يُصَابُ .... مُقْلَتَهُ فَنَاحا	الوافر	82
	قافية الخاء		
64.	ألا يا غراب البينِ .... بما أنتَ تصرُخُ	الطويل	181
	قافية الدال		
65.	غضابٌ يثيرون .... ذكّيتُه فتوقدا	الطويل	9
66.	إنّ العيون على .... على الأجساد	الكامل	12
67.	عيد قيس من .... صعب شديد	الخفيف	75
68.	لها في طَرْفِها .... وتُحيِي مَنْ تُريدُ	وافر	116

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
	قافية الدال		
.69	وَيَحْسبُ نِسْوانٌ .... كنتُ أُريدُ	الطويل	129
.70	فأَقْسَم طرفي .... بون بينهن بعيد	الطويل	129
.71	ولَي كَبِدٌ حَرَّى .... الهوى غَيْرُ جامِدِ	الطويل	132
.72	خَلِيليّ ما أُخفي .... أُخفي الغَداة شَهيدُ	الطويل	133
.73	فَقُلْنَ لقد بَكَيْتَ .... مِنْ الطَّرب الجَليدُ	الوافر	136
.74	ولَقَدْ أَذْكُرُ .... فوق خَدّي تَطَّرِدْ	الرمل	138
.75	فلما بدا لي .... عليّ وَأَوْقَدا	الطويل	139
.76	وقد عَجِبْتُ .... الكُحْلِ يَطَّرِدُّ	البسيط	140
.77	يقول لي .... أعين ورصود	الطويل	97
.78	فإن كنت تهوى .... لنا منك موعدا	الطويل	100
.79	ألم تسأل الدار .... عهدك من عهد	الطويل	175
.80	لعمري لقد صاح .... بالحديث الذي يُبدِي	الطويل	181
.81	أيّها الناصِحُ .... إذا جِئْتِ هنْدا	الخفيف	82
.82	أَرِقْتُ ولم أمْلِكْ .... حُبّي وكِتْمانُه جَهْدا	الطويل	83
.83	يا صاحِ لا تَلْحَني .... قاتِــلي كَمَدا	المنسرح	83
.84	دَعاني الهوى .... يَسْتَنُّ حَيْثُ يُريدُ	الطويل	85
.85	ما عالج النّاس .... عظماً ولا جسدَ	البسيط	85
.86	أقول لمّا .... وإخلافَ المواعيد	البسيط	87
.87	فَطَرَقْتُ بابَ .... أَتاهُمُ للمَــوْعدِ	الكامل	106
.88	زَعَمُوها سَأَلَتْ .... يومٍ تَبْتَــرِدْ	الرمل	150
.89	كُلّما قُلْتُ .... وقالت بعد غَدْ	الرمل	149
.90	تَمْشي الهوَيْنا .... في الصَّعَدِ	المنسرح	170
.91	فلمَّا بَلَغْنا .... أَقْلَلْتُ أن أتَلَدَّدَا	الطويل	171
.92	فقامت فقلتُ .... شيّعها الأسعدُ	المتقارب	94، 172
.93	تأرَّجُ بالمسكِ .... وبالعنْبرِ الوردِ	الطويل	143

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
	قافية الراء		
94.	إنّي نهيتُ .... العينينِ والّشعَرَهْ	البسيط	10
95.	ومُراقَبينِ يُكَتِّمان .... لما تُجِنُّ قبورا	الكامل	19
96.	أَنِّى؟ ولَم .... لا يَرى البَصَرُ	المنسرح	24
97.	أمست وُشاتُك .... الغِشّ وابتــدَرُوا	البسيط	110
98.	سَمْعي وَطَرْفي .... سَمعي وعَنْ بَصَري	البسيط	111
99.	إني امرُؤٌ .... إلاّ لــذَّةُ النَّظَرِ	البسيط	112
100.	قرَّبَتْني إلى .... والهوى المُسْتَعَارُ	الخفيف	114
101.	وَنَظَرْتُ نَظْرَةَ .... عازمٍ نَظَرُهْ	الكامل	115
102.	يقولون: لا تَنْظُرْ .... لا بُدَّ، ناظِــرُ	الطويل	113
103.	قال جعلنا علامات .... أخفى من السِّحر	الطويل	117
104.	قد خَلَوْنا .... ما نُسِرْ	الرمل	119
105.	ولن أنسى .... زيــنبَ النّظرا	مجزوء الوافر	120
106.	القلبُ رَهْنٌ .... القلبِ مَقْمــورُ	البسيط	120
107.	زوروا بنا اليومَ .... يُفَرّق بينا القَدَرُ	البسيط	121
108.	ومما شجاني .... في الجفنِ حائرُ	الطويل	122
109.	ما زال طرفي .... ليــلا على قَــدَرِ	المنسرح	126
110.	السِّرُّ يكتُمُه .... الاثنين منتَشِــرُ	البسيط	128
111.	فلّما أَجَزْنا .... والليلُ مُقْمِرُ	الطويل	131
112.	وَيَسَّرَها لنا .... مِنَى تَسيرُ	الوافر	137
113.	قالتْ لها الصُّغرى .... لا يأتيكُما شَهْرا	الكامل	83، 183
114.	حتّى إذا .... من سَنا الفَجرِ	الكامل	140
115.	وما برح الواشون .... مقلوبة لظهور	الطويل	101
116.	فالتقينا فرحّبت .... من العين مارا	الخفيف	103
117.	فقلتُ لها .... وبينكِ عَزورُ	الطويل	162
118.	فلمّا فَقَدْتُ .... بالعشاءِ وأَنــؤُرُ	الطويل	163
119.	فلمّا تَقَضَّى .... نَجمِهِ تَتضغَوَّرُ	الطويل	165
120.	وَأَشَارَتْ إلى .... للسِّرِّ سِتْرا	الخفيف	166

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
	قافية الراء		
.121	أزورُ البيوتَ .... الذي لا أزُورُ	الطويل	167
.122	وأَشَارَتْ لِتِرْبَيها .... مُومِضٍ ومُشِيرِ	الطويل	166
.123	هاجت فؤادك .... أيها الأمطار	الكامل	177
.124	هل عند .... الأشياءِ تنتظِرُ	المنسرح	177
.125	ألم تسأل .... فيبخل أو يخبرا	المتقارب	175
.126	عوجا خليليّ ... سلّامة المُقْفِرِ	السريع	179
.127	ألا يا غراب .... الفِراق جدير	الطويل	180
.128	ألا يا غراب البين .... بالنأي والشرّ	الطويل	180
.129	شَكَوتُ إلى القطا .... بالبُكاءِ جَديرُ	الطويل	182
.130	مُطَّوقَةٌ طَوْقاً .... مُطْمئِنٍّ على النَّحْرِ	الطويل	182
.131	ألا قاتَلَ اللهُ .... اليدين أَسيرُ	الطويل	81
.132	ألما بها .... من سائغ القَطْرِ	الطويل	87
.133	ألما بها .... من سائغ القَطْرِ	الطويل	90
.134	إنّ العواذل .... لومِهِنَّ ضِرارا	الكامل	92
.135	إذا زرتُ نُعما.... لاقيتُها يتنمَّرُ	الطويل	93
.136	للتي قالت .... ما دَهَى عُمرا	المديد	107
.137	فَجِئْتُ أَمْشي ولمْ .... هِنْدُوانِيٌّ به أُثُرُ	البسيط	108
.138	ومَنْ إنْ .... لَهُ مائِرُ	المتقارب	109
.139	فلمّا التقينا .... يَرْضَ يُسْرَرِ	الطويل	153
.140	إذا ما مَشَتْ .... تَزيدُ على شِبْرِ	الطويل	169
.141	حتى إذا .... قَدْ نَوَّرَ السَّحَرُ	البسيط	170
.142	وَظَلَّتْ تَهادَى ..... قوائمِها فَتَرا	الطويل	171
.143	إذا أَقبلَتْ تَمْشي .... تَقَسَّمَها البُهْرُ	الطويل	173
.144	تقولُ بثينةُ .... الشَّعَرِ الأَحْمِرِ	المتقارب	154
.145	رأينَ الغَواني ..... بالخُدُود النَّواضِرِ	الطويل	154
.146	طَرِبْتَ، وكيف .... توشَّع بالقتير	الوافر	157

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
قافية الراء			
.147	تقولُ ابنةُ .... بَعْدنا وتَنَكّرا	الطويل	157
.148	صَحا القلْبُ .... مضى في العُصُرْ	المتقارب	158
.149	قُلنَ تَعْرِفنَ .... يَخْفَى القَمَرْ	الرمل	144
.150	وَذَكَرْتُ فاطمةَ .... لَحَوادِثِ الدَّهْرِ	الكامل	144
.151	لأسماءَ إذْ قَلبي .... المَليحَةِ مُهْجَرُ	الطويل	146
.152	وبيضٌ يَرْتَمينَ .... أعيُنُهُنّ حُورُ	الوافر	147
قافية السين			
.153	ولا تبكي .... على الأمسِ	الهزج	28
.154	نظرتْ إليك .... جَاذِرٍ خُنسِ	الكامل	115
.155	شجتني وأبلتني .... عهِدْتُ وتخرَسُ	الطويل	177
.156	فيم الوقوفُ .... جنادِلٍ خرْسِ	الكامل	176
.157	إنْ تَرَيْنِي أقصَرْتُ .... مَفَارِقُ راسي	الخفيف	158
قافية الصاد			
.158	وَتَمْشي حينَ ... الوَحِلِ الوَهِيصِ	الوافر	172
قافية الضاد			
.159	فقلتُ لهنْدٍ ... بهذا فَرُوضا	المتقارب	113
.160	فَعَطَفْــتُ رَاحِلَتي .... نحــوَها أن تُومِضا	الكامل	127
.161	وأطعت فيها .... شامتا ومعرّضــاً	الكامل	98
.162	عَلِقْتُكِ ناشِئاً .... الرَّأْسَ مبيضّاً	مجزوء الوافر	158
.163	وولَيدَيْنِ كان .... الرُّؤوسَ البَيَاضُ	الخفيف	158
قافية العين			
.164	يَسسْتخبِرُ الرّيح .... الصّقا الموقّع	السريع	13
.165	حَرِقُ الجناح ..... هشٌّ مُولَع	الكامل	14
.166	ترى عينها .... الوحي يرجع	الطويل	18
.167	جُزِعْتُ غُداةَ ..... يا بثينةُ يجزعُ	الطويل	112
.168	فلما تنازعنا .... منها فأطمعا	الطويل	119

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
قافية العين			
169.	فأبدتْ كثيراً ..... ما تُجِنُّ الأضَالِعُ	الطويل	120
170.	مُنِعْــتُ عن التــسليم .... والعينُ تدمعُ	الطويل	122
171.	غداةَ لقيناها .... والمطيُّ خواضعُ	الطويل	124
172.	ولَمّا أَجَدَّ ... بثنةَ فاجعُ	الطويل	118، 132
173.	فَوا كَبِدي .... لُبْنى كالخِداعِ	الوافر	162
174.	ما وَجْدُ علويّ .... ماءً ومرتعا	الطويل	165
175.	ولِلْحُبِّ آياتٌ .... من يديه الأشاجِعُ	الطويل	79
176.	ألا تَتَّقين الله .... خاشِعاً يَتَضَرَّع	الطويل	81
177.	وباتَ وسادي .... يَبْدُو أشاجِعُه	الطويل	84
178.	صدّتْ بثينةُ ..... موعودٍ وإطمــاعِ	البسيط	86
179.	أحقّاً، عبادَ الله ..... لي المسامِعُ	الطويل	92
180.	ومُــشــاحنٍ ذي .... عقاربَ لُسّعا	الكامل	93
181.	فلمّا تواقفنــا .... الحُسْن أنْ تتقنّعا	الطويل	108
182.	لقد حَبَّبتْ .... الوتائرِ فالنقعِ	الطويل	109
183.	أَقْبَلْتُ أُخْفي .... مَشى يَتَقَنَّعُ	الكامل	145
قافية الفاء			
184.	فَأَتْبَعْتُهُنّ الطَّرفَ .... الجِنّ خاطِفُ	الطويل	116
185.	فابتسمتْ عن .... الثنــايا يَنْــطِــفُ	مجزوء الرجز	127
186.	هو الحبُّ .... كان خافيا	الكامل	137
187.	تَعَلَّقْتُها والنّفسُ ..... جُمْلٍ وتضْعُفُ	الطويل	81
188.	وحُبٌّ بدا ..... الرُّوح أَلْطَفُ	الطويل	82
189.	ومن عَجَبٍ .... رَكْباً وُقُوفا	المتقارب	151
190.	كَعابٌ إذا ..... وهو مُزْحَفُ	الطويل	173
191.	فَحُورٍ كَمِثْلِ ..... مشياً قطوفا	المتقارب	144

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
قافية القاف			
.192	وإنّي امرؤٌ .... كالعين تعشقُ	الطويل	24
.193	لا شيء أحْسَنَ ..... عِيرُها لِتَفَــرُّقِ	الكامل	119
.194	تكادُ غداةَ البينِ ..... العَيْنُ تَنْطِــقُ	الطويل	122،140
.195	فَلَمّا رَأَتْ ..... عَلينا سُرادِقُهُ	الطويل	124
.196	غَضِبَتْ أنْ ..... مَرَرْنَ الطَّريقا	الخفيف	131
.197	إذا رُمْتَ كُتْمانا .... عينٌ بِسرِّكَ تَنْطُقُ	الطويل	134
.198	فلمّا التقينا .... مَنْ نَخافُ ونُشْفِــقُ	الطويل	135
.199	لقد عُجْتُ .... غيْــرُ التّوافُــقِ	الطويل	137
.200	يقولون: لبنى .... عليها وطلّق	الطويل	99
.201	تَنَضَّيْتُ من ..... من الهَوْلِ تَخْفِقُ	الطويل	163
.202	فلمّا تَقَضَّي .... الحَيُّ أَرْفَقُ	الطويل	164
.203	ألم تسأل .... بيْداء سَمْلَقُ	الطويل	175
.204	قل للمنازل .... لمّا تُخْلِقِ	الكامل	178
.205	أمن رسم .... ما ليس ينطِقُ	الطويل	177
.206	ألم تسأل الأطلال .... فيخبرِ إن نطق	الطويل	175
.207	بَرى حُبّها ..... أَعْظمٌ وَعُرُوق	الطويل	80
.208	تُبِيــنُ هوى .... الحُسْنِ رَوْنَقُ	الطويل	108
.209	لعمري لو ... دمعها تترقرقُ	الطويل	89، 140، 152
.210	قطوف المشى .... مشيها خرقا	مجزوء الوافر	173
.211	كأَنَّ فَتِيتَ ..... أَردانُها والمَرَافِقُ	الطويل	143
قافية الكاف			
.212	قالت بثينةُ ..... ما كان أوحاكا	البسيط	150
قافية اللام			
.213	إذا قامتا تضوّع .... بريّا القَرَنفُل	الطويل	59، 142
.214	إذا ضَرَبَتْ ..... المُقلتينِ أَسِيلُ	الطويل	113
.215	فقلتُ وقد ضاقــتْ .... والعَيْنُ تَهْــمِــلُ	الطويل	121

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
	قافية اللام		
.216	أرادت، فلم ..... رَسولاً فَتُرسْلا	البسيط	125
.217	مِنْ اللاّءِ لَمْ .... البريء المُغَفَّلا	الطويل	126
.218	فقلتُ لها .... سألْتُ جميـــلا	الطويل	128
.219	كلانا بكى ..... عَبرةً قَبْلي	الطويل	135
.220	لقد فرح ..... جانب البُخل	الطويل	98، 137
.221	وآخرُ عَهدي ..... من البين تَقْتُلُ	الطويل	139
.222	كِدْتُ يومَ ..... يومِ الرَّحيلِ	الخفيف	139
.223	فيا حُسْنَها ..... منها الأَنامِلُ	الطويل	141
.224	لمّا التقينا .... قلّبا حُوّلا	السريع	98
.225	فصددتُ عنكَ ..... كاشح لا يعقلُ	الكامل	101
.226	لقد أرسلت .... التجنُّب أمثل	الطويل	103
.227	فلمّا مَضَتْ .... العُيونِ غُفُولا	الطويل	164
.228	حاوْلْنَني لأُبُتَّ .... جَهَدْنَ بِفاعِلِ	الكامل	164
.229	ألم تربع .... نفع السؤول	الوافر	175
.230	أهاجتْك المنازلُ ....منهن الحُمولُ	الوافر	176
.231	يا صاحبي ..... ما فَعَلا	البسيط	178
.232	سائلا الرَّبع ..... الغدَاة طويلا	الخفيف	178
.233	ألا أيّها الرّبع ..... غير آهلِ	الطويل	176
.234	يا صاحبي ..... معالمهنّ كالأسمال	الكامل	179
.235	أصْبَحْتُ من ..... اليوم مَشغولُ	البسيط	82
.236	ألا من ..... المُستَهامِ هَمُولُ	الطويل	83
.237	يلومون صبّا ..... لم يلوموا؟ وأجملوا؟	الطويل	84
.238	وقالوا: قد ..... به النُحُولُ	الوافر	85
.239	مُنَّعَمَةِ الأَطْرافِ ..... الخَيْلِ في الوَحْلِ	الطويل	170
.240	قُلْتُ إذْ أَقْبَلَتْ .... تَعَسَّفْنَ رَمْلا	الخفيف	172
.241	وَأَقْبَلْنَ يَمْشينَ .... بالحَدَقِ النُّجْلِ	الطويل	171
.242	خَوْدٌ إذا .... المَشْي مِكْسالُهُ	السريع	171

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
قافية اللام			
.243	فجاءَتْ بها ..... الجَوادُ المُجَلَّلُ	الطويل	173
.244	أَمْسَى شِبابُكَ ..... حَلَّ فاشْتَعلا	البسيط	155
.245	رَأَتْني خَضيبَ ..... الرَّأْسِ مُسْبِلا	الطويل	155
.246	ولَمْ يُرِبْني ..... الفَتَى عَقَلا	المنسرح	156
.247	إنَّما أَلْوَتْ ..... حِلْمٍ واكتهالِ	مجزوء الرمل	158
.248	أَشِرْ يابن .... لتسلُبني عَقْــلي	الطويل	159
.249	يا أُمّ نوفَلَ ..... هالِكٌ عَجَلا	البسيط	145
.250	وكأنَّ رِيَّا ..... قرارةٍ مَوْبولا	الكامل	146
.251	رُعْبُوبةٍ نفْحُ .... المُحِبَّ بَطائِلِ	الكامل	147
.252	ألا أيُّها الرَّبْعُ ..... ما كان لا يخلو	الطويل	148
قافية الميم			
.253	أعياك رســم ..... كالأصمّ الأعجم	الكامل	60
.254	يا ربْع ..... ولا تستعجم	الكامل	15
.255	تعلّقت ليلى ..... من ثديها حجم	الطويل	73
.256	فرحنا بقصر ..... الكاشح المتنمّم	الطويل	103، 123
.257	نظرتُ إليها .... حتى تتمّما	الطويل	114
.258	وعشيةً حَبَسَتْ ..... من كاشحٍ يَتَنَمَّمُ	الكامل	123
.259	ولَمّا التَقَيْنا ..... الكاشِحِ المتنمّمِ	الطويل	123
.260	فأَقْسَمْتُ لا أنسى ..... منّي المُجَمْجَما	الطويل	125
.261	وَنَظَلُّ نُظْهِرُ .... وَنَحْنُ لا نَتَكَلَّمُ	الكامل	127
.262	ألا إنّ دَمْعَ ..... به مُتكلِّمُ	الطويل	133
.263	أيا ليلُ ..... تعلمين وأعلَمُ	الطويل	133
.264	من يَكُنْ ..... دَمْعا سِجاما	الخفيف	138
.265	ودَّعْتُهُنَّ ولا شيءٌ ..... الأَعيُنُ السُّجُمُ	الطويل	140، 167
.266	لقد أكثر ..... من اللوم ألوما	الطويل	197
.267	وأنتِ التي ..... فيك يَلومُ	الطويل	98

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
قافية الميم			
.268	فما أعلمَ ..... للمودّةِ كاتــمُ	الطويل	101
.269	خليليّ هذا ..... ثمّ سلّما	الطويل	179
.270	ألا قف برسم .... وذكّرني نُعْماً	الطويل	179
.271	أيا أَبتي .... الفؤاد سقيما	الطويل	80
.272	أَنا الهائِمُ الصّبُ .... حبالك مُسْلما	الطويل	85
.273	خليليّ كفّا .... بلومكما ظلماً	الطويل	97
.274	خليليّ، بعض .... تقولا على علم	الطويل	93
.275	أَعْلى غير ..... رؤوسِ النّــيــامِ	الخفيف	106، 167
.276	فبعثتُ جاريتي .... علِمت وسلّمي	الكامل	151
.277	حَيَّيْتُها فَتَبَسَّمَتْ ..... مُزْنَةٌ تَتَبَسَّمُ	الكامل	153
.278	فَلَمَّا رَأَتْ ..... كُرْهاً – تَبَسُّما	الطويل	153
.279	قد تجشّمت .... ههنا لخصامِ	الخفيف	153، 167
قافية النون			
.280	بأنّا نوردُ .... قد روينا	الوافر	59
.281	ينوح على .... لا بنطقٍ لسانِ	الطويل	60
.282	بالأمس كان .... عَراصاتك الغربانُ	الكامل	61
.283	العين تُبْدي ..... بُغْضٍ إذا كانا	البسيط	18
.284	إنّ العيون التي .... يحيين قتــلانا	البسيط	19
.285	يا قوم أُذني .... قَبل العَين أحيانا	البسيط	24
.286	أُمامةُ قد ..... نراك فألمسينا	الوافر	25
.287	وأسرارُ المُلاحَظِ .... اللحْظِ الظُّنُونُ	الوافر	111
.288	إذا كبِدانا .... ظَلَّتا تَجبانِ	الطويل	117
.289	كلانا مُظْهِرٌ .... صاحبه مكيــنُ	الوافر	130
.290	يَشْهَدُ اللهُ ..... لي، وحَزَنْ	الرمل	134
.291	وقال زَمِيلي .... الهوى تَكِفَانِ	الطويل	136
.292	وما حبُّ .... ثمّ طَواني	الطويل	100
.293	أَشَارَتْ إِلينا .... مثل ذاك بَنانُ	الكامل	166

الرقم	عجز البيت	البحر	الصفحة
	قافية النون		
.294	فأشَارَتْ بأنَّ ..... وجْداً رصِينا	الخفيف	166
.295	قل للمنازل ..... اليوم تِبيانا	البسيط	179
.296	وكيف إلى .... مَنْكَبي وَبَنَاني	الطويل	80
.297	خليليّ مكنُون .... الهوى تَرَيان	الطويل	84
.298	برغمي أُطيل .... عليها وأعينُا	الطويل	86
.299	وأتت صواحبها .... غيرنا وجفانا	الخفيف	88
.300	فإذا نعجةٌ .... المناظِر عيناً	الخفيف	89
.301	فقلت، لمّا .... تدنينَه دُونـــي	البسيط	89
.302	قد صدقْنَاكَ ..... شأْنٌ شُؤُونا	الخفيف	91
.303	ألا حيّ التي .... خوف تحيّينا	الهزج	94
.304	ضَحِكَتْ أمُّ .... بْنَ سِنانِ	الخفيف	151
.305	والعينُ تَعْشَقُ ..... الأنْفُ والأذنُ	البسيط	143
	قافية الهاء		
.306	ألا إنّ ليلى ..... من ثقيف، حبالها	الطويل	66
.307	تذكّرت النّفسُ .... العين عُوَّارَهـــا	المتقارب	115
.308	إذا جئتها وسْط .... ليستْ تُريدها	الطويل	130
.309	وتَحْتَ مجارى .... لا يُنادي وَليدُها	الطويل	135
.310	بكى فرحا .... حَسَنا سِواها	الوافر	135
.311	وإنّك لو ..... منها دموعُها	الطويل	141
.312	يكذّبُ أقوالَ ..... كأنْ لا أريدها	الطويل	102
.313	وَأُعْرِضُ عن ..... كأنّي أُهينُها	الطويل	147
	قافية الياء		
.314	خليليّ لا تستنكرا .... أُديم بُكائيا	الطويل	134
.315	وتذنب ليلى .... الناس ما بيا	الطويل	86
.316	فودّعتهم عند .... بأنّ لا تلاقيا	الطويل	152

فهرس المحتويات

الإهداء.....أ
إقــرار .....ب
الشكر والتقدير .....ج
الملخص باللغة العربية ..... د
الملخص باللغة الإنجليزية .....ه
المقدمة.....و
التمهيد 1

الفصل الأول

المبحث الأول:- صور التّواصل غير اللّفظي الإنسانيّ عند قدماء العرب:.....8
المبحث الثاني:- صور التّواصل غير اللّفظي عند المحدثين:..... 26

الفصل الثاني

النظريات الدلالية الحديثة

المبحث الأول:- النظريّة السياقيّة- الحالية:..... 41
المبحث الثاني:- النظريّة السيميائيّة: 51
المبحث الثالث:- النظريّة الإشاريّة- التصوريّة 54

الفصل الثالث

القسم الأول: بيئة الغزل العذريّ - الإباحيّ في الحجاز 58
القسم الثاني: صور التّواصل غير اللّفظي في شعر الغزل العذريّ - الإباحيّ..... 79
المبحث الأول:- لغة لسان الحال (الهيئة الجسمية) 79
المبحث الثاني:- لغة لسان حال فئة المترصدين من الرقباء والوشاة والكاشحين 95
المبحث الثالث:- لغة تقاسيم الوجه 105
المبحث الرابع:- لغة العيون 110
المبحث الخامس:- لغة الدموع 132
المبحث السادس:- لغة الشّم 142
المبحث السابع:- لغة الابتسامة.....149
المبحث الثامن:- لغة الشّيب.....154
المبحث التاسع:- لغة اللّمس (الإشارة بالأنامل واليد).....160
المبحث العاشر:- لغة الحركة والانتقال (المشي) 169

المبحث الحادي عشر:- الدّلالات غير اللّفظية التي تُنقل عبر النُّصْبَة.....174
الخاتمة.....183
المصادر والمراجع.....185
المصادر والمراجع العربية.....185
المراجع الأجنبيّة.....191
الدوريات.....191
الإنترنت.....191
فهرس الآيات.....192
فهرس الأحاديث.....193
فهرس القوافي.....194
فهرس المحتويات.....207